منشورات
جمعية منتدى النشر
النجف الأشرف - العراق

أحلام اليقظة

مع الفيلسوف صدر المتألهين

تأليف
المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا المظفر

تحقيق وتعليق
الدكتور محمد جواد الطريحي


شبكة الفكر
alfeker.net

منشورات
جمعية منتدى النشر
النجف الأشرف - العراق

أحلام اليقظة

مع الفيلسوف صدر المتألهين

تأليف
المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا المظفر

تحقيق وتعليق
الدكتور محمد جواد الطريحي

الكتاب........................	احـــــلام اليقـــــظة
المؤلف........................	الشيخ محمد رضا المظفر
تحقيق........................	د. محمد جواد الطريحي
الطبعة........................	الاولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
المطبعة........................	دار الضياء للطباعة والتصميم هـ(٠٧٨٠١٠٠٠٦٠٣)
عدد النسخ........................	(١٠٠٠)نســــــــــخة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (١٥٥٨) لسنة ٢٠٠٩

الإخراج الفنّي : علي محمد جواد الطريحي


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان من حسن التوفيق اهتمامي بدراسة الدور الحضاري لمدينة النجف الأشرف[1] ومكانتها المتميزة على مستوى الفكر والثقافة الإسلامية الرائدة التي تجلّت في مواقف أعلامها بما سجله تاريخها الغابر والحاضر في تنمية العقل المسلم وتطويره وإعادة تشكيله وفق مقتضيات التفاعل والتلاقح والتأثير في صياغة الرؤى الإسلامية في ضوء مستجدات ما حصل على الساحة الفكرية، مع تميزها في الحفاظ على الثوابت ووعي متطلبات المرحلة، فحين واجه العالم خطاب النهضة الحديثة كان لحاضرة النجف العلمية مساهماتها المؤثرة في العدّة والعدد لاستقطاب المنجز النوعي في مفاهيم التجديد ومواكبة مسيرة الإصلاح، والقرار المناسب في القضايا الاجتماعية والسياسية والمشاركة في تأسيس البنى الهادفة لتطلعات الأمة الناهضة بأسباب الرقي الذهني، والوسطية في التقابل بين الأصالة والمعاصرة في مساحة متوازنة لتأصيل العلوم الشرعية، وأسلمة العلوم العصرية بما يقدم لمستقبل الأجيال زاداً معرفياً يستوعب هموم الإنسان والمجتمع ويسمو في عطائه الإنساني نحو تأصيل لغة الحوار مع الآخر والتسامح والمحبة والسلام.

وفي ضوء ما سبق نكتشف دور الريادة والتأسيس لشيخ الفكر الإصلاحي المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا المظفر الذي بذل قصارى جهده وأوقف نفسه

---

(١) بدأت منذ أكثر من ثلاثة عقود بإعداد المشروع لم أنقطع خلالها عن جمع المعلومات وتصنيفها وفق خطة مدروسة في وقتها ولحد الآن وقد كان من محاور الدراسة المهمة ما يتعلق بـ(المجموعة الكاملة للشيخ المظفر) الجاهزة للإصدار ومنها هذه الحلقة التي تمثل جزءاً من الجانب الفلسفي لآثاره.

الغالية لتحقيق ما تصبو إليه المؤسسة الدينية في النجف في حاضرها والتخطيط لمستقبل جامعتها العلمية في دراسات الشريعة والعقيدة الإسلامية ورفد مسيرة تقدمها بمختلف اتجاهاتها الواعدة ومنها دراسات الحكمة والفلسفة العالية وقد اجتمعت لديه مقومات النجاح في الدرس والتدريس والمباحثة والتأليف فانبرى يصدر عن نفس مطمئنة بخطى واثقة ليضع اللبنات الأساسية في كيان معرفي حالم وجاهد بعلمه وعمله، وبقلمه وخطاه، متوثبا بقلب شجاع ليتحمل بالصبر والرضا ما يواجهه المصلحون عادة من أبناء الزمان، متحلياً برباطة جأشه لإيمانه بأن الإخلاص لله ينمو ويخلد.

ومن دواعي الفخر والاعتزاز أن أتصدى لجمع تراث الشيخ المظفر وأعماله الفكرية كتاباً أو بحثاً أو مقالة أو رأياً، و أن تتبنى المشروع جمعية منتدى النشر في النجف ممثلة في عميدها العلاّمة الأستاذ الدكتور الشيخ محمود المظفر– دام عزه–[1].

وبعد انجاز بدايات موفقة كانت تصلح أن تتحقق فيها نقطة البدء تعثر المشروع بسبب الظروف القاسية التي مرَّ بها العراق، ولم يفتّ في ساعدي ما جرى حيث توفرت لي أسباب التوفيق – بالرغم من ظروف الهجرة ومضايقاتها – للتواصل مع المشروع والإصرار على إنجازه.

ويقضي الله أمراً ليولد الحلم من جديد يافعاً حيث تجدد جمعية المنتدى شبابها لتغذ سيرها في إشراقة بهية تطالع نهضتها الجديدة في باكورة أعمال فكرية جليلة – كما عهدناها –.

---

(١) وجهت في حينه الجمعية رسالة بعدد ١٤ وتاريخ ٢٠ /٣ /١٩٨٢م لي وللأخ الأستاذ المحقّق حامد المؤمن – حفظه الله – بخصوص المباركة والتعضيد للمشروع والإشعار بطبعه على نفقتها.

وبادر أخي الأستاذ الفاضل محمد رضا القاموسي — دام توفيقه — بمفاتحتي وإعلامي برغبة الجمعية وطموحها لإحياء (التراث المظفري) ابتداءً بإصدار البحث الموسوم بـ(أحلام اليقظة)[١] وتفضل فزودني بصورة النسخة المخطوطة لأضيفها إلى أصول ما جمعته من البحث، فعدت — ولله الحمد على نعمائه — لإعادة النظر في الأصل المطبوع[٢] منه والمخطوط.

ولاستكمال البحث من كافة ما يتعلق به أضفت إليه مقدمة كتاب الأسفار المتعالية وما دوّن المظفر في وقته من مؤاخذات عليه وأعددته للنشر على الصورة التي يجدها القارئ الكريم.

ومما لابد من تسجيله من خلال تحقيق النص ومقابلته:

أولاً: حرصت على الالتزام بما أثبته الشيخ المظفر في بحثه من دون إضافة أو تغيير لما أشار إليه من مصادره التي استقى منها، ولم أثقله بهوامش تطغى على روحية أسلوب البحث الذي طمح كاتبه تبسيط مادته بلغة قصصية أدبية وتقديم المفاهيم والأفكار الفلسفية زاداً شهياً، وأما أهل الفن والاختصاص فهم أدرى بموارد المادة العلمية في مظانها المعروفة والمتيسرة في عالم اليوم.

ثانياً: كان لابد من الهوامش لبعض ما ينبغي الإشارة إليه كاستخراج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، أو تراجم الأعلام وما إلى ذلك.

---

(١) سمّاه الشيخ في النسخة المخطوطة بـ(حلم اليقظة) ونشره في مجلة العرفان وغيرها بـ(أحلام اليقظة).

(٢) لابد من التنويه إلى أن مجلة (تراثنا) الصادرة في قم عن مؤسسة آل البيت بالعددين (٨١ — ٨٢) للسنة (٢١) بتاريخ محرم — جمادى الأولى ١٤٢٦هـ قد أعادت نشر الحلم الأول والثاني المنشورين في المجلد ٣٣ من مجلة العرفان الصيداوية بتحقيق الأخ الفاضل الشيخ هادي القبيسي العاملي.

ثالثاً: لقد أغنانا الشيخ المظفر عن أية إضافة محتملة لاستيفائه موضوع البحث وعرضه بأسلوب فني رائع.

رابعاً: ارتأيت كتابة مقدمة مختصرة عن تاريخ دراسات الفلسفة في حوزة النجف الأشرف[١] تابعت فيها الاتجاه الفلسفي في فكر المظفر وتراثه.

وأخيراً – وليس آخراً – أكرر التقدير لجمعية منتدى النشر بشخص رئيسها الأستاذ الدكتور المحمود على تعاونه في إنجاز هذا العمل الجليل وتيسير نشره. ولكل من شارك معي في إتمامه ولا سيما عائلتي الكريمة التي صبرت معي وخاصة ولدي العزيز قرة عيني (علي) لإنجاز ما يخص الإخراج الفني ولكل من أعان وأفاد، معتذراً عما شطّ به القلم من الخطأ والسهو داعياً المولى بالسداد والإحسان.

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾[٢].

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

محمد جواد الطريحي

غرة شوال المكرم ١٤٢٩هـ

١/١٠/٢٠٠٨م

هولندا

---

(١) لكاتب هذه السطور دراسة موسعة عن تاريخ الدرس الفلسفي في النجف.

(٢) الكهف ١٨ : ٤٦.

دراسة الفلسفة في النجف الأشرف
رؤى وملامح[1]

أصالة السمة الحضارية

تعدّ مدينة النجف الاشرف إحدى المنارات الكبرى بين عواصم المعرفة الإسلامية والثقافة الدينية في العالم ،وتحتل مكانة الحاضرة الأولى للمسلمين الشيعة الإمامية.

وقد عُرف امتيازها طوال الحقب التاريخية إلى اليوم بالتراث العلمي الضخم الذي أسسته ، وعنايتها بعلوم الشريعة والآداب العربية التي كانت شاهداً على ريادتها ومراحل تنميتها عبر ما يفوق الألف عام من الزمان.

ومما يدلّل على دورها الحضاري وتفوقها في التأسيس والتطوير للعلوم العربية والإسلامية ذيوع شهرتها باعتبارها معلماً خلاّقاً في جوانب مهمة من الإبداع الذهني بما لها من دور في صياغة العقل الإسلامي وتشكيل مساحات معرفية رائعة في اتجاهات التفكير الديني والعقلي ، والنهوض بواقع الفكر الإسلامي بما اتصف به من أصالة ذاتية في آفاق التربية و التعليم وتهذيب السلوك ، وبناء أسس رصينة المبنى ، دقيقة المنهج في أصول المباحث الفقهية والأصولية والكلامية مع التواصل التام والتلاقح في تجسير ما يطرق ساحة

---

(١) يمثل هذا البحث إطلالة موجزة في ضوء السيرة العلمية للشيخ المظفر(قدس سره) وجهوده دارساً ومدرساً وباحثاً فيما أغنى به آفاق وتطلعات دراسات الفلسفة وبحوث علم المعقول في المدرسة النجفية مما يؤشر أصالتها وتجذرها، ونفي ما علق بالأذهان من مناهضتها في هذا المضمار.

المعرفة الدينية باتجاهاتها المذهبية المتعددة بالتصويب أو التوفيق بالمقارنة أو تقريب وجهات النظر واحترام الرأي والرأي الآخر يقابل ذلك عملية وعي وفهم ما شهده تاريخ العلوم العصرية بمستوى إنجازاته العقلية، وإبداعاته التكنولوجية، والرؤى الفكرية المعاصرة، ونزعات التحرر الوطنية والعقيدية، فقد كان للنجف رؤيتها وموقفها الفاعل ومشاركتها على مسرح الأحداث والوقائع بما تعنيه من التفاعل والأثر على تطلعات خطاب النهضة الحديثة ومعطيات التغريب والاستعمار الحديث في واقع الأمة العربية الإسلامية.

ويشهد التاريخ النجفي بتراثه العريق معالم من شهادات الحضور والمجاورة والإقامة والتوطن فيها لصفوة من علماء الشريعة وأساطين الحكمة الآلهية ونوابغ المعرفة الإسلامية الذين تعاقبوا وما برحوا يتوافدون رغم الصعاب وشدة المحن التي تراكمت مرّ الأحقاب لنيل شرف الانتساب علمياً إلى مدرستها والتشرف بالدفن في ثراها المقدّس.

إن هذه السمة الحضارية للنجف تمثل سر عظمة النجاح والاطراد فيما أبدعته عقول علمائها ومفكريها بما عرفوا به من الشفافية والمرونة في التعاطي والاتصال وسرعة الانجاز لما يمتلكونه من إجادة ومهارة في أداء مسؤولياتهم تجاه العقيدة والفكر والتاريخ وما يبرز قوة الشخصية النجفية وسمو تفكيرها وحرصها بان لها في كل قضية تهم الإسلام والمسلمين موقفاً ورؤية، وما أحاديث إقصاءها وتهميشها! إلا بحكم الدليل القاطع على مدى تأثيرها الفاعل في الأحداث المحلية والإقليمية والعالمية.

ومع ضخامة ما أبدعته مدرسة النجف في دلالات التراكم المعرفي فقد التبس الأمر على البعض خاصة ما يتعلق بريادتها لدراسات الفلسفة والحكمة

الإلهية وفنون المعقول ومصادرة إغناؤها هذا المضمار[١] بما يمتلكه من أهمية اشادبها أحد الأعلام الأفاضل من خريجي جامعتها بقوله: " إن العقيدة الشيعية هي من أعمق العوامل وأبعدها أثراً في التوجيه وفي تكوين الروح الفلسفي في نفوس أتباعها. فالفكرة الشيعية قائمة في أكثر جوانبها على التأمل والمنطق المبنية على تفهم الواقع الإنساني وعلى فهم الروح العامة في الشعوب ولاسيما في موضوع الإمامة والعصمة والجبر والاختيار، وكانت نظريات الشيعة وخاصة السياسية أثبت جذوراً وتأثيرا" [٢]. "وإن في النجف الأشرف علماء في الفلسفة كما فيها علماء في الفقه وأصوله فلماذا لا يكتبون في هذا الموضوع؟ لماذا لا يثبتون بالأرقام للعالم كله أن للمسلمين فلسفة مستقلة عن كل فلسفة وأنهم مستقلون لا ناقلون عن اليونان وأن الفرق بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية كالفرق بين المركب الشراعي وبين المركب البخاري"[٣].

وقد أثبت الواقع العلمي والعملي ما يشخّص مستوى الرصانة والإثارة لتربة النجف الخصبة للفلسفة إذ نبتت وتعمقت فيها النظريات اللغوية والاجتماعية التي يتناولها علم الأصول بالدرس والنظر وفق المنهج العقلي.

---

(١) مما يفنّد هذا المدّعى أن للفلسفة الإسلامية – بوجه أخص – وجوداً في أوساط الحوزات العلمية طلابها وأعلامها على مستويات تختلف من حيث القوة والضعف بحسب الظروف الموضوعية ومقتضى الاتجاهات الفكرية السائدة زماناً ومكاناً تشهد على ذلك سير الأعلام ومصنفاتهم وتاثرمناهج العلوم الشرعية بأساليب ومناهج العلوم العقلية.

(٢) العلامة الراحل محمد جواد مغنية. مقدمة كتاب فلاسفة الشيعة للشيخ عبد الله نعمة.

(٣) محمد جواد مغنية في مقاله الموسوم (متى نقرأ كتاب النجف في ألف عام) وقد عهد إليه مهمة تدريس مادة الفلسفة الإسلامية في الجامعة اللبنانية.

وإذا ما واكبنا مسيرة التفكير العقلي عند المسلمين وتطور النظريات والأفكار فسوف نكتشف أن لمدرستي الفلسفة والكلام في النجف – وما يدور مدارهما من علوم – الجوانب الواسعة المدى بأبعادها الجديرة بالبحث والتدوين فيما قدمته هذه الحاضرة العلمية العميقة الجذور من ثمار ونتاجات نوعية ومفصلية تبدو أهميتها جلّية في أصالتها وتطوير مراحل التفكير العقلي في الإسلام الذي رسمته آيات القرآن الكريم، وتوافرت على تعميقه معارف أهل البيت – عليهم السلام – في ضوء التخطيط لها وبناء قواعدها ومتابعة نشوئها وترسيخ معطياتها وتقويم مساراتها.

وعند إمعان النظر في آفاق التأسيس للجامعة النجفية يتضح أن الإمام علياً – عليه السلام – وهو " فلك الحقيقة، وخزانة العقل، والإنسان المتأله إذ استكمل الحكمة النظرية بالقوة القدسية بل كان بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس"[١]. فهو لذلك قد ارتقى بدوره الرسالي لوضع حجر الأساس في مدرسة الحكمة العقلية عندما بادر إلى طرح إفاضاته وبنات أفكاره بخطب نهج البلاغة على منبر الكوفة[٢]، وبدروسه التي كان يمليها على صرح (الذكوات البيض)[٣] في بقعة الغري المشرّفة على صفوة النخبة الذين اختارهم

---

(١) معراج نامه لابن سينا طبعة رشت : ١٧. وانظر هامش الشفاء الطبعة الحجرية القسم الإلهي : ٥٦٤ . إلهيات الشفاء المقالة العاشرة : ٤٥٥ .

(٢) للشيخ المظفر قدس سره محاضرة قيمة بعنوان (نظرية المعرفة عند الامام علي (عليه السلام) تطرق فيها إلى آثار فلسفة الإمام في الإسلام وهي إضمامة مما ألقاه رحمه الله في الاحتفال العالمي الذي أقيم في باكستان بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على ميلاد أمير المؤمنين.

(٣) جمع الذكوة وهي الجمرة الملتهبة يقال للشمس (ذكاء) لأنها تذكو كما تذكو النار عند الشروق واكتسبت قدسيتها بعد دفن جسد الإمام علي عليه السلام بين ظهرانيها وقد تسمى الربوات أو أن

←

من أصحابه، ثم تواصلت المسيرة العلمية برعايته الخاصة التي ملأ صداها الزمن الغابر والحاضر في تأسيس حلقة الدرس في المباحث الإلهية فكان هو الرائد لفكرة علم التوحيد[١] الذي تعلمه وأستفاده من فيوضات صاحب الرسالة المحمدية — صلى الله عليه وآله وسلم — وبعده تعاقبت أدوار أبنائه أئمة أهل البيت[٢] — عليهم السلام — برفد هذا المنحى الفكري في أجيال استغرقت قروناً من الزمن تخرجت فيها مئات الآلاف من مفاخر العلماء الحكماء لتأصيل دراسات الفلسفة الإسلامية التي انتهلت من المعين الصافي لمدرسة النبوة والإمامة.

عمق المسار الحضاري

ولم تكن المبادرة العلوية على تفردها بمعزل عن تجربة التفكير الفلسفي في تاريخ الإنسانية في مخاضها العلمي من حيث الزمان والمكان بدلالة نظرية

الذكوات تصحيف من الربوات وهي مرتفعات تطل على الوادي أخذت مسميات جديدة لكل منها ففي محلة العمارة (جبل شرف شاه) وفي محلة المشراق (جبل الديك) وفي محلة البراق (جبل النور). انظر الدكتور حسن الحكيم، المفصل في تاريخ النجف الاشرف ١ : ٢٥٢ وما بعدها.

(١) أفاض شيخنا المظفر في هذا المعنى ببحثه الفلسفي الرائع (معجزة أمير المؤمنين عليه السلام في علمه)، ومحاضرته في (نظرية المعرفة عند الامام علي)، مجلة النجف السنة الأولى.

(٢) يشير الشيخ المظفر إلى البرودة بين أهل الدين وطلاب الفلسفة مع تظاهر الفلسفة الإلهية بتأييد الدين الإسلامي وظهور نتائج اتفاقها مع العقائد الثابتة، واستمرار الحرب العوان بين الطرفين رغم محاولات التطابق أو عدم الاختلاف. وانعكاس ذلك على التباعد بين علم الكلام والفلسفة فيما سجل أئمة آل البيت تحذيرهم ونهيهم من إتباع المتكلمين من غير دليل لأنهم علمونا إتباع الإسلام بأكمله، ونهونا عن إتباع رأي علمي من غير علم ويقين. ولعل معرفة هذا الأمر يوضح دعوى مناهضة دراسة الفلسفة في إطار الحوزة العلمية من بعض الوجوه. أنظر البحث القيّم في مجلة البذرة (ابن سينا وعلاقة الدين بالفلسفة) للشيخ المظفر ومحاضراته المطبوعة على طلابه بكلية الفقه في الفلسفة الإسلامية: ٧٦.

المثلث الحضاري[١] وارتباطها بتوطئة الإمام علي – عليه السلام – والتمهيد لحاضرته العلمية بما يتجسد في غمار البحث التاريخي لجغرافية المنطقة في تواصل الإرث المعرفي[٢] لمدينة (الحيرة) في التلقي والتلاقح بحضارة (بابل) و(سورا) وميراثهما القديم وماشهدته هذه المدينة عهد مملكتها العربية باعتناق ملوك الحيرة الديانة النصرانية وفق المذهب النسطوري الذي جعلها مفتوحة على تيارات الفلسفة اليونانية فقد كان هؤلاء يميلون إلى النظر العقلي خلافاً للمسيحية المنتشرة في داخل الجزيرة العربية وبعض القبائل الحجازية واليمنية والتي كانت تعتقد بطبيعة واحدة للسيد المسيح وتميل إلى الرهبنة وكانوا يختلفون عن الكنيسة البيزنطية التي كانت رؤيتها في مقولتهم هرطقة وتجديفاً بحق السيد المسيح مما دعاها إلى اضطهادهم بسبب أنهم كانوا قد درسوا في (نصيبين) كتب اليونان وفلسفتهم وترجموا كتب أرسطو إلى السريانية ثم أصبحت الحيرة مقراً لهم بعد إخراجهم من نصيبين واتجه بعضهم إلى (كسكر)[٣] حيث شاركوا في تدريس الفلسفة اليونانية وجعلوا من منطقة جنوب العراق مركزاً للفلسفة اليونانية بترجمة سريانية و بقيت هذه الترجمات معتمدة حتى فترة متأخرة[٤].

---

(١) تنطق هذه النظريةبالاصالة الحضارية للنجف و ملخص ماتعنيه من العمق الحضاري في المنطقة التي تبدأ أطراف المثلث فيه بالحيرة ثم الكوفة ثم النجف .وهناك رؤية أخرى بقدم الكوفة وسبقها على هذا الترتيب كما يرد لاحقاً.

(٢) مع الاحتفاظ بقدسية المبادرة العلوية وخصوصياتها بمدينة النجف وأسس تكوينها المعرفي.

(٣) مدينة تقع قرب واسط التي تشمل اليوم مدينتي الكوت والعمارة.

(٤) انظر معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر تأليف نعمان بن محمد بن العراق تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، باكستان ١٩٧٣ : ١٦.

أما مدينة الكوفة فقد تأسست فيها قديماً مدرسة سريانية عرفت باسم (مدرسة عاقولا) بقيت إلى عهد الرومان الذين احتلوا العراق وانتقلت إليها الدراسات اليونانية ولما اندرست عاقولا نهضت الحيرة وما حولها من الديارات والكنائس بواقعها الفكري ثم انتقل ما في الحيرة إلى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة إلى النجف الإشرف.

وتأتي أهمية مدرسة الكوفة العلمية تعبيراً عن اتجاه فلسفي في الفكر الإسلامي أرساه ورسّخ قواعده الإمام علي عليه السلام حيث جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ومن هنا ابتدأ النظر والتأويل الفلسفي في الفكر الإسلامي[١].

إن انفتاح ملوك المناذرة على آفاق الفكر اليوناني والمقولات الكلامية المسيحية كان له الأثر البالغ الذي تجدد فيما بعد في العصر الإسلامي وربما يعدّه الباحثون من الأسباب التي تفسّر الطبيعة المعقدة للكوفة بعد تأسيسها وكثرة ظهور الفرق والفتن فيها، في مقابل ما عرفت به هذه الحاضرة من ولائها للإمام علي الذي تقف مع خطه السياسي والفكري و ان من المؤكد بأنه — عليه السلام — كان على وعي بحركاتها الفكرية التي اتصفت بعمق المحتوى العقائدي والتجذر الديني وتفاعل شريحتها الاجتماعية بهذا الواقع.

تأسيس الفكر الفلسفي في الإسلام

إن البحث في تاريخ المعطى الفلسفي عند المسلمين يمتد إلى جذور عميقة نمت وتطورت في أصول العقيدة الإسلامية بما رسمه المنهج القرآني ونوهت به

---

(١) النجف الاشرف مدينة العلم والعمران. محمد كاظم الطريحي : ١٦.

السنة المطهرة في عصر الرسالة فإن في آيات القرآن عرضاً مهماً (للرد على المنحرفين الملحدين في حوار عقلي مؤثر وبأسلوب من أروع الأساليب الاستدلالية وأسدها)[١] واستمرت على مستوى ما خطه أئمة الهدى من أهل البيت – عليهم السلام – حيث (أن الأئمة سبقوا الناس إلى إعطاء الفكرة النهائية لجميع الموضوعات التي بحثها علم الكلام والفلسفة من قبل أن يظهرا عند المسلمين)[٢] .

ولما كان " كل علم حيث يبدأ أول ما يبدأ في بحث بعض المسائل البسيطة المتعلقة به ثم يأخذ في النمو والتطور حتى يتكامل فيصبح بنية أو كياناً قائماً بذاته متميزاً عن غيره "[٣].

لذا فان العقل الإسلامي قد تمحور زماناً ومكاناً بحسب متطلبات المرحلة يتطور في عطاءاته في ضوء ما يؤسسه الإسلام، وأما الناس فقد جبلوا على طبيعتهم بالتباين فيما يحكمون به تجاه النزعات الفكرية قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ❖ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾[٤].

وإذا كانت الحقائق تؤكد: أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية ولهذا الاختلاف شأن عظيم في ميدان الفن والأدب والسياسة

---

(١) الدكتور محمود المظفر في مقاله (علم الكلام) المنشور في مجلة النجف العدد ٦ من السنة الخامسة شوال ١٣٨٢هـ – آذار ١٩٦٣م : ٧٨.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن محاضرات الشيخ المظفر في الفلسفة الاسلامية أنظر الدكتور المظفر في بحثه بمجلة النجف : ٦٦.

(٣) المصدر السابق، الدكتور المظفر : ٧٨.

(٤) هود ١١ : ١١٨– ١١٩.

فمن المفيد الإشارة إلى عثور الباحثين "على نصوص سريانية من مخلفات العهد الإسلامي الأول في العراق وفيها ترجمات لبعض سور القرآن التي تكلمت عن المسيحية نقلها السريان إلى لغتهم في مطلع غزو المسلمين لما بين النهرين لكي يناقشوا مضمونها "[١].

وقد وقع الخلط لدى الباحثين في أصالة الفلسفة الإسلامية من حيث تأثرها وتبعيتها لعصور الفلسفة القديمة بمدارسها المختلفة بل إن البعض أكد منافاة الفلسفة لطبيعة الروح الإسلامية وبلغ إلى نتيجة عدم قدرة المسلمين لإنتاج عمل فلسفي[٢] وانه لم يكن عند واحد من المشتغلين روح فلسفية بالمعنى الصحيح وتجنّى غيره في هذا المنحى بان الحضارة الإسلامية "متقبلة لا منتجة، آخذة لا معطية، مقلّدة لا مجتهدة، لا ابتداع ولا خلق، بل نقلت إليها الحضارة اليونانية أو التراث اليوناني فأخذت منه ما اخذت وشوهت ما شوهت، ولكن لا خلقت جديداً ولا أبدعت أصيلاً "[٣].

وفي الحقيقة يجد من يحاول استكشاف تاريخ نشوء الفلسفة وتطورها الفكري بشكل عام أنها تأثرت بعوامل متعددة مكانية وزمانية وشخصية.

وأما بخصوص تأسيس الفلسفة الإسلامية فلا شك أن انتشار الفلسفة اليونانية أثار انتباه بعض العرب حيث قلّدوها " تقليداً أعمى من غير نضج فاوجد بلبلة في الأفكار عند المسلمين وشعر المسلمون أنهم مهاجمون من قبل الفلسفة اليونانية — كما أوجدت الفلسفة الحديثة في عصرنا الحاضر بلبلة

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. الدكتور علي سامي النشار ١ : ٩٢، ١٠٨.

(٢) أنظر عبد الرحمن بدوي في مقدمة كتابه التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.

(٣) الدكتور النشار المصدر السابق، المقدمة.

في أفكارنا — ولما كانت طبيعة الفلسفة النظر إلى حقائق الأشياء غير مقيدة برأي ولا عقيدة واصطدمت هذه الفلسفة اليونانية ببعض مواقف الدين الإسلامي وأفكاره تصدى المسلمون للدفاع عن عقائدهم بأسلوب البراهين الفلسفية وحاولوا التنسيق بين الآراء الرائجة في الفلسفة وبين نظريات الإسلام ".[١]

وأما سبب نشوء علم الكلام عند المسلمين فقد كان "للدفاع عن عقائدهم بأسلوب البراهين الفلسفية حيث حاولوا التنسيق بين الآراء الرائجة في الفلسفة وبين نظريات الإسلام للدفاع عن العقيدة الإسلامية عندما هاجمتها الفلسفة اليونانية واستخدموا الأساليب البرهانية التي تستخدمها الفلسفة .

وقد نهانا أئمة الهدى — عليهم السلام — وحذرونا من إتباع المتكلمين من غير دليل لأنهم علّمونا الإسلام بأكمله ونهونا عن إتباع رأي علمي من غير علم ودليل".[٢]

ويمثل هذا الاتجاه أسلوب التوفيق الذي استعيرت به وسائل الفلسفة لغرض الاستدلال مما ينسجم من أفكارها مع روح العقيدة الإسلامية بما نشأ منه بالتالي (علم الكلام) وهو يعبّر بالذات عما قدّمه أئمة أهل البيت— عليهم السلام — حين قاموا " بحفظ عقيدة الإسلام من الانهيار أمام التيارات اليونانية بمحاربتهم المبدعين المضلّين , ولانجد فيلسوفاً عظيماً في عهد الأئمة عليهم السلام إلا وهو من أتباع أهل البيت — عليهم السلام — " [٣].

---

(١) الشيخ المظفر في محاضراته حول الفلسفة الإسلامية : ٧٥ ، ٧٦.

(٢) المظفر في محاضراته الفلسفية : ٧٥ ، ٧٦.

(٣) المصدر السابق.

وإذا استنطقنا ما سطره يراع شيخنا المظفر في معرض بحثه عن الفيلسوف الكندي نراه يقرر " أنه ظهر في عصر طغت فيه جولات طوائف المتكلمين واتجاهات أفكارهم وتلقوا الآراء اليونانية غير منقحة إذ شاعت بين المسلمين بترجمتها فشوهت كثيراً من العقائد التي لم يتلقوها من مصادرها الإسلامية الأصلية ، ولم يكتفوا بالعقيدة القرآنية الخالصة فراحوا يدافعون عن العقائد الإسلامية أو ما تخيلوه عقيدة إسلامية بما عثروا عليه من أبحاث يونانية غير ناضجة التماسا للأدلة العقلية أو شبه الأدلة العقلية مما يظنونه كان صالحاً لتأييد تلك العقائد وقد لا تكون هي العقيدة الإسلامية التي جاء بها الإسلام.

وهذا مما يبعث الاطمئنان في الاعتقاد بأن هناك وراء تلك المظاهر مدرسة فلسفية جاهدة سبقت الكندي وأثّرت فيه تعاليمها وتوجيهاتها وقد خفيت علينا معالمها وأقطابها ، والا فما استطيع أن أؤمن أن يغور رجل بمفرده إلى أعماق المباحث الفلسفية فيلتقط لآليها خالصة من مشوهات الأوهام في مثل عصره ، ولا أنكر أن يكون له فضل صقلها وعرضها ، وأصغر دليل على ما أقول ما عرضه في رسائله من المصطلحات الفلسفية المستقرة إلى اليوم مع تعريفاتها العميقة لا سيما رسالته في حدود الأشياء ورسومها وهذه المصطلحات لا يصح فيها إلا إذا كانت قد مرّت عليها أطوار من التأرجح والتطور وبالأبحاث المستمرة حتى استقرت في عصره أو على يديه ، ولابد أن نفرض أن هناك مجامع علمية تعاونت على وضعها ولنفرض أن الكندي أحد أقطابها على أكثر تقدير. وهذه المدرسة الفلسفية هي التي ألجأت المسلمين إلى اصطناع الأبحاث الكلامية لغرض الدفاع عن الإسلام من عاديتها فيما كانوا يظنون ." [1]

---

(١) الشيخ المظفر ، بحثه عن الكندي المنشور في — العدد الممتاز الصادر بمناسبة الذكرى الألفية للفيلسوف الكندي— من مجلة النجف العدد الثالث من السنة الخامسة رجب ١٣٨٢هـ— كانون الأول ١٩٦٢م : ٣.

الفلسفة وعلم الكلام

كثيراً ما يقع الخلط عند الدارسين بخصوص الحديث عن علم الكلام واعتباره جزء لا يتجزء من الفلسفة أو بأنه أحد وجوهها، لكن حقيقة التأمل والدراسة تدفع اللبس والتوهم في بيان مدى العلاقة والارتباط بين مواضيع الدراسة الفلسفية وبحوث علم الكلام.

فمن جملة الأسباب استعانة المتكلمين في بداية نشأة البحث الكلامي بالبراهين الفلسفية وذلك لأن " أساس الاختلاف بين المسلمين عقائديا هو تأثرهم الشديد بالأفكار الفلسفية التي سرت إليهم من هذه الفلسفة اليونانية، وجرى الشيعة على منهج السنة أحياناً في أسلوب التقليد المنهجي، ووقعوا في المناقشات الكلامية، وأضطروا أن يدرسوا ما خلفه أهل السنة من نظريات كلامية على الرغم من نهي الأئمة – عليهم السلام – .

إلا أن " الأئمة من آل البيت – عليهم السلام – قد كشفوا الكثير من المسائل الكلامية في كثير من أحاديثهم وخطبهم واحتجاجاتهم... من أمثال ما ورد عن الإمام علي – عليه السلام – مع معاوية والخوارج ومع الإنقلابيين والمرتدّين وأضرابهم من المشككين والحاقدين والمنافقين أيام السقيفة والشورى والجمل وصفين" [١].

و قد برزت في عهد الخلافة العلوية ظاهرة الآراء الفكرية والعقائدية والسياسية وظهور الفرق لأول مرة كالخوارج والازارقة والحرورية، ومما يروى أن ابن الكواء سَأل الإمام علياً – عليه السلام – عن القدر فأجابه

---

(١) الدكتور محمود المظفر، علم الكلام مقاله السابق الإشارة إليه: ٦٥.

بقوله: بحر عميق لا تلجه فأمهل ثم سأل فقال: ستر الله فلا تكشفه نقول بظاهر ما نرى ثم يقضي الله تعالى بغيب ما يعلم.[١]

أما في شأن مخاض التأسيس لعلم الكلام نجد أن عيسى بن روضة الإمامي التابعي وحيد عصره في علم الكلام "وهو الذي فتق بابه وكشف نقابه "وله كتاب في الإمامة، وهناك رواية تشير إلى أن أبا هاشم عبد الله محمد بن الحنفية كان إمام علم الكلام بالاتفاق وله حق التقدم على عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ومن مشاهير المتكلمين الأوائل قيس بن سعد بن عبادة وسليم بن قيس وكميل بن زياد وخالد بن عيسى بن العاص وصعصعة بن صوحان العبدي وميثم التمار وأويس القرني[٢] ومحصلة كل ذلك " أن الأئمة – عليهم السلام – سبقوا الناس إلى إعطاء الفكرة النهائية لجميع الموضوعات التي بحثها علم الكلام والفلسفة من قبل أن يظهرا عند المسلمين "[٣].

ثم تبلّورت أخيرا آراء ونظريات كلامية للشيعة الإمامية تجسدت في الأعمال الفكرية لأعلام الطائفة كالشيخ المفيد والسيد المرتضى، وكان الشيخ

---

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر ٢ : ٩. وفيه (ابن الكواء هذا) قال عنه ابن دريد في كتاب الاشتقاق انه " كان خارجيا كثير المسايلة لعلي بن أبي طالب وكان يسأله تعنتاً ".

(٢) السيد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام : ٣٥٠ . الشيخ عبد الله المامقاني، تنقيح المقال المجلد الثاني باب عيسى. السيد محسن الأمين . أعيان الشيعة، الجزء الأول، محاضرات الشيخ محمد رضا المظفر في الفلسفة، مقال الدكتور محمود المظفر. علم الكلام : ٦٦ الذي يستعرض فيه مختلف النظريات المطروحة في نشأة علم الكلام ثم يخلص إلى أن لكل من الأقوال نصيباً من الصحة لوفرقنا بين كل من النشوء، والنمو، والتكامل : ٧٧ .

(٣) المصدر السابق .

الطوسي أعظم مصلح في حينه لعلم الكلام عند الشيعة فقد صحّح ماعند الشيعة من رواسب غير صحيحة .

وهكذا تباعد علم الكلام عن الفلسفة كثيراً لأنه إنما يسعى لتحصيل البرهان على العقيدة المفروضة الصدق والتسليم ، والفلسفة تسعى لنيل العقيدة من طريق البرهان فصاحب علم الكلام يعتقد فيبرهن ، والفيلسوف يبرهن ليعتقد.

ومن أجل هذه الحقيقة قيل : أن علم الكلام لم ينجح في التوفيق بين الدين والفلسفة في وقت الحاجة إلى التوفيق لا سيما أن النظريات الفلسفية التي أخذت في موضع الاعتبار عند المتكلمين يوم نشأ علمهم لتقرير براهينهم قد تبدلت وتطورت وقد ظهر بعد حين خطأها لدى الباحثين وهذا هو السر في نهي أئمة أهل البيت – عليهم السلام – عن علم الكلام وتحذير الناس منه – ابتداءً – لا سيما أن الإمام الصادق – عليه السلام – الذي نشأ في عصره هذا العلم مع أنه كان هو كثيراً ما يحاجج المتكلمين بأسلوبهم.(١)

ومن هنا يتبين مستوى الوعي المبكر في المدرسة الإمامية(٢) بتوجيه أئمتهم وانتباههم إلى هذه المسألة بما لها من انعكاسات على سلامة العقيدة الإسلامية من خلال التفرقة بين علم الكلام والفلسفة في نواحي عديدة منها " أن الكلام وضعه المسلمون للدفاع عن الدين ، والفلسفة ليس لها طابع ديني ولا تسلك

---

(١) الشيخ المظفر في محاضراته الفلسفية : ٧٧ – ٨٠ ومقاله عن ابن سينا والعلاقة بين الدين والفلسفة وقد حاولنا التلفيق بينهما في عباراته مع الحفاظ على طابع الفكرة العامة لنتائج البحث .

(٢) ومن أثر ذلك إنتباه الأئمة (ع) إلى الفتنة التي أثارها المعتزلة بشأن خلق القرآن فقد ردوا بما يحول دون وقوع الشيعة في تلك الفتنة وبيان كون القرآن حادثاً ومخلوقاً في الوقت نفسه باستعمال تعابير مثل (الله وحده الخالق وما عداه مخلوق ، وما القرآن سوى كلام الله ويجب أن لا تطلق عليه الأسماء عواهنة) راجع الشيخ الصدوق كتاب التوحيد. مؤسسة النشر الإسلامي. طبعة قم : ٢٢٣ – ٢٢٥.

مسلكاً معيناً أو تتبع ديناً بخصوصه، وعلم الكلام إنما نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية عندما هاجمتها الفلسفة اليونانية واستخدموا الأساليب البرهانية التي تستخدمها الفلسفة ... فعلم الكلام علم مستقل لا علاقة له بالفلسفة .. وهدف الفلسفة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية، وعلم الكلام هدفه تصحيح العقائد الإسلامية ثم بعد أن يستطرد المظفر بالتطرق إلى ما أنتجه التعارض في نشوء مذاهب ومدارس فكرية متناحرة نتج عنها ظهور فتن كثيرة سالت بها دماء ومصادرة للحريات، واختفت الفلسفة والفلاسفة وصارت تدرّس سراً ونشأ في الشيعة كثير من الفلاسفة خفية .. إلى أن يقول: إن من مفاخر الإسلام ومعاجزه أنه لم يكن منه شيء قطعي يناقض شيئاً قطعياً من الفلسفة، ولم يحتو القرآن على أي شكل من أشكال التناقض والتهافت على الرغم من مرور مئات السنين على صدوره قال تعالى ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾[١] ولكنّا ندرس الفلسفة لرد الشبهات وللإقناع ولتوسيع أفق الذهن وزيادة المعلومات ولا نأخذ منها عقيدتنا، والفلسفة أبعد ما تكون عن العقيدة الصافية الخالصة الصحيحة .

ولا يجب أن نعتقد بالله على طريقة الفلاسفة لأن الله لم يكلفنا بذلك بل العقيدة العامية تكفي عند الله، ولكنك لا تستطيع أن تفهم المصطلحات والبحوث الفلسفية دون أن يكون لك إلمام بالفلسفة، إن الذي لا عقيدة له ويريد أن يستند في عقيدته إلى مثل هذه الفلسفة فهو يضرب بحديد بارد ".[٢]

---

(١) النساء ٤ : ٨٢.

(٢) الشيخ المظفر: محاضراته في الفلسفة الإسلامية المشار إليها سابقاً (بتصرّف).

ولابد لمعرفة التفرقة بين علمي الفلسفة والكلام التعرف على حقيقة نشؤهما وغايتهما واتجاهاتهما وعلى جهود الفلاسفة المسلمين في مسيرة التقييم والتقويم والإضافة ثم الصياغة مجدداً لمدرسة فلسفية قد سبقت، وتأصيل معالمها[1] وهو ما تستلزمه موضوعية البحث العلمي الجاد في ضرورة دراسة كل منهما باستقلالية وحيادية من حيث النشأة والتطور والتكامل وحدود التداخل بينهما من حيث الموضوع، وآليات المنهج، وطبيعة الاستدلال والنتائج والآثار، وفك الارتباط المزعوم بينهما رغم انفتاح المسلمين مبكّراً على المباحث العقلية واعتبارها من الوسائط في إثبات وترسيخ العقيدة ورد دعاوى الزنادقة والمشككين.

ومن المهم إثبات حقيقة أن معرفة آراء الديانات السابقة وتطويعها في مجال فكري إسلامي يستتبع وجود مصطلحات خاصة امتدت إلى علم الكلام الإسلامي وصارت جزءاً من تكوينه، ولا يستغرب ورود ألفاظ اصطلاحية أخرى كما هو الحال في كتاب نهج البلاغة.

وقد زخر عصر الائمة المعصومين – بسبب تبني السلطات الحاكمة لوعاظ السلاطين وشيوع الأفكار الجديدة على المسلمين نتيجة الترجمة – بالعديد من الحوارات في الجانب العقائدي وإثارة المغالطات والشبهات من المشككين والزنادقة وطلاب الجاه والفتنة لكن أهل البيت – عليهم السلام – كانوا بالمرصاد والتصدي لهذه الموجات الضالة بانفسهم وبتربيتهم وتوجيه تلامذتهم لمجابهة هذه التيارات وقمعها بالنقاش الموضوعي وايراد الحجج الدامغة .

---

(١) وهو ما توصل إليه شيخنا المظفر في بحثه القيم السابق الذكر عن الفيلسوف الكندي والإشادة بجهده الفلسفي.

و إذا بحثنا الموضوع على مستوى العلوم العقلية والحكمة والفلسفة ومجالات التأسيس والتطوير وتنمية الأفكار والمناهج فنجد أنّ ما قدمه علماء الشيعة كان بيناً وله أثره في هذا السبيل وإغنائه بالمساهمة الفكرية فكرة وتأليفاً وتراثاً بما نقف على مصداقيته في الدراسة الموضوعية في آفاق تاريخ الدراسات الفلسفية عند الشيعة الإمامية ولمدرسة الحوزة النجفية على وجه الخصوص.

ومن المعلوم أن الجهد الفكري للإنسان لا يمثله زمان أو مكان معين بل هو ثمرة مراحل وأدوار اجتمعت وتلاقت في جذور التكوين كما أنها تضاربت وتقاطعت في أحيان كثيرة حتى استخلصت النتائج فكان لكل جيل دور يمهد لآخر بعده ومن حكمة الرب وجود التباين الذي يمثل أحد ملامح الإبداع في سر الخليقة لتتضافر مع بعضها البعض من أجل رفد الإنسانية في مجالها المعرفي.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى موضوع تجاهل ما للفكر الشيعي من أهمية دوره التأسيسي في مجال العلم والفكر والبحث الفلسفي حيث " أن جانب ما يتعلق بفلاسفة الشيعة محاط بكثير من الغموض والإبهام وهناك مؤلفات أهملت قروناً في ظل ظروف صعبة كان الرعب والتشريد يطال الشيعة في كل درب واختفاء مفكريهم وضياع آثارهم ومؤلفاتهم وتراكم الأساطير من حولهم في الوقت الذي نادراً ما تجد عالماً شيعياً فقيهاً وليس له سهم وافر من علوم الفلسفة والكلام والرياضيات والفلك". [١]

---

(١) محمد جواد مغنية . مقدمة كتاب فلاسفة الشيعة للشيخ عبد الله نعمة .

العرفان والتصوف

يرى البعض حين يحاول أن يفسّر الدين باعتباره في الأساس يمثل ظاهرة طقوس وتقاليد خاصة يؤديها الفرد فيجد من نفسه بعد مدة من ممارستها وهو يعيش هالة من التقديس والإجلال فيسمى حينئذ متديناً أو مقدّساً كما يحلو في التعبير الذي تعارف عليه الناس.

وإذا أمعنا النظر فلا ضير في أن ينصرف مفهوم التدين أساساً لتوصيف تلك الحالة التي تصطبغ شخصية المسلم الذي يؤدي فروضه الدينية بكيفية من الأداء الدقيق الملتزم في تفاصيله لكل ما يمت بالأسس التي قررها الشرع من حيث طبيعة العبادات ورسومها وصورها وأوقاتها، أو ما يصح التعبير عنه بعمومية الصياغة الشاملة للعبادة من حيث الكم أو النوع، أو الزمان، أو المكان فنظام العبادات في الشريعة الإسلامية يمثل أحد أوجهها الثابتة التي لا تتأثر بطريقة الحياة العامة وظروف التطور المدني في حياة الإنسان إلا بقدر يسير.

ولكن الحق الذي ينبغي تبينه من خلال نافذة العبادات في نفس المؤمن هو ذلك الأثر التربوي الذي يعبر عن مدلول كلمة الدين وآفاق ذلك في سلوك الإنسان.

وهنا لابد من تقرير أن الحديث عن الفلسفة وماهيتها واتجاهاتها يعكس صوراً للمقاربة أو الافتراق وانعكاسات ذلك على مستوى ظواهر روحية لها بصماتها الواضحة في مجمل حركة العلوم العقلية بما تضفيه من معالم ورؤى وأفكار تؤسس المنابع المعنوية لمواطن القرب الرباني، واستلهام المعرفة الحقة وفي صدد بحثنا لأبعاد الدرس الفلسفي في مدرسة النجف نكتشف جانباً مهماً من العلاقة بين ظهور دراسات الفلسفة ونظائرها وأثرها بما يتعلق ببناء المدرسة العرفانية في النجف المعروفة بخصائصها ومميزاتها كما سيتضح لاحقاً.

ولا مناص من معرفة أن العرفان يعدّ في سياق العلوم الإسلامية التي نمت وترعرعت في إطار المعرفة والثقافة العقلية في الإسلام[١] . ولا يمتلك الباحثون جواباً دقيقاً في تحديد تاريخ إطلاق هذه التسمية سوى الإشارة إلى شيوعها في القرن الثالث الهجري[٢] ومن المهم التنويه إلى أن العرفان يغطي الساحة الإسلامية على تنوع انتماءاتها العقيدية والمذهبية فهو تيار فكري يمتاز بالأصالة[٣] والعمق ويصطف في طليعته طبقات من العلماء وأئمة الدين وطلاب الحقيقة ، وان اختلفوا بينهم في مسائل اختص بها بعضهم دون

---

(١) للعرفان ناحيتان : عملية ونظرية . فالعملية عبارة عن علاقة الإنسان وواجباته تجاه نفسه والكون وخالقه فيكون العرفان كالأخلاق إلا ان بينهما فوارق تذكر في مظانها .ويطلق على هذا العرفان بـ(علم السير والسلوك) ولابد لبلوغه من مراحل بإشراف إنسان سلك هذا الطريق للوصول إلى التوحيد.

أما العرفان النظري فهو الذي يتعرض إلى تحليل الوجود ويبحث بشأن الخالق والكون والإنسان فهو يشابه الفلسفة الإلهية التي تعمل على دراسة الوجود والفارق بينهما أن الفلسفة تعتمد في استدلالاتها على المبادئ والأصول العقلية في حين أن العرفان يجعل من المكاشفات مادة رئيسة في استدلالاته ثم يوضحها ويبررها عقلاً. وهناك آراء واسعة مطروحة بين العرفاء والمحدّثين والفقهاء تتعلق بمسألة التضاد بين العرفان والإسلام أو بخصوص الشريعة والطريقة والحقيقة ولكن نتيجة الدراسة الحيادية المتأنية توحي بحسن النواياوالاخلاص للمبادئ الإسلامية في توجهات العرفاء. أنظر للتفصيل كتاب الشيخ مرتضى المطهري. مدخل في العلوم الإسلامية ٣ : ٥٩ — ١٠٧.

(٢) مما ظهر من كلمات السري السقطي — ت٢٤٣هـ — أنظر تذكرة الأولياء للشيخ عطار كما في المطهري. المصدر السابق : ٧٨ حيث أشار بهذا الصدد إلى أن أبا نصر السراج الطوسي ذكر في كتاب اللمع : ٤٢٧ كلاماً لسفيان الثوري يلوح منه أن هذه التسمية قد ظهرت في حوالي النصف الأول من القرن الثاني .

(٣) هناك من يذهب في التشكيك بهذه الأصالة الإسلامية ومنهم بعض المستشرقين بادعاء التأثر برهبانية النصارى أو اليهود أو بسبب ردود فعل ضد الإسلام والعرب أو انه نتاج فلسفة الأفلاطونيين المحدثين أو الغنوصيين أو نشوؤه من الأفكار البوذية وبقدر ما أشيع بهذه الدعاوى فان العرفان الإسلامي أشاد هيكله الإسلام.

البعض الآخر، أو تباينت فيهم مذاهب الباحثين من المسلمين وغيرهم، فهم قد جمعتهم وحدة الهدف الذي يسمو للارتقاء في مدارج العشق الإلهي، وتسنم مرقاة الإخلاص في التوحيد عن طريق طي مراحل السير والسلوك وتزكية النفس وتنقيتها من الأدران التي تحجبها عن أنوار الملكوت والابتعاد عن الزهد والعبادة الفارغة وإن تعددت الطرق، وتنوعت الوسائل.

والمهم معرفته أن أصول العرفان الحقيقية ما دلّت عليه الآيات القرآنية والسنة النبوية الشريفة وأشارت إلى مبانيه سنّة الأئمة المعصومين في أحاديثهم والمروي من أدعيتهم وسيرتهم وهذه المصادر مما ينبغي اتخاذها أسساً سليمة المسلك في الوصول، ومنبعاً للإلهام الروحي وتربية المؤمنين على طريق الله الذي أشار إليه الحديث القدسي: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها).

وفي سيرة الرسول الأكرم – صلى الله عليه وآله وسلم – المثل الأعلى للسالكين في عبادته ومناسكه وانصهاره في الذات الإلهية مما يستلهمه العارفون ويرتشف من منهله القاصدون.

وأما الإمام علي بن أبي طالب – عليه السلام – فقد اجمع طلاب العرفان على الاقتداء به، واتخذوه القطب الأكبر في السير والسلوك حيث ينهون إليه سلسلتهم الذهبية التي تصلهم برسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – بإجماع الطوائف الإسلامية مستندين إلى ما أفاده عليه السلام في خطبه[1]

---

(١) من ذلك خطبته في وصف السالك إلى الله تعالى، قوله: (قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق. وسلك به السبل. وتدافعته الأبواب

←

وأقواله وما أثرعن سلوكه العبادي الذي أبانه في التعبير عن الإخلاص وحقيقة العبادة في كلمته المعروفة: (إلهي ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك).

وقد عرف تاريخ التشيع عبر أدواره معالم مشرقة من العرفاء الذين تميزوا عن غيرهم (فقد كانوا في واقعهم من أهل السير والسلوك والعرفان وهؤلاء هم العرفاء الحقيقيون دون الجموع التي اخترعت لنفسها مختلف الآداب والسلوكيات وأحدثت من البدع ما أحدثت)[١].

وإذا كان تاريخ التصوف قد بدء مبكراً في مدينة الكوفة فإنما يوحي ذلك بأنه يمثل لوناً من الأجواء الروحية، وعرف بما له من صلة وثقى بالمذهب العقلي، ومن خصوصياته اتجاه المتصوفة للانتماء إلى جهة المناجاة والانشداد بين الوجد والجذب[٢] مما يوحي بالمقاربة بينه وبين العرفان من بعض الوجوه إلا أن هذه

إلى باب السلامة ودار الإقامة. وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه) الخطبة ٢١٧ من النهج. أو ما قاله لكميل بن زياد بشأن أولياء الحق: (هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون. وانسوا بما استوحش منه الجاهلون. وصحبوا الناس بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى) الخطبة ١٤٧ من نهج البلاغة.

(١) المطهري، المصدر السابق: ٧٠ وانظر ما بعده من البحث الممتع في تفصيل الحديث واستعراضه حول الموضوع.

(٢) لابد من بيان ان الصوفية على الإجمال ترى أن المعرفة الكاملة لاتتم الابالاتصال روحيا بالله والبقاء معه وهذا الاتصال هوغاية النفس البشرية ولايحصل الابانصراف النفس عن الدنيا وقهرها بسلسلة من الاعمال والعبادات وقد بدات منذ القرن الأول وتألفت منها جماعات كبرى ولكل منها طقوس ومراسيم وأذكار. وشيخ مرشد ونظرة خاصة في مسائل الاعتقادات وتفسير ظواهر الكون ومن المهم التمييز فيمابينهم بحسب مبانيهم واتجاهاتهم التي بالغ البعض منهم فيهافجانبوا الحق وضلّوا فخرجوا عن الصراط.

العلاقة غير ممتدة بينهما على مفترق من الطرق وفق حيثيات متعددة عند دراسة الأسس والمباني والآليات لكلا الظاهرتين خاصة إذا أحكمنا النظرة إلى ما بلغته مسيرة التصوف من الشطحات والشذوذ التي بلغت حد المروق عن الدين والكفر والشرك استناداً إلى دعوى الاتحاد والحلول[١]، وما آل إليه حال بعض المتصوفة بابتعادهم عن الإيمان الحقيقي والمعاني الروحية للزهد والعزلة المعبرة عن حسن الاعتقاد بالقرب والصلة بالإضافة إلى خصومتهم التقليدية وعداوتهم للمبادئ الإسلامية والتشيع على الأخص.

أما ما سجله تاريخ النجف فقد كانت — وستبقى — كعبة القصّاد ومهوى الصالحين الإبدال نظراً لتميزها بالثرى المقدس للإمام علي — عليه السلام — وما فيه من شأن ومهابة قدسية في نفوس المؤمنين الذين بذلوا مهجهم لتحصيل الزلفى والرجاء بالقرب لساحة القدس.

و يتباهى المؤمنون فيما بينهم بزيارة المرقد العلوي فكيف إذا حلّوا قاطنين بجواره الشريف للتزود من بهائه، وارتشاف مناهل العرفان الحقيقي بقربه متمثلين الطريقة المثلى التي خطّها بعلمه وعمله وبعبادته التي كانت لها الحظوة

---

(١) يشير الشيخ صفي الدين الطريحي — من أعلام القرن الحادي عشر الهجري — إلى أمثال هؤلاء بقوله: واعلم أن المتصوفة خصوصا في زماننا هذا قد ﴿ **زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ (النمل ٢٧ : ٢٤، العنكبوت ٢٩ : ٣٨) فاعتقدوا أموراً مستحيلة من الحلول، والاتحاد. كأن يرقوا إلى السماوات. ويشاهدوا المغيبات. ويخاطبوا الأنبياء. والأئمة بالمشافهات وهم مع ذلك يزعمون أنهم منتظمون في سلك الشيعة وغير خارجين عن سمت الشريعة لعنهم الله بما يفترون وقاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (المائدة ٥ : ٤٤) وقد تكثرت الروايات عن الأئمة الهداة عليهم السلام بالإنكار عليهم والبراءة من دينهم. مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر: ١٣٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، مطبعة الآداب بالنجف ١٩٥٨.

عند العارفين الذين وقفوا عند أعتابه متوسلين إلى الله تعالى أن يمنحهم منه القبول والرضا.

وقد وجد العارفون في المكوث والمجاورة والسكنى بالنجف معان روحانية تسمو بها ذات الإنسان في درجات عالية من الوله والنسك والذكر وكمال التعبد بقدر ما يتوصلون إليه من فيوضات وبركة باب مدينة العلم والحكمة الآلهية.

ومن أجل ذلك فقد اهتم رواد المعرفة والسلوك بالورود وإغناء مسيرتهم في التهذيب والمراقبة بالمجاورة منذ القدم، كما تصدى أعلام الحوزة النجفية بإقرار مناهج للسلوك العرفاني والتهجد وتأليف مصنفات في الدروس الأخلاقية بمستوى ما كانت تمضي به سير العلم في دراسات الشريعة فقد كان للعرفاء سواء من علماء الحوزة أو من خارجها سعياً جاداً ومواظبة حثيثة للمواصلة والتهذيب علماً وعملاً بحيث نتمكن من التسليم بوجود مدرسة عرفانية في النجف لها خصائصها وسماتها وتراثها[١] وهي في جملة ظروفها متواصلة الحلقات يفضي السلف منها إلى الخلف وتنتظم بحلقات مخصوصة بين طلابها وأساتيذها مع التأكيد على أن مسارها الموحد في بلوغ الغاية يتباين من حيث التجربة والدرجات[٢].

ومن المعلوم ان المدرسة العرفانية امتدت عبر مراحل تاسيس النجف منذ دفن الإمام علي عليه السلام حتى العصور المتاخرة وتميزت كل مرحلة برجالها

---

(١) لا يتسع بحثنا للإفاضة والتفصيل في هذا المجال إلا بقدر الإشارة العابرة من أجل أن نصل إلى ما يهمنا عرضه بموازاة عصر الشيخ المظفر.

(٢) تكاد حركة العرفاء غير واضحة بل سرّية لا يفهمها ولا يتعرف عليها إلا الخواص من الناس بسبب ماتكتنزه من روحية الزهد والابتعاد عن الظهور للعيان وقد لا تعرف منزلة العارف منهم إلاّ بعد وفاته وشيوع ذكره بأخباره ومريديه.

الذين اغدقوا بمعارفهم الروحانية وتربية جيلهم على منهج السير والسلوك على هذا المنهج الذي لا يختص بشكل معين إلاّ بمن طلبه وسعى إليه وجاهد من أجل الوصول إلى مراتب سامية فيه ولذلك نجد أن جلّ أعلام الدين ممن جاور النجف يتمتع بخاصية التأثر بروحانية البركات للمجاورة العلوية ولكنهم يفترقون من حيث الدرجات والجاذبية والتواصل والدليل على ذلك اهتمامهم بتخصيص كتب لكل منهم في الأذكار والأدعية والأعمال، وتوجههم للعتبة العلوية المباركة بقصد الاستزادة من نفحاتها القدسية والتوسل إلى الله بإجابة الدعوات، وانعقاد مجالس الذكر والتربية السلوكية لمحاضرات التهذيب والأخلاق ومن هذه الحلقات المنعقدة انطلقت سمات نظام خاص سلكه العارفون في سلسلة ذهبية تشابه إلى حد كبير سلسلة رواية الحديث واختص الطلاب بأساتذتهم وأتقن الأساتذة دور المراقبة وتوجيه السير ونتج عن ذلك ما يمكن أن نعبر عنه بطبقات العرفاء في هذه المدينة التي احتضنت على رباها الطاهر كوكبة من العلماء المقدّسين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المقدس الأردبيلي وجمال العارفين السيد علي بن طاووس والشيخ الطوسي والسيد عبد الرحمن القدسي والسيد حيدر الآملي حتى " أن النصف الثاني من القرن الثامن شهد ازدهاراً مجدداً في مدرسة النجف أتيح لها معه هذه المرة أن تساهم بفعالية مشهودة في تاسيس الحكمة العرفانية عند الإمامية على يد السيد حيدر الآملي وربما كان عبد الرحمن القدسي أستاذ الآملي صاحب الحظ الأوفر في ذلك ... وتعتبر محاولة الآملي أول محاولة لترسيخ المنحى التأويلي في التراث الإمامي وقد مهد هذا المنحى لولادة اتجاه متميز بعد أقل من قرنين ثم تعاظم دور هذا الاتجاه لدى الشيعة الإمامية بمرور الزمان ولم تجهضه الردود

المتنوعة التي أطلقها المحدثون والفقهاء والمتكلمون من علماء الإمامية الذين أصر الكثير منهم على شجب هذا المنهج في تفسير القران وفهم المأثور عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم.." [١].

وقد عرف سيد العرفاء السيد محمد مهدي بحر العلوم برسالته المنسوبة إليه (السير والسلوك) ثم من بعده درس العارف السيد علي الشوشتري الذي كان الشيخ الأنصاري يحث تلامذته على حضور دروسه الأخلاقية والعرفانية ويصطحبهم بنفسه" وفي الوقت نفسه كان السيد علي الشوشتري أستاذاً للشيخ الأنصاري في الأخلاق وهذه من العلاقات النادرة إذ كان كل منهما أستاذاً وتلميذاً للآخر في آن واحد ... وقد ربت مدرسة السيد الشوشتري الكثيرين من العرفاء العظام وهؤلاء ربوا بدورهم عدداً آخر من طلاب الحق تعالى وأبرز خريجي مدرسة السيد الشوشتري هو الفقيه حسين قلي الهمداني الذي تفرغ للقيام بهذه المهمة التعليمية الشمولية والتربوية السلوكية ووسع نطاق مدرسة أستاذه الشوشتري وبلورتها في صورة جامعة بين الفقه والأصول والأخلاق والسلوك والعرفان وربى كوكبة من العلماء الربانيين فكانوا فقهاء مجتهدين وعرفاء كاملين واصلوا منهجه وأنشؤوا حوزات تربوية على غرار مدرسة أستاذهم نظير ما فعله كبار العارفين السيد أحمد الكربلائي والسيد مرتضى الكشميري والميرزا جواد الملكي التبريزي والمولى محمد البهاري والسيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ باقر القاموسي والسيد جمال الدين الأفغاني والسيد مهدي الحكيم والسيد علي القاضي [٢] وغيرهم.

---

(١) د. الرفاعي عبد الجبار، تطور الدرس الفلسفي في النجف : ٣٠ موسوعة النجف للدجيلي ج٨.

(٢) صدرت في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عن الكثير ممن ذكرناهم. أنظر عرفان محمود، الحوزات الأخلاقية والعرفانية في النجف: ١٥٨ — ١٩٠، موسوعة النجف للدجيلي ج٨.

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن طوائفاً من أصحاب الطرق يتعشقون الرحاب الروحاني الذي يتجلى في الحرم العلوي فقد كانوا منذ القديم يقصدونه وينتظم جمعهم بأفقه المضمخ بعطر الولاء والمحبة.

وأما إذا درسنا اتجاهات الحكمة الإلهية عند الشيعة في مسار تطورها نعلم أنها تظهر في الشروحات العرفانية حيث يبرز دور صدر المتألهين لأن " العقيدة التي يصوغها على هامش نصوص الأئمة تمثل كل معرفة حقيقية باعتبارها كشفاً أو ظهوراً وذلك أن القلب (هذه اللطيفة النورانية ومرتكز الذكاء) عنده ملكة تجميع الحقائق وكل ما هو قابل للمعرفة غير أن المعارف التي تتجلى له من حجب الغيب يمكن أن يكون مصدرها العلم الشرعي أو معطيات الشريعة كما يمكن أن تكون علما عقليا وبالتالي آتية مباشرة من معطي المعطيات "[1].

ولما تحمله النجف من أهمية روحانية فقد قصدها طلاب المعرفة الروحية من المتصوفة[2] وأصحاب الطرق وقاموا بتأدية طقوسهم بالقرب من العتبة الحيدرية.

حيث أن " الشيخ محمد الرضوي الملقب بكتاش ١٢١٠ — ١٢٧٠هـ وهو من تلاميذ الشيخ أحمد اليسوي[3] الذي دفعه للذهاب إلى النجف وعندها

---

(١) هذه المقالة صدى لما ذهب إليه الملا صدرا في شرحه على أصول الكافي. راجع هنري كوبان، تاريخ الفلسفة الإسلامية بمراجعة وتقديم الإمام موسى الصدر: ١١٨.

(٢) لابد من التنويه إلى أن الصلة بين التشيع والتصوف منفية تماماً " لأن التصوف مدرسة مستقلة عالمية تسربت إلى الشيعة بعدما غزت العالم الإسلامي كله ولأن التصوف يعد مفتاحاً لانفتاح جميع الأديان والمذاهب بعضها على بعض ولا يختص بالتشيع تبعاً ولا سنداً " مقدمة السيد موسى الصدر لكتاب هنري كوبان في تاريخ الفلسفة : ٣٦ .

(٣) الشاعر المتصوف العلوي الشيخ أحمد اليسوي من شعراء القرن الثاني الميلادي له ديوان الحكمة ومما يقول فيه " أن العاشق الذي يعرف شروط الشريعة يعرف أيضا أيها الأحبة معنى الطريقة

←

هاجر من خراسان إلى العراق وأقام مدة في النجف الاشرف مجاورا مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واعتكف في أحدى حجر صحن مرقده الشريف وبعد توسعة الصحن الغروي عمر موضع معتكف بكتاش هذا تعميراً جيداً فخماً وجعلته البكتاشية[١] من الاتراك تكية أي مقرا لهم في النجف الاشرف وفي سنة ١٢٩٦هـ كنا ندخل إلى التكية هذه بدعوة من علماء الأتراك وقضاتهم ومرشديهم فنشاهد فيها شعارات الدروشة كالفؤوس الخاصة والكشاكيل الثمينة معلقة في الجدار القبلي من التكية وللحاج بكتاش كتاب عربي اسمه (مقالات) يبدو منه إتباعه لعقيدة الإثنى عشرية "[٢].

وما يهمنا هنا أن العاشقون للولاية من أهل الطرق والأذكار الذين قصدوا مدينة النجف وجاوروا أو مرّوا فيها كان لهم صدى مؤثر على طابع الحياة الروحية و الأدبية والنفسية[٣] لما كانوا يقدمونه من طقوس وتقاليد تقرأ إما في مجالسهم المخصوصة أو أمام العامة وقد أدركنا في عصرنا من هذه الطرائف ما كان يمارسه البعض من أهل الذكر حين يدخل النجف منطلقاً بمسيره عبر السوق الكبير حتى العتبة العلوية في زي خاص وبيده كشكول أو مبخرة وهو يردد

وأن من يؤدي شعائر الطريقة يخوض في بحر الحقيقة لأن العلوية تؤمن بأن الطريقة قرين الحقيقة والشريعة ".

(١) الطريقة العلوية البكتاشية التي تناغمت مع الطريقة المولوية الصوفية لمؤسسها جلال الدين الرومي مع طرق أخرى ومن الأمور الجديرة بالبحث أن العلوية انتشرت في أوساط الشعراء المتصوفة الذين تغنوا بالعشق الإلهي وبالحق والعدالة وحب أهل البيت.

(٢) حرز الدين الشيخ محمد، مراقد المعارف ١ : ١٩٥ — ١٩٦.

(٣) إن هذه الحالة بما لها من آثار لها ما يشابهها في مدن العتبات المقدسة وحواضر العالم الإسلامي عامة كالحرمين الشريفين بمكة والمدينة والقدس ومدن القاهرة وفاس والقيروان وغيرها.

أشعاراً في حب الإمام علي وأهل بيته وكان منهم بقية ومرشدهم الحاج مطهّر إلى قبل عقدين من الزمان يدّعون بالترابية يسكنون في تكية تقع مقابل مسجد الكوفة.

الفلسفة والفنون الأدبية

لا شك أن أسلوب الكتابة الفلسفية يمتاز بالرصانة والدقة التي تستعصي على من يحاول فهم مدلولات الألفاظ والكلمات المستعملة في التعبير عن الفكرة التي يسعى إليها المتخصصون بطرح الأفكار والمسائل الفلسفية.

ولذا نجد أن النخبة من أهل الفن هم الرواد الحقيقيون الذين يردون هذه الموارد دون غيرهم ويأنسون بحل ألغازها ومعرفة مضامينها ومن المصاديق ما أفاده الشيخ المظفر في دراسته عن الملا صدرا بقوله "والمعهود في كتب الفلسفة الغموض والرمز والتعقيد .. ومن تعاليم الفلاسفة أن يكتموا آراءهم إلاّ على فئة خاصة من تلاميذهم يفتحون لهم رموزهم حيث يجدون منهم استعداداً لفهم مقاصدهم والاستنارة بهم ".

وفي هذا الصدد نكتشف أهمية ما حققه الأذكياء من الفكر والأدب الذين قدّموا مفاهيم الفلسفة وأسرارها العميقة على مائدة الفنون الأدبية بألوان متعددة ألفها المتأدبون والمتعلمون من طلاّب المعرفة بعيداً عن اللّغة الصعبة التي قررها أساطين الفلسفة فيما كان له التأثير على المسلمين من جهة، وعلى الفلسفة والفلاسفة وذلك " لّما هاجمت الفلسفة أفكار المسلمين وأوجبت اضطرابهم وتبلبلهم وقد كان الناس في السابق يقدّسون الفلسفة ويتلقون أفكارها كوحي منزل نشأمن ذلك حالة من الازدواجية تدعو إلى التوفيق — مهما كلف الأمر — بين ما جاء به الإسلام وما جاءت به الفلسفة..." [١].

---

(١) المظفر محمد رضا، الفلسفة الإسلامية: ٧٧.

وأسلوب تعاطي الفنون الأدبية في هذا المضمار قديم جداً في تاريخ الإنسانية وتوصيلها الرؤى الفلسفية على هذا النسق بل " إن استحضار عالم الخيال أو الرمز لعرض الأفكار الفلسفية أو للتعبير عنها في قالب فني من الأساليب التي عهدتها الفلسفة منذ نشأتها وفي ذلك أمثلة لا تحصى فيها على سبيل الذكر استخدام إفلاطون للترهات الإغريقية وللأساطير إطاراً أو على سبيل الاستشهاد في محاورته طيماوس وكريتياس من الشعر وتشوانغ تزو من القصص قوالب لعرض الفلسفة الطاوية "(١) .

وعلى مستوى التراث العربي الإسلامي نجد ابن سينا في قصيدته العينية، وأبو العلاء المعري في رسالة الغفران، وفيما ابتكره الطبيب الفيلسوف الأندلسي أبو بكر محمد بن طفيل في قصة حي بن يقظان ما يمثل القمة والانفراد في الابتكار والتأسيس لبناء القصص الفلسفية الأوربية ابتداءً من القرن الثامن عشر حتى اليوم من فولتير وروسو وسارتر وكامو وغيرهم مما يجسد القيم الجمالية للفن الأصيل براعتها في المعطى الفلسفي.

ومن هنا نتلمس ما اصطبغت به ألوان الثقافة الفلسفية في ذاكرة النجف العلمية وما يعنينا الإشادة به لشيخنا المظفر في (أحلام يقظته) الرائعة وما أمتاز به من حسن الديباجة التي أضفاها على أسلوبه الأخاذ الذي أخضع به إبهام الألغاز لفلسفة صدر المتالهين إلى الإيضاح وحل الرموز بقدرة حكيم ماهر يغوص في اللجج فيختار اللئالئ اليتيمة ويصوغ منها خواتيم المعرفة النادرة وشأن القارئ الكريم مايجول به فكره من اكتشاف الفكرة الصائبة . واقتناص المتابعة النافعة .

---

(١) أنور أبو بندورة ، الأبعاد الفلسفية: ١ — ٢.

أما إذا تفحصنا التاريخ النجفي في غابره وحاضره فحسبك من هذه المدينة العلمية اهتمام أعلامها وما أفاضوه من التأليف والتصنيف في مجالات اختصاصاتهم بالعلوم الشرعية والعقلية حيث دأبوا على كتابة الحواشي والشروح والتعليقات على مصنفات لكبار المجتهدين والحكماء ظهرت بين حين لآخر ومنها ما تحوّلت إلى منظومات شعرية.

ومما يرسم صورة من الإبداع والتميز ظهور الشعر التعليمي في النجف مبكراً بنظم متون العلوم والفنون والآداب في الأراجيز[١] التي أصبح ينظمها العلماء من الفقهاء والأصوليين وأساتذة الفلسفة والحكمة الإلهية إضافة للعلوم العربية والمنظومات الفلسفية لتبسيط المعرفة بتلك العلوم، وتيسير الفهم والمتابعة المنهجية للطلاب." وقد تفشى استعمال هذا اللون عند أدباء النجف فقد نظموا فيه عشرات المنظومات — إن لم أقل المئات — التي تكفلت علم النحو والصرف والمنطق والعروض والأصول والفقه والفلسفة والهيئة والحساب والرجال كما قاموا بوصف علم الشطرنج بصورة تفهم المتذوق كيفية استعماله بحفظه الرجز "[٢].

---

(١) الأراجيز ويسمى قائلها: راجزاً، واحدتها أرجوزة: وهي شعر يسهل في السمع ويقع في النفس لخفته منظوم على قافية بحر الرجز وهو نوع من أنواع الشعر يكون كل مصراع منه مفرداً، والأرجوزة غير القصيدة لأن القصيدة يكون البيت فيها مكوناً من مصراعين والشعر العربي كله إما رجز وإما قصيد. وإنما سمي الرجز رجزاً لأنه تتوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون. وهو يشبه في هذا بالرجز في رجل الناقة ورعدتها وهو أن تتحرك وتسكن ثم تتحرك وتسكن ويقال لها حينئذ رجزاء. وزنه التام (مستفعلن) ست مرات. وقد يستعمل هذا البحر بشكل غير كامل. الهيب الدكتور أحمد فوزي، بحر الرجز والأراجيز إئتلاف واختلاف، مجلة الموقف الأدبي دمشق ع٤١٣، ٢٠٠٥م.

ومما ذكره الرواة أن الشعر أصلاً كان رجزاً حتى كان المهلهل وامرؤ القيس فحولاه إلى قصيدة.

(٢) الخاقاني علي، شعراء الغري ١ : ٢٥.

ومن المفيد معرفة أن مدرسة النجف الفلسفية تبنّت هذا اللون من الأدب في تبسيط معالم البحث الفلسفي لمتذوقيه وطلاّبه فصدرت عن المعنيين بالفلسفة أراجيز غطت مساحة كبيرة مما يدور مدار الفلسفة ويختص في دروسها منها أراجيز في علم المنطق، أو العقيدة والمباحث الكلامية، أو الردود والمعارضات للقصائد والأراجيز، أو منظومات لعلم اللاهوت أو لمتن معين، أو دفع الشبهات وتفنيد المطاعن، أو ما يجري مجرى الشعر التعليمي لسهولة حفظه من الطلاب، أو لفتات تدور مدار الحكمة والفلسفة بكلمات يصطلح عليها عند الفلاسفة أو رسائل متبادلة بين أثنين من الاعلام أو الادباء، أو ما يعبر عن إيمان بروحية عالية وهيام عرفاني.[١]

وقد عنى شيخنا المظفر بهذا اللون الفني من الأدب فيما سطره بدراسته عن أستاذه الشيخ محمد حسين الكمباني وفي استعراضه للأراجيز التي نظمها شيخه قائلاً " وتظهر آراؤه وتحقيقاته الفلسفية واصطلاحات الفلسفة على جميع آثاره وأبحاثه حتى في أرجوزته في مدح النبي المختار وآله الأطهار عليهم جميعاً الصلاة والسلام بل أرجوزته هذه قطعة فلسفية رائعة أفرغها في ثوب من الأدب العالي قد أوضحت رأي الفلاسفة المؤمنين في محمد وآل بيته نور الأنوار وعلل الكائنات على ما أشارت إليه الآيات القرآنية وصرحت به الأحاديث الصحيحة.

وأغلى آثاره الفلسفية وأعلاها أرجوزته في الحكمة والمعقول (تحفة الحكيم) التي هي آية من آيات الفن مع أسلوبها العالي السهل الممتنع جمعت

---

(١) أنظر ما دوّنه المؤرخون في تاريخ النجف كما في الذريعة إلى تصانيف الشيعة وطبقات أعلام الشيعة للمحقق الطهراني، وشعراء الغري للخاقاني، وماضي النجف وحاضرها للشيخ جعفر محبوبة، ومعجم رجال الفكر والأدب للشيخ محمد هادي الأميني وغير ذلك.

أصول هذا الفن وطرائف هذا العلم بتحقيق كشف النقاب عن أسراره وأزاح الستار عن شبهاته وإن دلّت على شيء فإنما تدلّ على أن ناظمها من أعاظم فلاسفة الإسلام الذين لا يسمح بمثلهم الزمن إلا في فترات متباعدة أمثال ابن سينا والخواجه نصير الدين الطوسي وصدر المتألهين لولا أن شيخنا غلب عليه الفقه والأصول وانقطع إليهما عن الظهور بالفلسفة .. وإليك بعض أبيات أرجوزته هذه الشاهدة على سلامة ذوقه وطول باعه في الأدب وقدرته على التصرف في الألفاظ العربية السهلة الواضحة في أدق المعاني العلمية. فقد قال في أصالة الوجود:

يختص بالوجود طرد العدم ... إذ ما سواه عدم أو عدمي

وليست العلة للمعلول ... مناط طرد العدم البديل

وهو مدار الوحدة المعتبره ... في الحمل بل كانت به المغايره

ومركز التوحيد ذاتاً وصفه ... وفعلاً أيضاً عند أهل المعرفه

وقال في مبحث تعريف الوجود:

الحد كالرسم على التحقيق ... يوصف بالأسمى والحقيقي

ولا يقال في جواب (الشارحه) ... إلا حدودٌ ورسومٌ شارحه

وقد كشف في هذين البيتين عن حقيقة الشارحة تنبيهاً على الغلطة التي علقت في أذهان أهل العلم عن مرادفة التعريف اللفظي لشرح الاسم ومطلب ما الشارحة وإن كان قد يراد من شرح الاسم التعريف اللفظي أحياناً ومنشأ هذا الاشتباه ما ذكره الحكيم الفيلسوف السبزواري في شرح منظومته من ترادف التعريف اللفظي ومطلب ما الشارحة .. فأوقع الباحثين في هذا الاشتباه

حتى كشفه شيخنا في هذين البيتين الرصينين وأوضحه في شرحه (الكفاية)[١] في المطلق والمشروط من مقدمة الواجب. وقوله في الجعل والمجعول بالذات :

الجعل للشيء بسيطاً يعرف	وجعل شيء شيئاً المؤلَّف
وليس جعل الذات ذاتاً يعقل	إذ ليست الذات لها التخلل
كذاك لا يعقل جعل الذاتي	أو عرضي لازم للذات
ولا كذاك العرض المفارق	فإن إمكان الثبوت فارق
والحق مجعولية الوجود	بالذات لا ماهية الموجود

فانظر إلى هذا البيان الجزل والقول الفحل والأسلوب السهل والتعبير الرصين عن أدق معاني الفلسفة وأسماها بغير تكلف وبلغة سليمة ناصعة لا تجد فيها فضولاً ولا خللاً كما وجدنا المنظومات الأخرى في الفنون لا سيما بعض المنظومات الفلسفية النابية ومن أين متحت دلوك في هذا القليب تغترف الماء الزلال بل الدر الثمين وما سقناه من الأبيات إنما هو غيض من فيض كشاهد على ما نقول "[٢].

وفي الجملة نلاحظ أن الأدب النجفي يتضمن في سماته العامة رؤى روحانية تسمو إلى عالم التجرد سواء كان يمثل الغزل والنسيب أو الرثاء والتفجع أو الحكمة والعرفان ولا يخفى أثر التنوع المجتمعي وانعكاسات المعتقدات والإيديولوجيات المختلفة التي تعيش في النجف بما تمثله من إثنيات عرقية وقومية فقد مارس شعراء النجف وأدبائها ترجمة الكثير من روائع

---

(١) إشارة لتأليف الكمباني نهاية الدراية في شرح الكفاية للآخوند الخراساني.

(٢) الشيخ المظفر، مقدمة حاشية المكاسب.

الأدب العالمي واستوقفتهم الأبعاد العرفانية وروح الزهد والتفرغ للعبادة، كما أن من الأسباب لهذا التوجه وجود مقبرة كبرى ربما تعد في المرتبة الثانية إذا لم تكن الأولى حيث كان لها وقع واسع على أخيلة الأدباء ومنظوماتهم.

وقد زخر التاريخ الأدبي للنجف في مجال شعر الحكمة والأراجيز والمنظومات الفلسفية، ومن أمثلة ذلك المعارضات الشعرية التي نظمها أعلام النجف حول (طلاسم إيليا أبو ماضي الشهيرة بـ"لست أدري") كما في الرائعة الفلسفية للشيخ عبد الحميد السماوي بحيث أنه تلقى رسالة من أبي ماضي يطريه فيها بالتقدير والإعجاب بل يذكر الحوماني عندما زار أبو ماضي في نيويورك بأنه قال له عن السماوي: أقول بكل صراحة ولا تثريب علي في ذلك قد كان عقلي سلبياً واصبح إيجابياً وقد تراجعت عن بعض آرائي والاعتراف بالواقع فضيلة[١].

كما أن للسماوي قصيدة من مزدوجاته عنوانها — آراء وصور — عارض بها — الأشباح الثلاثة — لإيليا أبو ماضي[٢].

وكذلك الشاعر المبدع صالح الجعفري في موشحاته ومزدوجاته ومثلثاته ورباعياته وما ترجمه من الشعر الرائق الذي يعكس صورة من هموم الأديب النجفي وانعكاس قرائته للفلسفة الاجتماعية.

وما في شعر الشيخ محمد جواد البلاغي والشيخ محمد حسين الكمباني والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي والشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ عبد المنعم

---

(١) نشر محمد علي الحوماني في مجلته (العروبة) معارضة الطلاسم لإيليا أبو ماضي بقصيدته الرائعة (اتباج الطبيعة) ثم اتفق له إن زار الشاعر في مهجره بأمريكا. أنظر الخاقاني شعراء الغري٣: ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق ٣: ٣٠١.

الفرطوسي والسيد مير علي أبو طبيخ والسيد عباس شبر والشيخ علي الشرقي والسيد محمد سعيد الحبوبي والسيد محمود الحبوبي والشيخ مهدي الحجّار ومحمد صالح شمسه ومحمد صادق القاموسي ومحمد جمال الهاشمي والقائمة تطول، بل جلّ الشعراء النجفيين.

وليس أشهر من رباعيات الخيام التي ترجمها الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفي وفي كل ما قدّمه بدواوينه من أفكار فلسفية طبعت خواطره وهواجس نفسه بسبب ولعه الخاص بالشعر الصوفي وكان لعنايته واهتماماته بالدراسات الفلسفية أثر واضح يفسّر تعمقه في الجانب التأملي لعقلانيته وتفكيره الفلسفي الذي انطبع على ذاته ونفسيته وهناك من العوامل الأخرى المؤثرة عليه كتعلمه اللغة الفارسية واطلاعه على شعر الخيام وبهار وعشقي والرومي والمنوجهري وسعدي وعارف القزويني ثم أن الدراسات الدينية في النجف التي تمنح الطالب اهتماما في مناهجها للفلسفة والمنطق[١].

وفي صدد هذا الحديث لابد من استعراض ما فاضت به قريحة المظفر من شعر "نزع في قسم منه إلى تصوير بعض الخواطر الفلسفية والنفسية كما نال استحسان الأدباء له" [٢]، ومن ذلك قصيدته في رثاء الإمام الجواد قوله:

حيٍّ قلباً تذيبه الحسرات   إنما الموت في التصابي حياة

---

(١) أنظر فوزي علاوي رستم الطائي، رسالته المخطوطة لنيل درجة الماجستير الموسومة الحكمة والزهد في شعر أحمد الصافي النجفي، كلية الآداب، الجامعة الحرة في هولندا ١٤٢٨هـ — ٢٠٠٧م.

(٢) الخاقاني في شعراء الغري ٨: ٤٦١.

إن مـن عـاش في الحيـاة خليـا　　　ميـت عـاش فارقمتـه الحيـاة

كـل مـا في الوجـود عنـدي لـولا　　　فئـة تجـتني الغـرام جنـاة

كل ما تعرف الـورى عـن حيـاة　　　الـنفس في غـير حبهـا منكـرات

❖❖❖

أي هذا الخلي حـي عـلى الحـب　　　فهـذي المناهـل المترعـات

خـل في ذلـك الفـضاء سبيل الـ　　　ـقلب حيث القلوب منتهلات

أتـرى القلـب يـستقيم سـبيلا　　　وحنايـا الـضلوع منحنيـات

إنمـا المـاء بالإنـاء فـلا تطبـع　　　إلا بظرفـه الهيئـات



أيهـا المـدلجون للمنهـل الـ　　　ـعذب قفـوا لـي فللرفيـق أنـاة

أوقدوا لي من نور حبي مصباحاً　　　فقـد أظلمـت بـي الطرقـات

ظلمـات هـذي الحيـاة ولا　　　مـصباح إلا مـا أوقدتـه الهـداة

عنـصر في الوجـود كونـه الله　　　فكانـت بنـوره الـنيرات

مثـل النـور والزجاجـة والـ　　　مـصباح أنـتم وأنـتم المـشكاة

أنتم النـور للكليم عـلى الطـور　　　وأنـتم لآدم الكلمـات[1]

---

(١) مخطوطة الديوان الذي قام بإعداده وجمعه الأخ الفاضل محمد رضا القاموسي. وانظر الخاقاني شعراء الغري ٨: ٤٥١ – ٤٨٤.

على أن الاستطراد في هذا الباب لا تفيه هذه الإشارة الموجزة سواء بالنسبة للمظفر أو لما يتعلق بتراث النزعة الفلسفيةفي الادب النجفي.

خلاصة الجهد الفلسفي في السيرة العلمية للشيخ المظفر

يجد الباحث في قراءة السيرة العلمية للمظفر إنه اتجه منذ بواكير حياته العلمية نحو الاهتمام بدراسة العلوم العقلية والحكمة، وقد تهيأت له فرص البحث والدراسة والوقوف على دقائق هذه العلوم المعقّدة التي تحتاج إلى التأمل والفحص والتروي عند الإحاطة بالأفكار التي تطرح في مباحثها.

ومن حسنات الدهر أنه أحرز خلال حياته الدراسية توفيقاً يتمثل في أصالة المكوّن الذاتي لشخصيته وهمّته العالية المتجذرة من الواقع العلمي والتربوي لأسرته الكريمة المنبت، العريقة المحتد التي انطبعت سماتها على متبنياته الفكرية، وارتسمت فيما خطه وسجّله بقلمه، وما كسبه من ثمرة تحصيله بحضوره على الأفاضل من أهل الفن والاختصاص، مع قوة شغفه والجاذبية الروحية لما عرف به من الوفاء لأساتذته مما أثرى تطلعه إلى الاستزادة من الدقة والتنقيب بدرجة طغت على مفردات اهتماماته في شتى ما خطط له من مناهج وآليات، أو فيما كتبه ونشره من دراسات وبحوث.

وقد تميزت دراساته بالجدّة، والإحاطة الموضوعية، والوصول إلى نتائج تنبيء عن إلمام واسع وإطلاع في محصلة الأفكار المطروحة فقد توصل — رحمه الله — إلى نتائج في غاية الدقة والصوابية سواء بما طرحه من أفكار[1]، أو ما

---

(١) يغنينا شاهداً تآليفه المنشورة المشهورة وفي مقدمتها كتاباه المنطق وأصول الفقه وهما لم يزالا منذ نصف قرن إلى اليوم مصدر الدراسات في الجامعات الدينية، ومن الجدير بالإشارة تقريض الإمام الراحل السيد الخوئي وهو يستعرض مراحل التطوير لمدرسة النجف في الدراسات الأصولية فيقول " وكنت منذ زمن بعيد أرغب في أن يؤلف كتاب في هذا العلم تلاءم أبحاثه الأبحاث العالية ويعمم تدريسه على طلاّب العلوم الدينية حتى قدم إليّ العلاّمة الحجة المظفر ما رتبه من المباحث الأصولية ترتيباً جميلاً ←

تطلع إليه[١] ، أو نجح فيه من طموحات[٢] . ولا أجدني مبالغاً القول باعتباره (رائد التجديد في الفكر والإصلاح الديني) في الجامعة النجفية.

ولا أدلّ على ذلك من اهتمامه وسعيه الدؤوب في ضرورة التفكير إلى إعادة النظر في المنهجية التي يجب التماسها في عرض الفكر الكلامي والتراث العقيدي والرؤى الفلسفية لبنية الفكر الإسلامي الحديث في مواجهته لخطاب النهضة الحديثة إبان القرن الماضي وإبراز الدور المعرفي الضخم الذي تميزت به مدرسة النجف بروائع اتجاهاتها الفكرية والإيديولوجية وملاحقتها لمستوى التطور في الساحة العلمية إسلاميا وعالمياً حيث نراه يعيش هذا الهم الكبير ولذانراه يقرر بقوله: " نحن اليوم في قمة الصراع العقائدي والفكري الذي يستهدف فيه القضاء على البقية الباقية من الإسلام. وكل مسلم مؤمن برسالة الدين الإسلامي لابد أن يشعر شعوراً عميقاً بأن عليه واجباً ثقيلاً ينوء فيه الأبطال المجاهدون من الرجال" [٣].

ومما يبرز جهده الفلسفي بهذه المتانة والاستيعاب وحضوره الأبحاث العالية في أصول الفقه والفلسفة عند أستاذ الفن الأصولي الفقيه العارف

فألفيته بحمد الله وافياً بالمقصود، وجامعاً بالموجز من القواعد والأصول التي تدور عليها رحى الأبحاث في عصرنا الحاضر. وجدير بطالب العلم أن يدرس هذا الكتاب ليتهيأ بذلك للانتفاع بالدراسات العالية ". أنظر مقدمة أصول الفقه للمظفر الطبعة الأولى سنة ١٣٧٧هـ .

(١) أنظر مذكراته التي دونها ونشرت أخيراً بتحقيق أخينا بالروح محمد رضا القاموسي، وما أفاضه الشيخ من خواطره وهواجسه في أثره المخطوط (آراء صريحة).

(٢) مؤسساته الخالدة منتدى النشر والمجمع العلمي الثقافي وكلية الفقه وغير ذلك وقد استوعبت جميعها طلابه الذين يمثلون طليعة المفكرين والعلماء من رواد النهضة الحديثة في العراق وخارجه.

(٣) المظفر، افتتاحية مجلة النجف السنة الخامسة العدد الأول جمادى الأولى ١٣٨٢هـ—تشرين الأول ١٩٦٢م.

المتأله الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني[١] حيث لازمه ملازمة قوية دامت خمسة عشر عاماً وانطبع بكثير من آرائه في الأصول والفلسفة وكتب الكثير من أبحاثه ودروسه، فقد ترسم خطى منهجيته لدراسة الأصول في كتابه (أصول الفقه) وتقسيم مباحثه[٢] الذي يمتاز بتبويبه الحديث الذي إستقاه من أستاذه.

كما يلمس القارئ هذا الشعور والوفاء فيما كتب المظفر عن أستاذه في مقدمات كتبه الفقهية والفلسفية وفي مقدمته لكتاب الأسفار وغير ذلك من رسائله ومقالاته.[٣]

وأما كتابه المنطق الذي أجاد فيه (التوفيق بين ما يسميه هو بمنطق الفلاسفة والمنطق الدارج).[٤]

وقد أضفى اطلاع المظفر وتوفره على الإحاطة بدراسات علم الفلسفة واهتمامه بتدريسه لتلاميذه سواء في جلسات درسه الخاص الذي كان يعقده لخاصة طلابه، أو محاضراته التي ألقاها في أكاديميته العلمية (كلية الفقه في النجف)[٥]، وإن هذه الدروس الفلسفية خلت بحد الإمكان عن

---

(١) أشار المظفر في مقدمة كتابه المنطق إلى أنه تلقى دروساً في الفلسفة عند السيد الميرزا حسن البجنوردي. وذكر تلميذ المظفر المرحوم السيد محمد حسن القاضي في كتابه المخطوط عن أستاذه ما دلّ فيه على تلقيه دروساً في الفلسفة والعرفان عند والده العارف المقدس الشهير الميرزا السيد علي القاضي.

(٢) كما يشير المظفر، أصول الفقه ١ : ٧.

(٣) محمد رضا القاموسي، مقدمة مخطوطة ديوان المظفر.

(٤) مقدمة كتاب المنطق للمظفر الطبعة الأولى.

(٥) طبع البعض منها في أعداد من مجلة النجف، وأعادت طباعتها ١٤١٤هـ — ١٩٩٣م دار الزهراء في بيروت بعنوان (قطوف دانية).

←

التعقيدات اللفظية والمبهمات المعنوية التي توجد غالباً في تأليف من كتب قبله في هذا الموضوع" [١].

ومما يبرز عناية الشيخ وفهمه للفلسفة ما غطّت بها مساحة كتاباته ومحاضراته برغم ما يعسر منها على غيره فقد تميّز بأن " يصوغها صياغة

وبإعداد وعناية تلميذه السيد محمد تقي الطباطبائي التبريزي طبعت مجموعة بعنوان (الفلسفة الإسلامية) تتضمن محاضراته التي ألقاها بنفسه بين عامي (١٩٥٨– ١٩٦٢م) على تلاميذه أثناء تدريسه الفلسفة الإسلامية في السنوات الثلاث الأولى لتأسيس كلية الفقه في النجف الأشرف، وقد ذكر الناشر في كلمته بأنها: " تمثل في الواقع الكراسات والأوراق التي وزعها الشيخ في حينه بعد أن تم طبعها على جهاز رونيو (استنسل) في سنوات التدريس، حفظها بعض تلاميذه حينما أضاعها آخرون ومضت على ما حفظ منها كرّ الغداة و مرّ العشي حتى آلت إلى الاصفرار وكادت أن تنمحي فلا يبقى لها أثر ولا عين".

(١) طبعت المحاضرات للمرة الأولى بمطبعة أمير في قم عن مؤسسة دار الكتاب " الجزائري" ١٤١٣هـ. وهي في (١٤٩ صفحة) موزعة بين طيات الكتاب على شكل دروس منها سبعة دروس ألقيت على طلاب السنة الأولى بعنوان (مباحث الوجود) تبدأ بالتمهيد وتنتهي بالدرس المعنون بـ– إعادة المعدوم – وثمانية دروس لطلاب السنة الثانية الدرس الأول منها في (مباحث الوجود الذهني) وهي في (١٤٩ صفحة) موزعة بين طيّات الكتاب على شكل دروس منها سبعة دروس ألقيت على طلاب السنة الأولى بعنوان (مباحث الوجود) تبدأ بالتمهيد وتنتهي بالدرس المعنون بـ– إعادة المعدوم – وثمانية دروس لطلاب السنة الثانية الدرس الأول منها في (مباحث الوجود الذهني) وآخرها في بحث موضوع (الجهات اعتبارات ذهنية) وكانت المحاضرات في السنة الثالثة تتعلق في مباحث (العلة والمعلول) وأما محاضرات المظفر الفلسفية على طلبة الصف الرابع وهي السنة المنتهية في كلية الفقه فقد أملاها عام ١٩٦١– ١٩٦٢م وهي موزعة على اثنين وثلاثين درساً يبدأ الدرس الأول منها حول (الفلسفة وعلم الكلام) وتاريخ إلقائه يوم الثلاثاء المصادف ١٠/١٠/١٩٦١م والدرس الأخير في البحث حول (دخول الشئ في القضاء والقدر) وتاريخ إلقائه يوم الأربعاء ١١/٤/١٩٦٢م.

وآخرها في بحث موضوع (الجهات اعتبارات ذهنية) وكانت المحاضرات في السنة الثالثة تتعلق في مباحث (العلة والمعلول) وأما محاضرات المظفر الفلسفية على طلبة الصف الرابع وهي السنة المنتهية في كلية الفقه فقد أملاها عام ١٩٦١– ١٩٦٢م وهي موزعة على اثنين وثلاثين درساً يبدأ الدرس الأول منها حول (الفلسفة وعلم الكلام) وتاريخ إلقائه يوم الثلاثاء المصادف ١٠/١٠/١٩٦١م والدرس الأخير في البحث حول (دخول الشيء في القضاء والقدر) وتاريخ إلقائه يوم الأربعاء ١١/٤/١٩٦٢م.

أدبية أو يفرغها في قالب أدبي من التعبير وأن يضم إلى عمق المادة جمال العرض وأكثر ما يبدو في كتابه أحلام اليقظة — وهو هذا الكتاب — حيث يناجي فيها صدر المتألهين ويتحدث معه فيما يتعلق بنظرياته في الفلسفة الإلهية العالية ويتلقى منه الجواب بصورة مشروحة وبعرض قصصي جميل. ولا أبالغ إذا قلت أن الكتاب فتح كبير في الكتابة الفلسفية فلا تشكو الفلسفة شيئاً كما تشكو الكتابة التي لا تخضع لها أداتها، وقد حاول الشيخ المظفر أن يخضع الكتابة للفلسفة أو يخضع الفلسفة للكتابة ويجمع بينهما في كتابه هذا "[١] وإن أسلوب الحوار القصصي الذي استعاره المظفر كان له فيه قصب السبق لفهم الكثير من القضايا الفلسفية[٢] " كما أن له انعكاسات على أسلوبه في جلّ كتاباته التاريخية والأدبية بسبب أنه " كان يجري في الكتابة كما يجري الماء من غير أن يظهر عليه شيء من الكلفة أو التصنع، وينساق القارئ معه كما ينساق الماء على منحدر من الأرض من دون أن يعرقل سيره شيء ولا يصطنع في الكتابة هذه المحسنات البديعية التي تصرف الكاتب عن الانسياق مع الفكرة وتصرف القاريء عن مجاراة الموضوع ".[٣]

---

(١) الشيخ محمد مهدي الآصفي، مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها مطبعة النعمان في النجف: ٦٨. ومقاله كذلك بعنوان (الشيخ محمد رضا المظفر من رموز الإصلاح في مدرسة النجف الأشرف) جريدة الشهادة العدد (٢٢٤— صفحة ١٣) بتاريخ الثلاثاء ٢٩/أيلول/١٩٨٧م.

(٢) ربما كان الشيخ نديم الجسر مؤلف كتاب (قصة الإيمان) قد سبق له أن اطلع على بحوثه فجرى على منواله في كتابه المذكور لأن المظفر ألّف كتابه في ١٢/ ربيع الثاني/١٣٦٥هـ. أنظر القاموسي في مقدمة ديوان المظفر. خاصة وقد نشر في مجلات عديدة منها العرفان والهاتف والدليل والفكر وغيرها.

(٣) الشيخ الآصفي، المصدر السابق.

ومن آثاره الفلسفية كتاب شرع في تأليفه بمناسبة الذكرى الألفية لابن سينا باسم " فلسفة ابن سينا " نشر منه مقالات بعنوان: المشاؤون والإشراقيون وابن سينا [١]، والمثل الإفلاطونية عند ابن سينا. وفلسفة ابن سينا[٢]، وبحوثه الرائعة في حرية الإرادة ومسألة القضاء والقدر، ودراسته عن الفيلسوف الكندي، يضاف إلى ذلك كتابه عقائد الإمامية الذي هو جزء مما كان يطمح لإنجازه كموسوعة عقائدية للشيعة الإمامية الإثنى عشرية وغير ذلك كثير مما نشر أولم ينشر بعد.

ويجد الدارس لحياة المظفر العلمية وجهوده الفلسفية ما نوهنا عنه في تأثير دراسته للفلسفة على أسلوب بقية ما اهتم به وسجله من تراجم الأعلام إلى مقدمات الكتب التي دوّن تصديراً لها ومنها على سبيل المثال كتاب (جامع السعادات) للمولى النراقي فقد ضمنها دراسة ضافية لعصر النراقي والتيارات الفكرية التي سادت فيه منطلقاً من اهتمامه وعنايته الفائقة بما يخص ملامح مما تعكسه دراسات الفلسفة وتأثيرها على مستوى الأخلاق ماراً بالظروف التي أنتجت نزعات اتسمت بالروحية ولكنها غريبة في مؤداها عن السلوك الديني السليم بسبب المغالاة والتطرف وما أولدته في مخاضها من فرق وطوائف قريبة من المنحى الباطني.

ومما اعتبره الشيخ سبباً لظاهرة الفتور العلمي وظهور النزعات الغريبة " الوضع السياسي والاجتماعي في ذلك القرن من نحو التفكك واختلال الأمن والحروب بين الأمراء والدول التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية ...

---

(١) وهو بحث نشره في مجلة العرفان الصادرة في مدينة صور بلبنان.

(٢) وقد نشرهما في مجلة البذرة في النجف التي كان يحررها طلاب منتدى النشر.

فأوجب ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية مما دعا عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة ونشوء نزعة التصوف على أنقاض الفلسفة الإشراقية الإسلامية المطاردة المكبوتة التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء كالمولى صدر الدين الشيرازي وأضرابه وأتباعه.." [١].

وفي مقدمة دراسته لتخميس القصيدة الشهيرة بالأزرية تراه عندما يتطرق الحديث عن ثقافة ناظم القصيدة الشيخ محمد كاظم الأزري ينبه إلى أنه " لم يذكر عن شاعرنا ماذا درس في النجف وعلى من تتلمذ وبأيّة درجة كانت ثقافته غير أن الذي يقرأ شعره يرى فيه لفتات الفاضل العالم بالمعارف الإسلامية بل أكثر من ذلك يجد أنه درس الفلسفة وفهم دقائقها وإن كان يقول:

كفى رويدك واقصري يا هذي   هيهات ليس الفيلسوف بهاذي

وإلا فلا تخال غير الدارس للفلسفة المتذوق لها يتمكن أن يقول في ألفيته في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

وهو الآية المحيطة في الكون   ففي عين كل شيء تراها
وهو الفرد الذي مفاتيح علم   الواحد الفرد غيره ما حواها
وهو طاوس روضة الملك بل   ناموسها الأكبر الذي يرعاها
وهو الجوهر المجرد منه   كل نفس مليكها سواها
لم تكن هذه العناصر إلا   من هيولاه حيث كان أباها

---

(١) مقدمة كتاب جامع السعادات بقلم الشيخ المظفر.

ففي هذه الابيات :

أولاً — تلمح النزعة الإشراقية إلى القول بوحدة الوجود ذلك قوله (ففي عين كل شئ تراها) وأراد بالعين الوجود العيني للشيء كما هو اصطلاحهم.

وثانياً — قوله (طاووس روضة الملك) وهو اصطلاح عرفاني المسمى عندهم بالعنقاء ويقصدون به الملك الروحاني المدبر أو العقل الفعّال وكذلك كلمة (ناموسها الأكبر) من اصطلاحهم.

وثالثاً — في البيتين الأخيرين يشير من طرف خفي إلى نظرية المثل الإفلاطونية في أحدث تفاسيرها الدقيقة فيطبق المثال المجرد للنوع الإنساني على الإمام كما هو رأي بعض الفلاسفة الإشراقيين ولذلك هو يعبر عن الإمام بالجوهر المجرد الذي منه أشخاص النوع تمتد في تكوينها وتزكية أخلاقها بتدبير المليك المصور تعالى شأنه.

ويشير إلى نظرية السببية استطراداً وهي عنده بموضع الاعتبار فيقول من قصيدة :

هبي له تصلي إلى حرم الغنى   لابد من سبب لكل مسبب

وهكذا تجد في أبيات كثيرة إذا تدبرتها أن الرجل صاحب فلسفة وعلم فضلاً عما ينطق به شعره وبراعته من دراسته للعلوم العربية والإسلامية.[1]

ولا نستطيع بهذه الدراسة السريعة استعراض جميع ما رشح عن يراع شيخنا المظفر الذي توزع على مساحة واسعة من الدوريات العراقية والعربية فقد عالج — قدس سره — في بحوثه مسائل في غاية الأهمية والدقة والتعقيد

---

(١) مقدمة تخميس الأزرية من منشورات المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٧٠هـ— ١٩٥٠م.

بخاصة ما تعنيه العقيدة والحكمة الآلهية[(١)] حيث حاول من خلالها تبسيط مفاهيمها وعرضها بأسلوبه الرائع ليضعها في متناول المعنيين .

وفي تصديره لكتاب (مشهد الإمام)[(٢)] يستشعر روحانية مدينة النجف بقدسية جدث الامام علي — عليه السلام — فيها فتراه في الختام يقول :

وحقيق بمن تمسك بالعروة الوثقى من خدمة سيد الكونين ورئيس الموحدين وإمام الآلهيين أن يستلهم من روحه الجبارة ونفسه العظيمة الطاهرة المؤمنة ما يجعل منه عاشقاً للحقيقة المجردة وملهما يرنو إلى نور الحق الأبلج[(٣)]..

ونخلص بالتالي الى نتيجة :

١ — أصالة مدرسة الفلسفة الإسلامية في النجف وازدهارها عبر تاريخ طويل يمتد بأصوله إلى مدرسة الحكمة الإلهية التي رسّخ كيانها إمام الموحدين علي بن أبي طالب — عليه السلام — ولمساهماتها الجادّة بأعلام الفن ، البنّاءة بالتدريس والتأليف ومواكبة التطوير وما يستجد بالساحة الفكرية نظراً لما تمتاز به من التنوع وتلاقح الأفكار بين رجالها الذين استوطنوا للمجاورة والتحصيل والمحاورة وهم ينحدرون من مجتمعات وشعوب مختلفة جمعتهم وحدة الهدف ونبل الغاية بل أن ما يوفره الدرس النجفي للفلسفة ميزة الترابط والاتصال النوعي المباشر بعيداً عن عامل الزمان والمكان ، وبسبب انفتاح هذه

---

(١) من ذلك أجوبته على أسئلة شغلت الساحة الفكرية. ومنها بحوث حول الأمامة وكذلك ما ألمح إليه في ثنايا مقالاته وخطبه التي نأمل أن تأخذ طريقها إلى النشر في مسعى الوفاء لهذه الشخصية المعطاءة.

(٢) كتب الشيخ تصديره للجزء الاول بتاريخ ١٧/جمادى الاولى/١٣٧٢هـ. والكتاب من تأليف محمد علي جعفر التميمي وطبع في مطبعة دار النشر والتأليف بالنجف ١٣٧٢هـ— ١٩٥٣م .

(٣) هذا ما أقتضاه الاختصار في استعراض اهتمامات الشيخ المظفر الفلسفية ومدى تفاعله مع دراساته وطموحاته في العلوم العقلية عسى أن يحالفنا التوفيق لاستكمال ذلك في دراسة موسعة في المستقبل.

المدرسة الإمامية في التلقي والإضافة وتجديد مفاصلها وعدم ضمورها منذ نشأتها عبر العصور كان لها انعكاسات فلسفية على دراسات الفقه والأصول والعقائد والأدب والمنطق، وكذلك تأثيرها في إقامة البنية المعرفية للتصوف والسلوك والسير والعرفان مما اختص بسمات ومواصفات متميزة.

٢ – إن ما أثير حول محاربة الفلسفة ومواجهتها المضادة في مدرسة النجف لا يرقى إلى مستوى المبالغات التي شاعت عنها إلا بقدر ما يتناسب مع الظروف المحيطة زماناً وموضوعاً ومواقف منسوبة لشخصيات معينة كانت تتبنى آراء في منهجيتها العلمية وهي حالة طبيعية صحية في إطار الدراسات الحوزوية، "ومن الملفت للنظر أنه بالرغم من التشديد والمواجهة القاسية لدارسي الفلسفة فإن شعلة الدرس الفلسفي لم تنطفئ في النجف، وأضحت مدرسة النجف الفلسفية هي المدرسة الأم التي شع منها الدرس الفلسفي في هذا العصر إلى حواضر مهمة في العالم الإسلامي فأوقد فيها جذوة المنحى العقلي في التفكير، وأشاع تداول دراسة الفلسفة مثلما فعل السيد جمال الدين الحسيني المعروف بالأفغاني فإنه بعد أن مكث تلميذاً في النجف لأربع سنوات هاجر إلى مصر فاهتم بتعليم الفلسفة هناك وتأسست على يديه حركة نشطة برز فيها مجموعة من تلامذته كالشيخ محمد عبده كانت تعنى بفن المعقول" [1] والقول الفصل هو الدليل الذي يوفره تاريخ البحث الفلسفي للنجف الدال على التواصل والإبداع.

---

(١) الدكتور عبد الجبار الرفاعي، تطور الدرس الفلسفي في النجف الأشرف: ٦٨ من بحوث موسوعة النجف الأشرف (الجزء الثامن) التي أصدرها الوجيه طيب الذكر المرحوم الحاج جعفر الدجيلي. دار الأضواء بيروت ١٤١٧هـ– ١٩٩٧م.

٣ — كان لعمق دراسة الشيخ المظفر للفلسفة وتعلق نفسه بمباحثها إلى حد كبير الأثر الواضح على مجمل دراساته وبحوثه وأفكاره ومنهجه وأسلوب تفكيره، والسبب في ذلك أنه اتجه إلى البحث الفلسفي منذ بواكير حياته العلمية، وكما ألمحنا سلفاً بتوفيقه للتلمذة على أساطين العلماء الربانيين وإدراكه جيلاً من صفوة العارفين الذين يندر أن يجود بهم الزمان، وفي ظروف كانت تشهد العصر الذهبي للنجف في سيرها العلمي وهي تعيش مخاض التطلع إلى التجديد في مناهج البحث وطرق الدراسة التي أدرك من خلالها الشيخ المظفر أهمية الخبرة بالقواعد الفلسفية والمنطقية بخاصة تلك التي ترتكز عليها الأصول الفقهية بمختلف أشكالها فقدم أطروحته في المنطق وعلم الأصول ودراساته الفلسفية.[١]

٤ — من مزايا المنهج العلمي الذي إلتزمه المظفر الموضوعية في الطرح لدقائق المسائل الهامة التي تطرق إلى بحثها فيما تنعكس من خلالها ألمعية شخصيته الاجتهادية التي اكتسبها بسبب " الخبرة بالقواعد الفلسفية والمنطقية وبخاصة تلك التي ترتكز عليها الأصول الفقهية بمختلف أشكالها "[٢] من ذلك النظريات العلمية التي اختص بها في تفسير (الأمر بين الأمرين) ومسألة

---

(١) نشير إلى تقديم الإمام الخوئي لكتاب أصول الفقه السالف الذكر، وإلى رسالة الشيخ مرتضى آل ياسين حول كتاب المنطق بقوله مخاطباً: " فما أجدرك منذ اليوم أن تدعى (المظفر) حقاً إذ فتح الله على يديك هذا الفتح المبين " أنظر آخر كتاب المنطق.

(٢) الحكيم محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن: ٥٧٢.

(اجتماع الأمر والنهي) وما شاكل ذلك[١] بل له مطارحات فكرية ولغوية وغيرها مع كبار الأعلام .[٢]

٥ — ربما لا نجانب الواقع إذا قررنا أن ما حققه المظفر من نجاحات في مضمار نتاجه الفكري على مستوى الفلسفة والمنطق والعقيدة والأصول كان السبب الداعي إليه إيمانه بجدوى المبادرة وإيجابيتها للبدء بخطاب النهضة الجديد[٣] وترسيخ دعائم الإصلاح الديني[٤] بمختلف الاتجاهات والأساليب التي تحققت على يديه ولم يدركها تمام الإدراك جيله الذي عاصره إلا النخبة الذين يملكون رؤية مستقبلية صائبة بعيدة النظر[٥]، وتلاميذه ممن لحق بركبه المبارك لإكمال الشوط الذي بدأه أستاذهم المظفر في أفكاره وخطاه وفي علمه وعمله.

---

(١) الآصفي محمد مهدي، مدرسة النجف وتطور الحركة الاصلاحية فيها: ٦٩.

(٢) منها حواره مع الدكتور أحمد أمين حول تشكيل مؤتمر يجمع لواء الشيعة والسنة على صفحات مجلة الرسالة المصرية، ونقاشه مع الدكتور مصطفى جواد حول دخول كلمة اللام والألف على كلمة فوضى علة صفحات جريدة الهاتف النجفية، وما روي عنه بإلفاته النظر بورود خمس أغلاط لغوية في رسالة مجمع اللغة العربية في مصر التي أرسلها إلى المجمع العلمي العراقي — عندما كان المظفر عضواً فيه — وما نشره من إفادات حول (القضاء والقدر) في مجلة النجف أنظر المصدر السابق: ٧٦. جريدة البلد مقال محمود شيت خطاب المنشور بتاريخ ١٩٦٤/٢/٢٥م.

(٣) حيث ظهرت بوادر ذلك في أسلوب الكتابة الحديثة الذي بدأه المظفر في بحوثه ومقالاته واستكمل طلابه المسار من بعده.

(٤) يصف المظفر الشعور الذي كان يساور مفكري الإصلاح في تلك الفترة بأنهم " أشبه بجمعيات سرية أو مجالس تمهيدية في طريق الإصلاح ... وهي على بساطتها تمثل لي — والكلام للشيخ — مقدار التكتم والخوف. وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً على تفقد المفكرين من أصحابنا الذين يحسون بالداء مثلنا.." .

(٥) ومنهم المراجع العظام السيد أبو الحسن الأصفهاني والسيد البروجردي— قدس سرهما — .

هذا هو القدر المستطاع تسجيله مختصراً لما يتعلق بموضوع البحوث التي دوّنها شيخنا المظفر — نضر الله وجهه — في هذه الإضمامة من إفاداته النافعة وهناك مسائل أخرى لها العلاقة بما لم نستطع الإفاضة فيه عسى أن يكون بعد العسر يسراً.

وفي الختام نبتهل إليه تعالى بالتوفيق والسداد لما يحبه ويرضاه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد جواد الطريحي

المظفر في سطور

هو الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ مظفر الصيمري الجزائري الشهير بالمظفر.

ولد في مدينة النجف الأشرف في اليوم الخامس من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٢٢هـ[1] وولادته بعد وفاة والده بخمسة أشهر فكفله أخوه العلم الحجة الشيخ عبد النبي الذي أولاه من عنايته وعطفه ما أغناه من حنان الأبوة.

وبعد وفاته نشأ في ظلال شقيقه الإمام آية الله الشيخ محمد حسن فأولاه تربية عالية وغذّاه من نبوغه وفضله.

وفي الدور الأول لنشأته كان التأثير الكبير في توجهه العلمي هو امتياز أسرته التي تعد من أسر العلم النجفية العريقة منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري وقد عرفت بسمعة رجالها الأعلام الذين اشتهروا بالكمال والفضيلة وكانت لهم المكانة والتبجيل سواء من سكن منهم النجف أو قطن منطقة الجزائر والبصرة جنوبي العراق حيث كانوا أرباب الفتوى وأئمة المحاريب الهداة.

أما والده الفقيه الجليل فهو ممن برع في الاجتهاد والتدريس وألّف موسوعة جليلة شرح فيها كتاب (شرائع الإسلام) سماها (توضيح الكلام) فقد فتح شيخنا عينيه في بيت تعيش فيه أسرة آل المظفر المتكونة — بعد وفاة أخيه الأكبر الشيخ عبد النبي — منه ومن إخوانه الذين يكبروه في السن: الشيخ محمد حسن والشيخ محمد حسين والشيخ محمد علي وكانوا يسكنون داراً واحدة

---

(١) وأمه الفاضلة كريمة العلاّمة الشيخ عبد الحسين الطريحي (١٢٣٣–١٢٩٢هـ).

ولدوا فيها ونشئوا وترعرعوا في أفيائها وتزوجوا وأولدوا بها ولم يتحولوا عنها إلا بعد أن ضاقت بهم وبأولادهم.

وبعد أن أتم بدايات دراسته بما تلقاه على أخويه العلمين عبد النبي ومحمد حسن توجه لاستكمال مسيرته العلمية فحضر عند الشيخ محمد طه الكرمي الحويزي الذي عبّر عنه شيخنا المترجم له بقوله (حضرت كتاب المطول على الشيخ الحويزي وجملة من علم الأصول فاستفدت فائدة كلية وتعلمت منه كيف يتوصل إلى التنقيب عن المسائل العلمية بما كان يتوسع به في بسط المسائل وتحقيقها وفي خلال ذلك تتلمذت عليه في الشعر فكان له عليّ المنة الكبرى في تعلم النظم حتى أشتد ساعدي في ذلك كله) .

ثم حضر في علمي الفقه والأصول مجلس درس البحوث العالية لأخيه الشيخ محمد حسن والميرزا محمد حسين النائيني والشيخ ضياء الدين العراقي وعمدة استفادته كانت لدى أخيه الحجة الحسن قدس سره واختصاصه بالإفادة في الأصول والفلسفة عند الشيخ محمد حسين الأصفهاني الشهير بالكمّباني حيث تأثر بطريقته وانسجم معه في أفكاره وخواطره بما عبر عنه قائلا :(وكثيرا ما كان يوحي إلينا في الخلوة به من خواطره في سبيل إصلاح الحركة العلمية والمجتمع الروحي ولم يكن يؤاتيه — يومئذ — أن ينهض بواحد منها حتى خسره العلم والدين عماداً لقبة الإسلام وعميدا لخزّان الشريعة وخزّاناً للفيض القدسي).

وكان له حضور علمي في دروسه الفقهية والأصولية عند الميرزا حسن البنجوردي والميرزا عبد الهادي الشيرازي وفي العرفان والسلوك عند المولى الرباني السيد علي القاضي .

ولأهليته في ملكة الاستنباط فقد تسنم مرتبة علمية عالية حيث منحه أساتذته الكمبّاني والشيرازي وشقيقه الحسن إجازة الاجتهاد وأصبح مؤهلا للزعامة والمرجعية الدينية مما كان ينتظر فيه من تحقيق المستقبل الواعد للقيادة الواعية .

اتصف (قدس سره) بالألمعية والذكاء من بواكير عمره وبسداد الرأي وحصافته ورجاحة العقل ودقة التفكير وكانت شخصيته مفعمة بالحيوية والنشاط يقابل ذلك العفة ونكران الذات والبساطة والتواضع والورع والزهد عما في أيدي الناس وعرفته الأوساط بالسيرة الطيبة والخلق المرضي تعلو وجهه ابتسامته المنطبعة على شفتيه رغم المحن والمضايقات التي تعم — عادة — حياة المصلحين من رادة الفكر والنهضة وكان يمتلك نفساً كبيرة تمتاز بالإيثار والتضحية والصراحة المتناهية ونجد الدليل بما يمثل ذلك في تعامله مع خصومه فضلاً عن محبيه ، خصوصاً وقد وقف بشجاعة وثبات لانجاز آماله وطموحاته وتنفيذ مشاريعه في الإصلاح والتجديد في إطار المجتمع والحوزة العلمية في عصر ارتسمت عليه معالم السبات والتضييق والاتهام ومن يقرأ مذكراته وما سطره بآرائه الصريحة التي دوّنها يقف أمام كل ذلك — بالإضافة إلى النظر في تفاصيل حياته الذاتية والعلمية — موقف الإكبار والتقدير والإجلال ويعرف الباحث عنه فيها مدى ما تحملته نفسه الكريمة حيث يقول : (إن من أصعب الأشياء أن يفكر الإنسان تفكيرا حراً حتى في أبسط الأمور ولو في ساعة الخلوة بنفسه...فإنه حينئذ تخالجه من الآراء الموروثة من جهة ومن المخاوف والوساوس من جهة أخرى ما تجعله ينوء بحمل ثقيل لا تقوى عليه نفسه مهما عظمت وشمخت....).

ومن سجاياه الكريمة غيرته وتحفزه لخدمة الدين والمذهب بمستوى وعيه المبكر وإحساسه بضرورة الإصلاح والتجديد في المجتمع الروحي الذي تعيشه حاضرة النجف العلمية وخاصة ما يتعلق بالمناهج الدراسية وأساليبها واتخاذ الخطوات الجادة لإقرار نظام تعليمي يتناسب مع المرحلة التي تعيشها الأمة آنذاك وهي تواجه النهضة الحديثة في العالم وانعتاق الشعوب من ربقة التسلط العثماني وبدء الاستعمار الغربي ومتبنياته الفكرية ومن هذا المنطلق في حياة المظفر نكتشف سبقه إلى تبني عملية التغيير في الدراسات الدينية وكان له دور الريادة في ترسيخ معالم الجدّة والانفتاح على تثبيت حيوية الحوزة العلمية وانطلاقها إلى الفقه المتحرك في مفاصل الحياة والمجتمع وقبول الآخر وفق موازين الحفاظ على قدسية الثوابت الشرعية والتعامل مع الواقع المعاش بأسلوب المنهج القرآني والسنة المطهرة والباحث في مجريات حركته الناهضة يجده بحق رائداً يستشرف آفاق المستقبل بعين البصير الذي يدرك النتائج والمعطيات وهو من نوادر الرجال في طليعة القادة الدينيين الذين كانوا يبذلون جلّ طاقتهم في سبيل المصلحة الإسلامية وفي تفاصيل حياته قصص رائعة عن غيرته الدينية واتجاهه لإصلاح مجتمعه على أسس الصلاح والتقوى وهذه الإشارات البسيطة من البراهين الدالة على تفسير نجاحه في مشاريعه على كافة المستويات.

ومما يلمسه الباحث في حياته وآثاره هو إخلاصه وفناؤه في ذات الله وحسن توجهه ونواياه التي لم تشبها شائبة فلم يعرف الشيخ رحمه الله حينا من الزمن معنى لكلمة (الأنا) وقد عانى في سبيل تحقيق ما يصبو إليه من أهداف نبيلة المشاق والمضايقات والظروف الصعبة وهو الرجل الخبير بمحيطه وملابساته

بحيث اتخذ الحيطة والحذر من أن يمسّ الناس كلهم العالم والجاهل والعاقل والأحمق بل كان — طيّب الله ثراه — إنساناً اجتماعياً إلى حدٍ بعيد لا يدع مناسبة أو اجتماعاً إلاّ كان حاضراً فيه أو مشاركاً لأنه من المؤمنين بأهمية دور الأمة الأساس لنشاط وحيوية العمل من اجل المبادئ الإسلامية وإن من حق المرجعية الدينية أن تتصدر الزعامة للمجتمع ، ومن حق الأمة على الزعامة التوجيه الواعي والتثقيف وكان هذا التفكير سر نجاح مشاريعه في توجيه الناس .

وله الدور الوطني الذي ساهم فيه مع المخلصين من الأعلام الذي كان يمثل فيه الامتداد الطبيعي للبيئة النجفية في صراعها الدائم مع الاستعمار فلم يعاصر الأحداث والحركات فحسب بل التأم بها عاطفيا وفكريا بمساهمة فعالة بما تعنيه القضية في واقع العراق أو في الساحة العالمية سواءً بسواء أو ما يوثّق العلاقة الفكرية بين الحوزة والجامعة وبذلك نرى على وجه اليقين أنه كان (مظفراً) فيما سعى إليه من خطوات إيجابية وأنه عاش لدينه وفكره الإصلاحي ولأمّته وهمّه لانتصار مبادئ الحق والعقيدة أكثر من همّته واكتراثه بنفسه وأهله ومصالحه الشخصية.

لقد كان المظفر بحق مدرسة للنهضة والإصلاح ورائد السبق في هذا المضمار وفي طليعة أعلام الدين المجتهدين الذين ملكوا أزمة التجديد في التطلع لصياغة الاجتهاد المعاصر في إهابه الجديد ويعدّ — رحمه الله — المجتهد المجدّد الأديب العالم الشاعر الفيلسوف العارف المصلح.

مشاريعه ومؤسساته

بدأ الشيخ المظفر مبكراً في تحقيق ما يصبو إليه من رؤىً إصلاحية وما كان ينشده للتعليم والدراسة في الحوزة العلمية فكان أن أسّس :

١ — مدرسة منتدى النشر العالية في السنة التالية من تأسيس جمعية منتدى النشر أي سنة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٦م وبعد إغلاقها.

٢ — أعلن تأسيس كلية منتدى النشر سنة ١٣٦٣هـ — ١٩٤٣م التي استمرت إلى قيام نظيرتها.

٣ — تأسيس كلية الوعظ والإرشاد سنة ١٣٦٣ هـ .

٤ — تأسيس لجنة المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر سنة ١٣٦٣ هـ .

٥ — تأسيس أول مركز أهلي لمحو الأمية في العراق سنة ١٣٦٤هـ — ١٩٤٤م .

٦ — كلية الفقه التي أسّست سنة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٧م واستمرت حتى إلغائها من قبل النظام السابق.

٧ — فتح دورات زمنية خاصة مثل دورة مسك الدفاتر التجارية ، ودورة قسم من العلوم الرياضية ، دورة ببعض اللغات الأجنبية .

٨ — تأسيس وإدارة عدد من المدارس الإعدادية والمتوسطة والابتدائية في النجف والكاظمية والشامية والبصرة والحلة وكربلاء.

٩ — بادر بما أسّسه للتعليم العالي لجعله نواة لقيام (الجامعة الإسلامية) فيكون بذلك رائداً سبّاقاً للنظر في إقامة (جامعة الكوفة) قبل تأسيسها.[1]

---

(١) أنظر مقدمة كتاب (الاعتقاد فيما يتعلق بالاقتصاد) للشيخ الطوسي بقلم الدكتور محمود المظفر الذي أصدرته جمعية المنتدى. وأنظر (من أوراق الشيخ المظفر) من إعداد وتقديم الأخ بالروح الأستاذ محمد رضا القاموسي المنشورة أول حلقاتها في مجلة آفاق نجفية العدد الثامن . السنة الثانية ١٤٢٨هـ — ٢٠٠٧م، ص: ١٢٩.

مؤلفاته ومقالاته

كان شيخنا – قدس سره – (مظفّراً) فيما أغنى به المكتبة الإسلامية والعربية من مؤلفات طبعت لمرات كثيرة وترجمت إلى لغات العالم الحية، وكتبت شروح وتعليقات على البعض منها وفيما يلي قائمة بعناوينها:

١. السقيفة: دراسة موضوعية مجرّدة، ألّفه عام ١٣٥٢هـ وطبع عام ١٣٦٢هـ بالمطبعة الحيدرية بالنجف.

٢. المنطق: في ثلاثة أجزاء، طبع أولاً في النجف.

٣. أصول الفقه: في مجلدين، طبع في النجف عام ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م بتصدير للإمام السيد الخوئي – قدس سرّه –.

٤. عقائد الإمامية: طبع في النجف بالمطبعة الحيدرية ١٣٧٣هـ بعنوان (عقائد الشيعة). وترجم إلى أكثر من عشر لغات أجنبية.

٥. الفلسفة الإسلامية: محاضرات من إعداد تلميذه السيد محمد تقي الطباطبائي التبريزي، طبع مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر الجزائري، قم ١٤١٤هـ.

٦. حاشية على كتاب المكاسب (البيع والخيارات) للشيخ الأنصاري: حقّقه وطبعه الشيخ جعفر الكوثراني.

٧. أحلام اليقظة: وهو كتابنا هذا.

٨. أضغاث أحلام: لا يزال مخطوطاً، وقد سجل فيه معاناته وآماله في إصلاح الحياة الروحية ومستقبلها. أشار إلى ذلك الشيخ جعفر الكوثراني في تحقيقه لحاشية المظفر على المكاسب وأنها بخط المظفر في مكتبة والده المرحوم الشيخ محمود الكوثراني.

٩. مذكراته: وقد أشرنا سلفاً إلى طبعها في مجلة آفاق نجفية.
١٠. هناك آثار قلميّة لا تزال مخطوطة.
١١. آراء صريحة: لا يزال مخطوطاً، دوّن فيها هواجسه وخواطره الإصلاحية وبعض آراءه في العقيدة والفكر.
١٢. (اسمعني: مجموعة قطع نثرية نشرت في بعض الصحف والمجلات تتضمن مفاهيم وأفكار أخلاقية.
١٣. التفسير: كتبه في مقتبل حياته ونشره في مجلة رضوان الهندية.
١٤. المواريث: فقهي لم يطبع.)[1]
١٥. كان الشيخ مبادراً إلى نشر مقالات علمية وأدبية وفلسفية متعددة غطّت صفحات الدوريات والمجلاّت النجفية وغيرها. كالهاتف والنجف (بالنجف) والكحلاء والهدى (بالعمارة) والعرفان (بصيدا) والمرشد العربي (باللاذقية) والفكر (ببغداد) ومجلة الرسالة للزيّات (بمصر). من عناوين بعضها فلسفة ابن سينا والمثل الإفلاطونية لابن سينا وفلسفة الكندي والشيخ الطوسي مؤسّس جامعة النجف وبين جامعة النجف وجامعة القرويّين وغيرها. كما أن للشيخ مقدّمات تصدّرت مؤلّفات مهمة في الفقه والأخلاق والتفسير والفلسفة والأدب والتاريخ وله ديوان شعر جمعه وحقّقه الأستاذ محمد رضا القاموسي. ومما نأمله بتوفيق الله أن تأخذ هذه الآثار المظفرية مكانها للنشر في القريب العاجل بهمة الأفاضل الأعلام في منتدى النشر.

---

(١) الفقرات ١٢ و١٣ و١٤ أشار إلى ذكرها القاموسي في مقدمة مخطوطة ديوان المظفر.

صدر المتألهين الشيرازي[1]

منزلته العلمية

يلذّ لي الحديث كثيراً عن المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي القوّامي) مؤلف كتاب "الأسفار" المشهور على لسان الناس بـ(الملا صدرى) وعلى لسان تلامذة مدرسته بـ(صدر المتألهين) أو (صدر المحققين) .

وأنا أحد المعجبين بعقله ، وقوة عارضته ، وسموٍّ نفسه وحرية تفكيره وحسن بيانه ، ونضج أفكاره ، وصراحته[2] في نشر آرائه مع ما لاقى من عنت وتكفير.

وكلٌّ ذلك استشعرته من كتبه ورسائله ، قبل أن أفهمه من حديث الناس المترجمين له.

وقبل (١٢ عاماً) وضعت محاضرات رمزية في عرض فلسفته ، تخيلته فيها كأنه يحدثني في الأحلام ، ولكن من طريق مؤلفاته. فتألفت منها رسالة سميتها (أحلام اليقظة) نشر أكثرها في المجلاّت السيارة.

فاستجابتي الآن لوضع ترجمة له في مقدمة كتابه "الأسفار" العظيم أملتها عليّ تلك اللّذة وذلك الغرام[3] وها أنا ذا أقتبس جملة من أفكار تلك الأحلام في هذه الترجمة.

---

(١) تعدّ هذه الدراسة في سيرة هذا الحكيم المتأله من أولى البحوث الرائدة. وكل فصل منها بحث مستفيض قائم بذاته. وهي بمجموعها تؤلف مقدمة لكتاب (الأسفار الأربعة) في طبعته الحروفية الأولى الصادرة في طهران عن دار الكتب الإسلامية. ولكن الناشرين توقفوا من نشر فصول (المؤاخذات عليه) خشية أن تؤثر على سمعة الكتاب ومؤلفه. بينما أن هذه الفصول تجلّي اتجاهه الفكري وقد نشرت كاملة على صفحات مجلة النجف ابتداءاً بالعدد ١٥ للسنة الثانية الصادر بتاريخ ١٩٥٨/١١/٢٦م. وقد اعتمدناها لثقتنا بأنها نشرت تحت أنظار شيخنا المظفر — قدس سره — .

(٢) (الإعلان) وردت هذه الكلمة في طبعة طهران التي سنشير إليها برمز ط — ن.

(٣) (الإعجاب) ط — ن.

والحقُّ أنَّ صاحبنا من عظماء الفلسفة الإلهيين الذين لا يجود بهم الزمن إلاّ في فترات متباعدة من القرون، وهو — بعد — المدرس الأول لمدرسة الفلسفة الإلهية في هذه القرون الثلاثة الأخيرة في البلاد الإسلامية الإمامية، والوارث الأخير للفلسفة اليونانية والإسلامية، والشارح[1] لهما والكاشف عن أسرارهما.

ولا تزال الدراسة عندنا تعتمد على كتبه لا سيما "الأسفار" الذي هو القمة في كتب الفلسفة قديمها وحديثها والأمُّ لجميع مؤلفاته هو.

وكلُّ من جاء بعد من الفلاسفة في هذه البلاد فإنَّ فخر المجلّي منهم أن يقال عنه انه يفهم أسرار كلامه أو انه من تلاميذه ولو بالواسطة، ومن الطريف حقاً أن نجد أساتذة فنَّ المعقول — كما يسمّونه — يفتخرون باتصالهم به في سلسلة التلمذة، حتى إنَّ بعضهم يبالغ في حفظ أسماء أشخاص هذه السلسلة، كالعناية بسلسلة رواية الحديث .

وأكثر من ذلك أنَّ شيخنا وأستاذنا العظيم المحقق الحجة الشيخ محمد حسين الأصفهاني (١٢٩٦ — ١٣٦١هـ) سمعت عنه أنه كان يقول : "لو أعلم أحداً يفهم أسرار كتاب الأسفار لشددت إليه الرحال للتلمذة عليه وان كان في أقصى الديار" . وكأنَّ أستاذنا — قدس اللّه نفسه الزكية — يريد أن يفتخر أنه وحده بلغ درجة فهم أسراره أو أنه بلغ درجة من المعرفة أدرك فيها عجزه عن اكتناه مقاصده العالية .

وأزيدك إني من المؤمنين بأنَّ صاحبنا صدر المتألهين أحد أقطاب أربعة[2] في الدورة الإسلامية : هو، والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي المتوفى

---

(١) (الشارح) ط — ن.

(٢) (أربعة) لم تذكر في ط — ن.

حدود ٣٤٠هـ، والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٣ — ٤٢٧هـ)، والخواجا[١] نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ — ٦٧٣هـ[٢]) هؤلاء هم في الرعيل الأول، وهم الأصول للفلسفة[٣]، وصاحبنا خاتمتهم والشارح لآرائهم والمروّج لطريقتهم والأستاذ الأكبر[٤] لفنّهم. ولو لا خوف المغالاة لقلت هو الأول في الرتبة العلمية، لاسيما في المكاشفة والعرفان[٥].

والرجل نشأ مطارداً منقوما عليه حتى كان يقول عن نفسه كما سيأتي في البحث الثالث: "ما كان له رتبة أدنى من آحاد طلبة العلم". ولكنه في أيامه الأخيرة أقبل الناس على فلسفته والتلمذة عليه حتى نبغ من بينهم جماعة منهم صهراه على ابنتيه الحكيم المحدث المشهور ملا محسن (الفيض) والحكيم الآخر الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي (الفياض) صاحب شوارق الإلهام. والفيض والفياض لقبان وضعهما لهما أستاذهما وأب زوجتيهما صاحبنا صدر المتألهين.

أما بعد حياته فقد بعد صيته وأقبل طلاب الفلسفة إقبالاً عظيماً على مؤلفاته يتدارسونها ويكتبونها ويتلمذون عليها، وسادت مدرسته الفلسفية ومؤلفاته وطغت على كل مدرسة ومؤلفات أخرى حتى على مؤلفات الشيخ

---

(١) (والمحقق) ط — ن.

(٢) سنة الوفاة (٦٧٢ هـ) ط — ن.

(٣) وقد نجد خامساً لهم هو محي الدين بن العربي (المتوفى ٦٣٨هـ) والعهدة في عدّه من هذه الطبقة بل فوقها على صاحبنا الشيرازي وسيأتي في بحث المؤاخذات عليه رأيه فيه. (منه)

(٤) (فنهم) ط — ن.

(٥) إلى هنا ما ورد في ط — ن. والعبارة من (والرجل نشأ....إلى المطابع الحجرية بإيران) أثبتناها من طبعة النجف.

ابن سينا، والخواجا نصير الدين الطوسي. وبالأخير أي قبل مائة سنة فما بعدها طبعت جميع مؤلفاته في المطابع الحجرية بإيران .

نشأته العلمية

لم نتحقق من التاريخ سنة ولادته، وقد توفي سنة ١٠٥٠هـ في البصرة في طريقه للحج للمرة السابعة أو بعد رجوعه وأكبر الظن إنه تجاوز السبعين أو ناهزها، فيكون تولده في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري.

وكلُّ ما عرفنا عنه أنه تولد في (شيراز) من والد صالح اسمه إبراهيم بن يحيى القوّامي، وقيل كان أحد وزراء دولة فارس[1] التي عاصمتها شيراز، وأنه من عائلة محترمة وهي عائلة (قوامي). وهذا الوزير لم يولد له ذكر، فنذر للّه أن ينفق مالاً خطيراً على الفقراء وأهل العلم إذا رزق ولداً ذكراً صالحاً موحداً، فكان ما أراد في شخص ولده هذا (محمد صدر الدين) .

فتربى هذا الولد الوحيد لأبويه في حجر والده معززاً مكرماً، وقد وجهه لطلب العلم. ولما توفي والده الذي لم نتحقق سنة وفاته رحل صاحبنا لتكميل معارفه إلى أصفهان عاصمة العلم والسلطان يومئذ في عهد الصفوية .

ويظهر أنه حين انتقل إلى أصفهان كان ذا ثقافة ممتازة، لانَّ أول حضوره كان على الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ — ١٠٣١هـ) وما تظن بمن يحضر درس الشيخ البهائي وهو شيخ الإسلام يومئذ!

---

(١) ولم نتحقق اسم تلك الدولة ولا ملوكها. خصوصاً مع أنه في عصر الصوفية الذين شمل حكمهم جميع إيران.(منه)

ومن ولعه في طلب العلم أنفق كلَّ ما خلّفه والده من المال في تحصيله، وأشرب المذهب الصوفي الفلسفي (العرفاني) الذي كان هو السائد في ذلك العصر، والذي كان يجهر به حتى مثل الشيخ البهائي، فانعكس على نفسية هذا الطالب الذكي فأولع فيه ولوعاً أخذ عليه جميع اتجاهاته، وخلق منه صوفياً عرفانياً وفيلسوفاً، إلهياً فريداً قلّ نظيره أو لا نظير له .

وقد صرّح هو بهذا الولع في مقدمة الأسفار[١] فقال : "قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ أوّل الحداثة والريعان في الفلسفة الإلهية بمقدار ما أُوتيت من المقدور وبلغ إليه قسطي من السعي الموفور" .

ومن أثر ولعه بالفلسفة واتجاهه هذا كان انقطاعه إلى درس فيلسوف عصره السيد الداماد محمد باقر المتوفى ١٠٤٠هـ، وكان يعظّمه كثيراً ومما قاله فيه قوله في شرح أصول الكافي في شرح أول حديث منه : "سيدي وسندي وأستادي واستنادي في المعالم الدينية والعلوم الإلهية والمعارف الحقيقية والأصول اليقينية..." وبهذا ومثله يعبّر عنه في كلِّ مناسبة تدعو الى ذكره .

والذي استنتجته[٢] أنَّ صاحبنا صدر المتألهين مرّت له في نشأته العلمية ثلاث مراحل رئيسية، كوَّنت منه عظيماً من جملة عظماء تاريخ الفلسفة :

(المرحلة الأولى) دور التلمذة، وهو دور البحث وتتبع آراء المتكلمين والفلاسفة ومناقشتهم[٣] ويظهر انه لم ينضج يومئذ مسلكه العرفاني، وذلك ما يشير إليه قوله في مقدمة تفسير سورة الواقعة :

---

(١) ص٢.

(٢) (استنتجه) ط — ن.

(٣) (ومناقشاتهم) ط — ن.

"واني كنتُ سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار وشديد المراجعة الى مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتى ظننتُ أني على شيء، فلما انفتحت بصيرتي ونظرت إلى حالي — وذلك طبعاً بعد المرحلة الأولى هذه — رأيت نفسي — وإن حصلت شيئاً من أحوال المبدأ وتنزيهه عن صفات الإمكان والحدثان وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الإنسان — فارغة من العلوم الحقيقية وحقائق العيان، مما لا يدرك إلاّ بالذوق والوجدان". ويريد من العلوم الحقيقية المكاشفات العرفانية.

وقد أظهر الندم مما فرّط في أول عمره في سلوك مسلك أهل البحث، فقال في مقدمة الأسفار[١]: "وإني لأستغفر اللّه مما ضيّعت شطراً من عمري في تتبع آراء المتفلسفة[٢] والمجادلين من أهل الكلام وتدقيقاتهم وتعلم جربزتهم في القول وتفننهم في البحث".

ولئن أظهر الندم والأسف على ما ضيّع في هذه المرحلة من الوقت، فإنه استفاد منها كثيراً للمرحلة الأخيرة من حياته وهي دور التأليف الذي جمع فيه بين المسلك البحثي والمسلك العرفاني، وسنذكره في البحث الآتي (مدرسته العلمية).

على أنه في هذه المرحلة لم يسلك مسلكاً بحثياً صرفاً، بل كان مشوباً بالمسلك العرفاني وان كان بعد لم ينضج عنده، ولذا كان يقول بوحدة الوجود فيها، وألّف فيها رسالة طرح الكونين[٣] في وحدة الوجود على ما سيأتي.

---

(١) ص٤.

(٢) (الفلسفة) ط — ن.

(٣) الأسفار ١ : ١٠ ويرجى من كل من يريد الرجوع إلى الأسفار في معرفة ما نشير إليه أن يرجع إلى الطبعة الحجرية بعد ترقيم نسخته. (منه)

ومن هذا القول وأمثاله مما كان لا يتورع من التصريح به والإعلان بتحبيذه كان مضايقاً من الناس إلى درجة اشرقوه بريقه جزعاً، على ما صرّح به في عدة مناسبات في كتبه، ويشير بها إلى هذه المرحلة الأولى بالذات فالتجأ إلى أن يفر بنفسه منهم، وينتقل إلى:

(المرحلة الثانية) وهي دور العزلة والانقطاع إلى العبادة في بعض الجبال النائية، وقيل أنها (كهك)[1] من قرى قم، وأنه استقام في هذه العزلة خمسة عشر عاماً. وهي مدة طويلة.

وقد حكى لنا قصّة هذه الفترة من حياته في مقدمة الأسفار وغيرها، فانه كما يقول — لما رأى الحال على ذلك المنوال من خلو الديار من أهل المعرفة وضياع السير العادلة وإشاعة الآراء الباطلة، ضرب صفحاً عن أبناء الزمان والتجأ إلى أن ينزوي في بعض نواحي الديار، منكسر البال منقطع الآمال، متوفراً إلى العبادة، لا على درس يلقيه ولا تأليف يتصرف فيه.

ويعلل عدم توفره على الدروس والتأليف — على عادته في التسجيع — بأن هذه أمور تحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخيال، عما يوجب الملال والاختلال، وتحتاج إلى فراغ البال. ولا تحصل هذه الأشياء لمن يسمع ويرى من أهل الزمان من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف، وخفض الأعالي والأفاضل، ورفع الاداني والأراذل، وظهور الجاهل والعامي على صورة العالم النحرير وهيئة الحبر الخبير.. إلى غير ذلك من القبائح والمفاسد.

---

(١) راجع سفينة البحار ٢ : ١٧ في الحاشية. (منه)

وهكذا يتشكى من أبناء زمانه (ومثلهم أبناء كلِّ زمان)[1] ، ولم يتبين نوع تلك الاعتسافات التي كان يلاقيها. ولكنها – على كلِّ حال – أرهقته حتى طفق يرتأي بين أن يصول بيد جذاء (وما أدري هل كان يريد أن يعارك أبناء الزمان بالسيف ويجاهدهم ؟)[2] ، أو يصبر على طخية عمياء. فرأى بالأخير أنَّ الصبر على هاتي أحجى ، فصبر. وفي العين قذى وفي الحلق شجى ، إتباعا – كما قال – لسيرة أمير المؤمنين عليه السلام واقتداءً به ، فأمسك عن الاشتغال بالناس ، واختار العزلة والاستتار زمناً مديداً وأمداً بعيداً (وقد قلنا إنَّ هذا الأمد البعيد قدّروه بـ١٥ عاماً) .

وهو في كلِّ هذا الأمد البعيد ليس له شغل وعمل إلاّ العبادة والمجاهدات والرياضات ، متوجهاً توجهاً غريزياً إلى مسبب الأسباب ، ومتصرفاً تضرعاً جبلياً إلى مسهّل الأمور الصعاب – على حد تعبيره.

وهو يعتقد أنَّ الإنسان يتمكن من الحصول على العلم اللدني والانكشاف اليقيني ، بطول المجاهدات والانقطاع إلى اللّه تعالى ، بعد تصفية الباطن ورفع الحجب عن النفس. لذلك قال نتيجة لتلك العزلة : "اشتعلت نفسي لطول المجاهدات ، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً ، ففاضت عليها أنوار الملكوت ، وحلَّت بها خبايا الجبروت ، ولحقتها الأضواء الأحدية ، وتداركتها الألطاف الإلهية. فاطلعت على أسرار لم أكن اطلعت عليها إلى الآن ، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان بل كلُّ ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان..." وهكذا يكرر هذا المعنى في كثير من مؤلفاته .

---

(١) (لو درى) ط – ن.

(٢) بين القوسين لا توجد في ط – ن.

ولما حصلت له هذه الحالة النفسية نتيجة لتلك العزلة — انفتح له أن ينتقل إلى:

(المرحلة الثالثة) وهي دور التأليف، إذ ألهمه اللّه تعالى الإفاضة مما شعر[١] به (في المرحلة الثانية) جرعة للعطاش الطالبين، فبلغ الكتاب أجله، وأراد اللّه تقديمه وقد كان أجله — هكذا يقول — ورأى أن يخرجه من القوة إلى الفعل، ونهضت عزيمته بعدما كانت قاعدة، واهتز الخامد من نشاطه فصنف كتاباً إلهياً، ويعني به الأسفار. وهو أول كتبه بعد تلك العزلة الطويلة، ويظهر أنه اشتغل في تأليفه وهو لا يزال في موطن عزلته[٢].

ولم يصنّف كتاباً قبله — فيما عثرنا على نصوصه — غير ثلاث رسائل، إذ أشار إليها في الأسفار، وهي رسالة طرح الكونين[٣]، ورسالة حل الإشكالات الفلكية في الإرادة الجزافية[٤]، ورسالة حدوث العالم[٥]، وان كان هذا ليس دليلا وحده على سبقها على الأسفار بمجرد الإشارة إليها فيه، لأنه في رسالة الحدوث أيضا يشير إلى الأسفار نفسه والشواهد الربوبية الذي قيل انه آخر مؤلفاته وذلك ص ٣٢ من الرسالة، ولعلّه يدخل الإشارة إلى كتبه الأخرى بعد تأليف الكتاب بمدة، فذكر الإشارة إلى كتاب في كتاب آخر لا يعني[٦] على سبق تأليف ما أشار إليه.

---

(١) (شربه) ط — ن وهو الأنسب.

(٢) راجع سفينة البحار ٢ : ١٧ (منه).

(٣) ١ : ١٠.

(٤) ١ : ١٧٦.

(٥) ١ : ٢٣٣.

(٦) (لا يدل) ط — ن.

وفيما أظن أنَّ الرسالة الوحيدة التي — سبقت تأليف الأسفار ووقعت في المرحلة الأولى، هي رسالة (سريان الوجود) التي سيأتي ذكرها في مؤلفاته، لاشتمالها على آراء في الوجود عدل عنها في الأسفار، كما أظن إنها نفس رسالة (طرح الكونين).

وعلى كلِّ حال، فان كتاب (الأسفار) هو أوّل مصنفاته في المرحلة الثالثة من حياته، وقد شحنه بكلِّ ما عنده من أفكار وآراء[1]ومكاشفات[2] وشواهد ربوبية وواردات قلبية ومشاعر إلهية. وكلِّ كتاب ألفه[3]وكل رسالة صنعها بعد ذلك فالجميع مجرد منه ومقتبس من عباراته وآرائه . ولذا قلنا أنه الأمُّ لباقي مؤلفاته، حتى كتب التفسير التي ألفها — على ما يظهر — لغرض تطبيق فلسفته على القرآن الكريم.

وإذ انتهينا إلى هنا فإنه يحسن بنا أن نتحدث عن مدرسته العلمية التي كان يدعو إليها[4]، [5]:

مدرسته العلمية الجديدة

إنَّ فيلسوفنا يرى أنَّ المعرفة تحصل من طريقين : طريق البحث والتعلم والتعليم الذي يستند على الأقيسة والمقدمات المنطقية، وطريق العلم اللدني الذي يحصل من طريق الإلهام والكشف والحدس .

---

(١) (جديدة) ط — ن.

(٢) (عرفانية) ط — ن.

(٣) (بعده) ط — ن.

(٤) والى الملتقى في الفصل الآتي.

(٥) (قبل الحديث عن مؤلفاته) ط — ن.

وهـذا الأخير إنما يحصل بسبب تجريد النفس عن شهواتها ولذائذها والتخلص من أدران الدنيا وأوساخها، فتنجلي مرآتها الصقيلة وتنطبع عليها صور حقائق الأشياء كما هي، إذ تتحد النفس بالعقل الفعّال حينما تحدث لها فطرة ثانية بذلك .

ويرى أنَّ الفرق بين العلمين كالفرق بين علم من يعلم الحلاوة بالوصف، وبين علم من يعلمها بالذوق. وأنَّ الثاني أقوى وأحكم، ولا يمتنع وقوعه، بل هو واقع فعلا للأنبياء والأوصياء والأولياء والعرفاء.

قال في مفاتيح الغيب في المشهد الثامن من المفتاح الثالث: "إنَّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه السلاّك والعرفاء، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم، قائلين: ما معنى العلم إلاّ الذي يحصل من تعلم أو فكر ورويّة" .

بل ذمَّ مجرد الأنظار البحثية أشد ذم، فقال في الأسفار[1] ".. لا على مجرد الأنظار البحثية التي ستلعب بالمعوّلين عليها الشكوك، ويلعن اللاحق منهم فيها السابق، ولم يتصالحوا عليها، بل كلما دخلت أمة لعنت أختها".

ثم أثنى على كبار الحكماء والأولياء في مشاهداتهم النورية، وذلك في موضوع المثل الأفلاطونية، فقال: واكتفوا فيه بمجرد المشاهدات الصريحة المتكررة التي وقعت لهم فحكوها لغيرهم، لكن يحصل للإنسان الاعتماد على ما اتفقوا عليه والجزم بما شاهدوه ثم ذكروه. وليس لأحد أن يناظرهم فيه . وكيف إذا اعتبروا أوضاع الكواكب وأعداد الأفلاك، بناءاً على ترصد شخص

---

(١) ١ : ٧٥.

كأبرخس أو أشخاص بوسيلة الحس المثار للغلط ، فبأن يعتبروا أقوال فحول الفلسفة المبتنية على أرصادهم العقلية المتكررة التي لا تحتمل الخطأ كان أحرى".

وهذا غاية ما يمكن أن يقال في الثناء على الارصاد العقلية : ليس لأحد أن ينازعهم فيها. لا تحتمل الخطأ. إنَّ هذا لشيء عجيب !

ولكنه مع قوة عقيدته هذه في المكاشفات العرفانية يرى أنه لا غنى للإنسان السالك بأحد الطريقين عن الآخر. وقد كرّر ذلك في كتبه وأكده مرة بعد أخرى ، فأصرّ على ضرورة الجمع بينهما ، كما جمع هو وتفرد بهذا الجمع فبلغ ما لم يبلغه أحد من فلاسفة العصور الإسلامية. قال في المبدأ والمعاد[1] : "فأولى أن يرجع الى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء والمليّين من العرفاء" .

ثم قال متبجحاً : "فإنَّ ما تيسر لنا بفضل اللّه ورحمته وما وصلنا إليه بفضله وجوده من خلاصة أسرار المبدأ والمعاد ، مما لست أظن أن وصل إليه أحد ممن أعرفه من شيعة المشائين ومتأخريهم ، دون أئمتهم ومتقدميهم كأرسطو ومن سبقه ولا أزعم إن كان يقدر على إثباته بقوة البحث والبرهان شخص من المعروفين بالمكاشفة والعرفان من مشايخ الصوفية من سابقيهم ولاحقيهم" .

إذن ، لا المشاؤون بعد أرسطو بلغوا ما بلغه بالمكاشفة ، ولا الإشراقيون والعرفاء بلغوا ما بلغه بالبحث والبرهان. فهو المتفرد بالجمع بين مسلك الطائفتين والتوفيق بينهما .

---

(١) ص ٢٧٨.

ثم قال ليؤكد سر تفوقه في منهجه: "وظني أنَّ هذه المزية إنما حصلت لهذا العبد المرحوم من الأمة المرحومة، من الواهب العظيم والجواد الرحيم، لشدة اشتغاله بهذا المطلب العالي وكثرة احتماله من الجهلة والأرذال وقلة شفقة الناس في حقه وعدم التفاتهم إلى جانبه، حتى أنه كان في الدنيا مدة مديدة — وكأنه يشير إلى دور العزلة — كئيباً حزيناً ما كان له عند الناس رتبة أدنى من آحاد طلبة العلم، ولا عند علمائهم الذين أكثرهم أشقى من الجهال قدر أقل تلاميذهم".

وصرح هو مرّة في الأسفار[١] بجمعه بين الطريقين إذ علّل اختلافه مع بعض المشايخ الصوفية في بعض أقوالهم فقال: "لأن من عادة الصوفية الاقتصار على مجرد الذوق والوجدان فيما حكموا عليه وأما نحن فلا نعتمد كل الاعتماد على ما لا برهان عليه قطعياً، ولا نذكره في كتبنا الحكمية".

ولم يزل يشنّع على من يستعمل أحد المسلكين دون الآخر، كقوله في مفاتيح الغيب[٢] ومثله في الأسفار[٣]: "ولا تشتغل بترهات الصوفية ولا تركن إلى أقاويل المتفلسفة، "وهم الذين إذا ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٤] وقانا اللّه وإياك — يا خليلي — من شر هاتين الطائفتين ولا جمع بيننا وبينهم طرفة عين".

---

(١) ٤ : ١٦١.

(٢) ص ٣.

(٣) ص٤.

(٤) غافر ٤٠ : ٨٣.

بل عبّر في مقدمة تفسير الفاتحة عن الطائفة الأولى بالمبتدعين المضلّين، وعن الثانية بالمعطّلين الضالّين. ثم قال: "لأنَّ كلهم من أولياء الشياطين وأبناء الظلمات وأهل الطاغوت".

إذن فلسفته التي يدعو إليها ويلحف فيها هي الجمع بين طريقة المشائين وطريقة الإشراقيين والتوفيق بينهما لم يعرف له نظير فيها.

وعلى ذلك تبتني مدرسته العلمية في تعليمه وإرشاده لأبنائه الروحانيين، ولأجلها ألّف معظم كتبه لاسيما الأسفار إذ قال في مقدمته[١]: "قد اندمجت فيه العلوم التألهية في الحكمة البحثية، وتدرعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التعليمية، ولا يجد غنى للسالك بإحدى الطريقتين عن الأخرى، كما تقدم.

وهذه في الحقيقة مدرسة جديدة للفلسفة الإلهية لم يعهد لأحد قبله سلوكها والدعوة إليها صراحة، إلاّ ما قد يظن في أستاده السيد الداماد، فيكون عنه أخذها فجلاّها وبين معالمها فإن لم يكن هو المؤسس المجدد فهو الموضّح لها المشيّد لأركانها المعلن بها.

ثم - بعد هذا - يرى أنَّ الشرع والعقل متطابقان في جميع المسائل الحكميات[٢]. وأعقب هذا التصريح بقوله: "حاشا الشريعة الحقة الإلهية البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية. وتباً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة".

---

(١) آخر صفحة ٣.

(٢) الأسفار ٤: ٧٥.

وهذه مدرسة أخرى له في المعرفة، وهي التوفيق بين الشرع الإسلامي وبين الفلسفة اليقينية. وعلى هذا لم يفتأ يستشهد على كل مسألة حكمية عويصة بالآيات القرآنية والآثار الإسلامية، وهو بارع حقاً في تطبيق ما يستشهد به على فلسفته.

والحق أنه في هذه المدرسة مؤسس مجدد أيضاً، لم نعرف له نظيراً فيها.

وحاشا أن يكون استشهاداته بالأدلة السمعية –كما يسميها– رياءً لغرض دفع عادية المتهمين له بالخروج على الشرع بل هو دائماً يتبجح بأنه لا يرى أحداً يفهم أسرار القرآن الكريم والسنة المطهرة كما يفهمها هو ويبالغ في التوفيق بين فلسفته والدين مبالغة تجعله أبعد ما يكون عن الرياء والدجل، حتى يكاد أن يجعل كتبه الفلسفية تفسيراً للدين، وكتبه الدينية –كتفسير القرآن وشرح الكافي– تفسيراً للفلسفة ولذا نقول: إنَّ كتبه في التفسير وشرح الحديث هي امتداد لفلسفته.

والحاصل، إنَّ الذي نستوضحه من أسلوبه في التأليف أنَّ له فكرة واحدة يسعى إليها جاهداً في كل ما ألّف، وهي ما تلخّصها عبارته المتقدمة من "أنَّ الشرع والعقل متطابقان".

ولهذه الفكرة العميقة جزءان أو طرفان:

(الطرف الأول) تأييد العقل للشرع و (الطرف الثاني) تأييد الشرع للعقل ولكل من الطرفين جعل كتباً فكتبه الفلسفية ألّفها ويستهدف فيها تأييد ما جاء في الشرع الإسلام بالفلسفة، وكتبه الدينية ويستهدف فيها تأييد ما جاء في فلسفته للشرع.

فحق أن نعدّ كتبه الفلسفية كتباً دينية أي كلامية، ونعدّ كتبه الدينية كتباً فلسفية وهذا معنى ما قلناه آنفاً أنَّ كتبه الدينية كانت امتداداً لفلسفته.

وهو بهذا الأسلوب — من المزج بين الفلسفة والدين والتوفيق بينهما سواءً كان مصيباً أو مخطئاً — كان صاحب مدرسة جديدة أخرى هو المؤسس لها حقاً، وإن كان الواضع لبذرتها الخواجا نصير الدين الطوسي في التوفيق بين الفلسفة والكلام .

بل في الحقيقة إنَّ فيلسوفنا له مدرسة واحدة فقط، هي الدعوة إلى الجمع بين المشائية والاشراقية والإسلام، هذه العناصر الثلاثة هي أعمدة أبحاثه ومنهجه العلمي في مؤلفاته جعلت منه مؤسساً لمدرسة جديدة — بكلٍّ ما لهذه الكلمة من معنى — في الفلسفة الإلهية ويمثلها حق التمثيل من كتبه أسفاره الأربعة.

وبعد هذا وجب علينا أن نتكلم عن منهجه العلمي في مؤلفاته :

منهجه العلمي في التأليف

تبتنى فلسفته في كلٍّ ما ألّف (حتى كتبه الدينية التي قلنا أنها جزء من فلسفته وامتداد لها) على حصر العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية في العلم باللّه وبصفاته وملكه وملكوته، والعلم باليوم الآخر ومنازله ومقاماته، لانه يجد أنَّ الغاية المطلوبة — وكم يكرر ذلك في كتبه لاسيما في مقدماتها — هي تعليم ارتقاء الإنسان من حضيض النقص إلى أوج الكمال (الذي لا حد له بالنسبة إلى الإنسان خاصة من بين سائر المخلوقات) وبيان كيفية سفره الى اللّه تعالى قال في الأسفار عن كتابه[1] : غرضنا فيه بيان طريق الوصول إلى الحق، وكيفية السير إلى اللّه".

---

(١) ١ : ٩٠.

إنَّ هذا الهدف وحده يبتني عليه منهج التأليف في كتبه المطولة والمختصرة، وهو قطبها وعليه تدور رحاها، حتى كتبه الدينية التي يعنيه منها تطبيق الشرع على فلسفته، كما سبق آنفاً.

ولهذا الهدف حسب تقريره[1] ستة مقاصد: ثلاثة منها كالدعائم والأصول، وثلاثة كاللواحق وركّز مؤلفاته على الدعائم وهي:

١ — معرفة الحق الأول وصفاته وآثاره وهو (فنُّ الربوبيات) الذي هو جزء من (الفلسفة الكلية). وإذا بحث عن الفلسفة الكلية — كما في الأسفار — فالبحث عنها إنما هو عنده لهذه الغاية ليس إلا.

٢ — معرفة الصراط المستقيم، ودرجات الصعود إليه تعالى، وكيفية السلوك إليه. وهو (علم النفس) الذي هو جزء من (العلم الطبيعي). وإذا بحث عن العلم الطبيعي كما في الأسفار أيضا — فالبحث عنه لهذه الغاية عنده.

٣ — معرفة المعاد والمرجع إليه تعالى وأحوال الواصلين إليه والى دار رحمته وهو (علم المعاد).

هذه الدعائم الثلاث هي محور مؤلفاته عليها تدور، ولها تستهدف.

وأما (اللواحق) فلم يفرد لها تأليفا، وإنما يذكرها عرضاً وبالتبع في غضون أكثر مؤلفاته لأنها لواحق تلك الدعائم وهي:

١ — معرفة المبعوثين من عند اللّه لدعوة الخلق ونجاة النفس، وهم قواد سفر الآخرة ورؤساء القوافل يعني الأنبياء والأوصياء بل الأولياء.

٢ —حكاية أقوال الجاحدين وكشف فضائحهم وهم قطّاع الطريق في سفر الآخرة.

---

(١) راجع رسالة المظاهر المطبوعة على هامش المبدأ والمعاد: ٢٣٢ (منه).

٣ – تعليم عمارة المنازل والمراحل في ذلك السفر، وكيفية أخذ الزاد والراحلة له، والاستعداد برياضة المركب وعلف الدابة (ويقصد بالمركب والدابة النفس) وهو الذي يسمى "علم الأخلاق".

وهو[1] في تحصيل ذلك الهدف سلك الطريقة المتقدم ذكرها، وهي الجمع بين المشائية والإشراقية والإسلام، أي إنه يذكر الأدلة المنطقية على مطلوبه ويذكر مكاشفاته ومشاهداته العرفانية، ويستشهد بالادلة السمعية.

وهذا المنهج مسلكه في أكثر كتبه لاسيما في أمّها الأسفار نعم بعض المؤلفات خصَّه بالمسلك العرفاني، وبعضها الآخر خصَّه بالمسلك البحتي.

أما المختصة بالمسلك العرفاني فهي (الشواهد الربوبية) و(العرشية) و(أسرار الآيات) و(الواردات القلبية)، على ما بينها من الاختلاف في التطويل والاختصار وفي الأسلوب والأداء وأسماؤها تنم عن ذوقها العرفاني.

وفي خصوص الأخير (الواردات القلبية) سلك مسلك الكهّان المتحذلقين في التسجيع والتعقير وتلمس الاغراب، كأنما يريد أن يظهرها بمظهر الإلهامات الإلهية التي ورد بها آمر قلب ودفعت إليها إشارة مشير غبب – على حد تعبيره في مقدمة الشواهد[2] – فامتثل ذلك الأمر والمأمور معذور ويبدو أنه يريد أن يقول أنه يكاد أن يكون فاقداً للاختيار وأنه مجبور، فهي تشبه ان تكون عنده من نحو النصوص الدينية والأحاديث القدسية، كما يرى هو ذلك في كلمات ابن عربي، قال في مقدمة العرشية "بل هذه قوابس مقتبسة من مشكاة

---

(١) وصاحبنا ط – ن.

(٢) ص ٣.

النبوة والولاية مستخرجة من ينابيع الكتاب والسنة، من غير ان تكتسب من مناولة الباحثين ومزاولة صحبة المعلمين" .

وسلك في شرحه للهداية الأثيرية، وشرحه لإلهيات الشفا مسلك البحث الصرف، اتباعاً لطريقة المتن فيهما .

ولذا لما ندّت منه بادرة في السلوك العرفاني في شرحه للشفا اعتذر عن ذلك فقال[١] من هذا الشرح : "وليعذرنا إخوان البحث في الخروج عن طورهم تشوقاً إلى طور المكاشفة وتحنناً إلى عالم الملكوت".

ثم هو حينما يسلك الطريقين في تأليفه (لاسيما في الأسفار) يشرع أولا في البحث عن طريقة النظّار وأهل البحث، ثم يذكر مشاهداته العرفانية ومكاشفاته اليقينية، شفقة على المتعلمين كما يقول وهي عادة الفلاسفة لسهولة التعليم[٢] ثم قال في صفحة بعدها : "ونحن أيضاً سالكو هذا المنهج في أكثر مقاصدنا الخاصة حيث سلكنا أولاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثم نفترق عنهم في الغايات لئلا تنبو الطبائع عما نحن بصدده في أول الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به، ويقع في أسماعهم كلامنا موقع القبول اشفاقاً بهم" .

وفي الحقيقة إنَّ هذا المنهج العلمي هو متفرد به بل هو المؤسس لمدرسته كما قلنا. ولم يعهد كالأسفار كتاب جمع بين الطريقين بأوسع ما يمكن من الجمع والتوفيق، فاحتشدت فيه آراء الناس على اختلاف مشاربهم، ومحاسبتها حساباً

---

(١) ص: ١٦٧.

(٢) الأسفار ١ : ١٨.

دقيقاً علمياً، مع نصوع العبارة ورصانتها وسلامتها وحسن أداء المقاصد والصراحة في إيضاحها والمعهود في كتب الفلسفة الغموض والرمز والتعقيد .

فسهولة التعليم التي أشار إليها بريئة منه كتب الفلسفة المتقدمة عليه بل المتأخرة عنه. كيف ومن تعاليمهم أن يكتموا آراءهم إلاّ على فئة خاصة من تلاميذهم يفتحون لهم رموزهم، حيث يجدون منهم استعداداً لفهم مقاصدهم والاستنارة بها.

وصاحبنا هو أيضاً يوصي بهذه الوصية في كتمان مطالبه على الجلود الميتة[١] اتباعاً للحكماء الكبار أولي الأيدي والأبصار، كما يقول و لكن لم يأخذ بها في اتخاذ الرمز والتعقيد والغموض سبيلا لكتمان آرائه، لا سيما في الأسفار بل بالغ في تصوير آرائه باختلاف العبارات والتكرار حسبما أوتي من مقدرة بيانية وحسبما يسعه موضوعه من أدائه بالألفاظ وهو معبّر[٢] موهوب لعله لم نعهد له نظيراً في عصره وفي غير عصره من أمثاله من الحكماء.

وإذا كان أستاذه الجليل السيد الداماد يسمى أمير البيان، فإنّ تلميذه ناف عليه وكان أكثر منه براعة وتمكناً من البيان السهل، وإنما كان امتياز السيد باستعمال المجاز والكنايات والألفاظ المتخيرة والتسجيع ولأجله أعطي هذا اللقب (أمير البيان) وتلميذه في نظري أحقُّ به وأولى .

وإن كان هو يرى " أنَّ الحقائق لايمكن فهمها عن مجرد الالفاظ فإنَّ الاصطلاحات وطبايع اللغات مختلفة "[٣] ولقد أحسن جداً في هذا التعبير الحكيم، وتلك حقيقة واقعة معروفة . لكنه لم يدَّخر وسعاً في تقريب مقاصده

---

(١) الأسفار في المقدمة : ٤, والمبدأ والمعاد : ٤ وغيرهما (منه).

(٢) كاتب ط — ن.

(٣) الأسفار ١ : ٥١ (منه).

من مكان قريب وبعيد في كتابه الاسفار، وجاء فيه بأقصى جهد الكاتب البليغ في توضيحها، ووفق توفيقاً لم يتهيأ لمثله.

فجاء — كما قال في مقدمته —: [١] بحمد اللّه كلاماً لاعوج فيه ولا ارتياب، ولا لجلجة ولا اضطراب يعتريه، حافظاً للأوضاع. رامزاً مشبعاً في مقام الرمز والإشباع قريباً من الإفهام في نهاية علوّه، رفيعاً عالياً في المقام مع غاية دنوّه.

ثم قال: "واستعملت المعاني الغامضة في الألفاظ القريبة من الأسماع" ثم قال : "انظر بعين عقلك إلى معانيه هل تنظر فيه من قصور ثم أرجع البصر كرّتين إلى ألفاظه هل ترى فيه من فطور؟

وفي الحقيقة إنَّ كتابه "الأسفار" حقيق بهذا الوصف، لاسيما قوله فيه: "قريباً من الأفهام في نهاية علوه"، فانَّ قربه من الأفهام باعتبار سهولة عبارته ورصانتها ونهاية علوه باعتبار ما حوى من الآراء الدقيقة والأفكار العالية التي هي في مستوى كبار العلماء المنتهين، فانه كما قال في المبدأ والمعاد: "وإنا عملنا لمن له فضل قوة لتحصيل الكمال على وجه أبلغ وأوفر كتاباً جامعاً لفنون العلوم الكمالية التي هي ميدان لأصحاب الفكر، وفيها جولان لأرباب النظر، سمّيناه الأسفار الأربعة" [٢].

مؤلفاته[٣]

قد سبق الكلام مستوفىً عن منهج تأليفه ولم يؤلف شيئاً — فيما نعلم — في غير الفلسفة، حتى كتبه في التفسير — كما قلنا — هي امتداد لفلسفته، لأنه

---

(١) آخر ص٣.

(٢) ص ٣.

(٣) مقدمة كتاب الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة لملا صدرا، الجزء الأول، طبعة طهران.

يرى أن ليس للرجل الإلهي الاشتغال بغير العلوم الحقيقة المحضة، وهي التي يسمّيها العلوم الكلية ونقد الشيخ الرئيس أشدَّ نقد[١]، إذ كان يشتغل بالعلوم الجزئية كالطب ونحوه وكم نقد المشتغلين بغير الحكمة من العلوم والفنون، كما هو جليّ في خلال كلماته.

وقد وفقت كلُّ كتبه أو أكثرها للطبع على الحجر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن[٢]، على الرغم من المقاومة العنيفة لفلسفته والعداء لها. ونحن الآن نعدّها جميعاً حسبما وصل اليه بحثنا الميسور :

١ - (الأسفار الأربعة) ويسميها أيضاً (الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية) وقد سبق منا في البحث المتقدم ما يجلّي قيمته العلمية. وقلنا هناك : إنه الأم لباقي مؤلفاته، والقمَّة لجميع كتب الفلسفة قديمها وحديثها، والأول من مؤلفاته في المرحلة الثالثة من حياته العلمية .

كما إنه الأول من كتبه الذي تناولته المطابع بالنشر، فإنه طبع في إيران على الحجر في أربعة مجلدات كبار سنة ١٢٨٢هـ.

مجموعها يقع في ٩٢٦ صفحة بالقطع الكبير[٣] بحاشية الحكيم الحاج المولى هادي السبزواري على ثلاثة مجلدات منه. وقد حظى هذا الكتاب بتسع حواش قيمة ذكرها في الذريعة[٤].

---

(١) الأسفار ٤ : ١٢٧.

(٢) طبعت المؤلفات بعد ذلك بعناية واهتمام المعنيين طبعات جميلة متعددة : ٤٧.

(٣) هكذا سجل في آخر السفر الرابع في التعليقة. وفي آخر السفر الأول سجل أنه طبع سنة ١٢٢٢هجرية وهو غلط. لأن المعلق وهو الحكيم السبزواري تولده كان سنة١٢١٢هـ فهل كتب تعليقتيه وطبعت وهو ابن عشر ؟! (منه).

(٤) ٦ - ١٩.

والسَفَر بفتحتين: مأخوذ من المسافرة (لا السِفْر بكسر وسكون بمعنى الكتاب كما تخيله بعض كتّاب العصر). شبّهها بالأسفار العقلية الأربعة التي للعرفاء كما ذكره في المقدمة وهي السفر من الخلق إلى الحق، والسفر بالحق في الحق، والسفر من الحق الى الخلق بالحق، والسفر بالحق في الخلق.

وليس معنى ذلك أنَّ مجلداته الأربعة هي طبق هذه الأسفار العرفانية، بمعنى أنَّ الأول للأول، والثاني للثاني... وهكذا. بل إنما هي صرف تشبيه تيمّناً وتفاؤلاً. ولذلك كانت محاولة تطبيقها من بعض المعلّقين محاولة غير موفقة[١].

والمجلدات الأربعة هي كما يلي:

١ — في الأمور العامة، وهو — كما قال — في النظر إلى طبيعة الوجود وعوارضه الذاتية.

٢ — في العلم الطبيعي.

٣ — في العلم الإلهي، أو المعرفة الربوبية والحكمة الإلهية.

٤ — في علم النفس من مبدأ تكوينها إلى آخر مقاماتها وهو (المعاد).

وقد ألّفه في حضرة أستاذه الداماد المتوفى سنة ١٠٤٠هـ، لانه يدعو له فيه بطول البقاء عند ذكره[٢].

بل تأليفه له كان قبل سنة ١٠١٥هـ لأنه في آخر النسخة الخطية للمبدأ والمعاد التي ستأتي الإشارة إليها انتهى منه سنة ١٠١٥هـ وفي مقدمته[٣] ذكر سبق تأليف الأسفار عليه.

---

(١) راجع تعليقة الحكيم السبزواري وبعض البيانات في هذا السبيل طبعت في حاشية تفسيره في آخر صفحة منه. (منه)

(٢) ٢: ١١١.

(٣) ص٣.

٢ — (المبدأ والمعاد) يشتمل على ٣٧٠ صفحة بالقطع المتوسط، طبع سنة ١٣١٤هـ وهو في فنين: الربوبيات والمعاد، متوسط في البيان، ينهج فيه أسلوب الأسفار في الجمع بين مسلكي أهل البحث والعرفاء وقد تقدم ما يشير انه متأخر في التأليف عنه وله نسخة خطية قديمة في مكتبة السيد محمد مشكاة المهداة إلى جامعة طهران برقم ٤٢١ وعندنا منه نسخة خطية كتبت بتاريخ ١٢٣٥هـ.

٣ — (الشواهد الربوبية) في المناهج السلوكية كتاب لطيف مرتب مختصر على طريقته العرفانية يقع في ٢٦٤ صفحة بالقطع المتوسط طبع سنة ١٢٨٦هـ . والمعروف عند أساتذة الفن إنه آخر مؤلفاته. وهو في الحقيقة خلاصة آرائه في المسائل الحكمية جمعها فيه كما أشار الى ذلك في مقدمته، وعندي أنَّ تدريسه للمبتدئين أولى بكثير من تدريس شرح منظومة السبزواري، وفي مكتبتنا نسخة خطية منه[1] كتبت بتاريخ ١٢٣٥ هـ هي والمبدأ والمعاد بخط واحد.

٤ — (أسرار الآيات) وأنوار البينات، في معرفة أسرار آيات اللّه تعالى وصنايعه وحكمه، على الطريقة العرفانية، مع تطبيق الآيات القرآنية على أكثر أبحاثه يقع في ٩٢ بالقطع الكبير طبع سنة ١٣٩١هـ وطبع مكرراً.

٥ — (المشاعر) على الطريقة العرفانية أيضاً، يقع في ١٠٨ صفحات بالقطع الصغير، طبع سنة ١٣١٥هـ طبعاً جيداً مع تعليقات وحواشي لجملة من اعلام الفلسفة.

---

(١) المعروف أن الشيخ المظفر أضيفت مكتبته إلى مكتبة جمعية منتدى النشر السابقة ولم يعرف مصير المكتبة بعد إلغاء الجمعية وكلية الفقه التابعة لها.

٦ — الحكمة (العرشية) على الطريقة العرفانية أيضاً، يقع في ٩٦ صفحة بالقطع الصغير طبع مع المشاعر المتقدم في مجلد واحد. وقد ردّ عليها وعلى المشاعر الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي.

٧ — (شرح الهداية الأثيرية) نهج فيه منهج أهل البحث فقط، تبعاً للمتن يقع في ٣٩٧ صفحة بالقطع المتوسط طبع سنة ١٣١٣هـ. والهداية تأليف الحكيم أثير الدين مفضل الأبهري من فضلاء القرن السابع الهجري قيل توفى سنة ٦٦٣هـ.

٨ — (شرح إلهيات الشفاء) نهج فيه منهج المتن، أي المنهج البحثي يقع في ٢٦٤ صفحة بالقطع الكبير طبع سنة ١٣٠٣هـ، مع إلهيات الشفاء في مجلد واحد. وهو غير كامل انتهى به إلى شرح نهاية المقالة السادسة والشفاء للشيخ الرئيس ابن سينا.

٩ — (رسالة الحدوث) مبسوطة في مسألة حدوث العالم، تقع في ١٠٩ صفحات بالقطع المتوسط طبعت سنة ١٣٠٢هـ في مجموعة تحتوي على ثماني رسائل أخرى. نذكرها بالتسلسل إلى رقم ١٧ وقد ذكرها في الأسفار في عدة مواقع منها (١ : ٢٣٣).

١٠ — (رسالة اتصاف الماهية بالوجود) تقع في ١٠ صفحات وطبعت أيضاً على هامش رسالة التصور والتصديق الآتية.

١١ — (رسالة التشخص) في ١٢ صفحة.

١٢ — (رسالة سريان الوجود) التي تظن أنها نفس رسالة (طرح الكونين) الآتية : تقع في ١٦ صفحة وهي متقدمة بالتأليف على الأسفار بدليل اشتمالها على القول بما عدل عنه في الأسفار، من نحو القول بأصالة الماهية، فانه قال

في الأسفار[١] : "إني قد كنت شديد الذب عن العرفاء في اعتبارية الوجود وتأصل الماهيات ، حتى أن هداني ربي وانكشف لي انكشافاً بيناً أنَّ الأمر بعكس ذلك" ، كما أنَّ مشربه في وحدة الوجود في هذه الرسالة لايتفق مع مشربه الأخير الذي بنى عليه في الأسفار.

١٣ — (رسالة القضاء والقدر) في ٩٠ صفحة .

١٤ — (رسالة الواردات القلبية) في ٤٠ صفحة تقدم بعض وصفها في بحث منهجه العلمي.

١٥ — (رسالة إكسير العارفين) في معرفة الحق واليقين في ٦٣ صفحة.

١٦ — (رسالة حشر العوالم) في ٣٠ صفحة . وطبعت أيضاً على هامش المبدأ والمعاد ص١٨٤ ، وعلى هامش كشف الفوائد للعلامة الحلي[٢] ، وهو المطبوع سنة ١٣١٢هـ ، قال عنها الناشر : "وظني أنها الرسالة الموسومة بطرح الكونين" وفي فهرست مكتبة السيد محمد مشكاة يذكر رسالة الحشر بهذا الاسم (طرح الكونين في حشر العالمين).

والذي يبدو لي انه ظن غير صحيح ، بدليل أنه حينما يشير في الأسفار إلى طرح الكونين[٣] يقول : "وعملنا فيه رسالة على حدة سميناها بطرح الكونين" ويريد به مطلب وحدة الوجود ، على أنه في فصول الحشر من الجزء الرابع من الأسفار لم يشر إلى هذه الرسالة ولو كانت هي نفس طرح الكونين المتقدم تأليفها على الأسفار لأشار إليها عادة.

---

(١) ١ : ١٠ (منه).

(٢) ص ٩٤ (منه).

(٣) ١ : ١٠ (منه).

١٧ — (رسالة خلق الأعمال) في ٧ صفحات وطبعت أيضاً على هامش كشف الفوائد[١] ص ٣٤٠.

١٨ — رسالته الى المولى شمس الجيلاني في بعض المسائل العويصة. وهو شمس الدين محمد الجيلاني الاصفهاني أحد تلاميذه أو معاصريه المتوفى ١٠٩٨هـ طبعت على هامش المبدأ والمعاد[٢] وفي الذريعة : "رأيته في كتب الحاج عماد الاصفهاني التي وقفها للخزانة الرضوية" .

١٩ — أجوبة المسائل الثلاث التي كان وجهها الخواجا المحقق الطوسي الى شمس الدين الخسروشاهي فلم يجب عليها. طبعت على هامش المبدأ والمعاد[٣] وشرح الهداية[٤].

٢٠ — (رسالة التصور والتصديق) في ٣٠ صفحة بالقطع المتوسط طبعت سنة ١٣١١هـ ملحقة بكتاب (الجوهر النضيد) في المنطق للعلامة الحلي.

٢١ — (رسالة في اتحاد العاقل والمعقول) وأنَّ العقل الفعال كلُّ الوجودات رأيت نسخة منها مخطوطة في المكتبة الحسينية[٥] بالنجف الاشرف في مجموعة برقم ١٤٢ الصنف السابع تقع في ٣٥ صفحة بالقطع المتوسط ، قال في الذريعة : "طبع في إيران".

٢٢ — (كسر الأصنام الجاهلية) في كفر جماعة الصوفية مذكور في جملة مؤلفاته لم أقف عليه.

---

(١) ص ١٤٩ (منه).

(٢) ص ٣٤٠ (منه).

(٣) ص ٣٧٢ (منه).

(٤) ص ٩٣ (منه).

(٥) المعروفة بـ(الشوشترية) المنقرضة حالياً وقيل أن بعض نفائسها وصلت إلى بعض المكتبات في إيران.

٢٣ – (جوابات المسائل العويصة) ذكرها في الذريعة ولعلها هي أجوبة مسائل الثلاث، أو أجوبة المسائل مظفر حسين الكاشاني، نسخة منها خطية في مكتبة السيد محمد مشكاة المهداة الى جامعة طهران برقم ١٠٣٠.

٢٤ – (رسالة حل الإشكالات الفلكية في الإرادة الجزافية) ذكرها في الأسفار[١] (١ – ١٧٦)، والحكيم السبزواري قال عنها في التعليقة: "لم نر تلك الرسالة".

٢٥ – حاشية على شرح حكمة الإشراق للسهروردي طبع سنة ١٣١٦هـ.

٢٦ – رسالة في الحركة الجوهرية.

٢٧ – رسالة في الألواح المعادية.

٢٨ – حاشية على الرواشح للسيد الداماد.

٢٩ – (شرح أصول الكافي) يقع بين ٥٠٠ و ٦٠٠ بالقطع الكبير لم يؤرخ طبعه انتهى منه إلى الحديث ٤٩٩ (باب أنَّ الأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه).

٣٠ – (رسالة المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية) طبعت على هامش المبدأ والمعاد[٢].

٣١ – (مفاتيح الغيب) يقع في ٢٠٠ صفحة تقريباً بالقطع الكبير. طبع مع شرح أصول الكافي المتقدم، وفي صدره ترجمة مختصرة للمؤلف بقلم الناشر. ألّفه مقدمة لتفسيره الآتي.

٣٢ – (تفسير القرآن الكريم) يشتمل على تفسير جملة من السور والآيات، لم يتم ويظهر انه ألّفه وكان من نيته تأليف تفسير كامل فلم يمهله

---

(١) ١ : ١٧٦ (منه).

(٢) ص٢٣٢ (منه).

القدر (راجع مقدمة تفسير سورة السجدة) طبع سنة ١٣٢١هـ أو ١٣٢٢هـ في ٦١٦ صفحة بالقطع الكبير وهو كلٌّ ما عثر عليه الناشر من تفسيره حسبما قال.

ويحتوي على تفسير (الفاتحة) في ٤١ صفحة، وتفسير (سورة البقرة) في ٢٤٨ص إلى الآية ٦٢ "كونوا قردة خاسئين" (آية الكرسي) في ٦٧ص — وله تفسير آخر فارسي لها ذكره في الذريعة — وتفسير (آية النور) في ٦٧ص، وطبع منفرداً سنة ١٣١٣هـ، وتفسير (سورة السجدة) في ٣٣ص، وتفسير (سورة يس) في ٨٦ص تم تأليفه حسبما قال في آخره سنة ١٠٣٠هـ، وتفسير (سورة الواقعة) في ٢٥ص وطبع مستقلا بقطع صغير، وتفسير (سورة الحديد) في ٤٢ص ، وتفسير (سورة الجمعة) في ٢٩ص، وتفسير (سورة الطارق) في ٩ صفحات رتبه على عشر تسبيحات وطبع أيضاً مع كشف الفوائد سنة ١٣١٣هـ، وتفسير (سورة الزلزلة) في ٧ صفحات وتفسيره آية ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً** ﴾[1] في ٣ صفحات .

٣٣ — (تفسير سورة الضحى) ذكره في الذريعة انه طبع في ضمن مجموعة تفسيره سنة ١٣٢٢هـ وإذا كان يقصد المجموعة المتقدمة — كما يبدو — فليس فيها تفسير هذه السورة.

محمد رضا المظفر

النجف الأشرف

١٨ صفر ١٣٨٧هـ

---

(١) النمل ٢٧ : ٨٨.

من المؤاخذات على صدر المتألهين[١]

كثر التشنيع على هذا الرجل بعد وفاته عند رجال الدين حتى كان اسمه ومؤلفاته مثار السخط والاشمئزاز. ويكفي أن نعرف أن الشيخ أحمد الأحسائي المتوفى سنة ١٢٤٣هـ كفّره الناس لميله إلى بعض آراء صاحبنا[٢]. ومن المفارقات العجيبة في تلك العصور أن الأحسائي نفسه كان يقول بكفر صاحبنا ويشنّع عليه. وبليّة الأحسائي كلها أنه قرأ كتبه من دون حضور على أستاذ فلم يفهمها كما يجب وكان ذكيا معتدّاً بنفسه فأصيب بداء الغرور فاشتطّ من جهته في تأثره بها عقيدة واشتطّ من جهة أخرى في بحث آرائه ناقداً. وفي كلتا الجهتين كان متورطاً.

بل صاحبنا قد لاقى من العنت في زمانه ما دفعه إلى إعلان تذمره من أهله والسخط عليهم في عدة تصريحات ثائرة عنيفة في أكثر كتبه لاسيما في مقدماتها. بل ألجأه ذلك إلى أن يهرب بنفسه فينزوي في بعض النواحي البعيدة على ما سبق ومن أمضّ التشنيعات عليه في نظري أن يقال[٣] في صدد الثناء على ولده ميرزا إبراهيم : "وهو في الحقيقة مصداق يخرج الحي من الميت ". وعلّل ذلك بأنه "كان على ضد طريقة والده[٤] في التصوف والحكمة "بينما أن الوالد هذا لا يرى في غير الحكمة والعرفان حياة للنفس الإنسانية بل من يتجرد

---

(١) أنظر الهامش رقم ١ في ص ١٩.

(٢) قصص العلماء: ٣٧ وما بعدها.

(٣) روضات الجنات: ٣٣١ .

(٤) يقصد به صاحب رياض العلماء، أنظر أعيان الشيعة (٥ : ٣٥٢) وتكملة أمل الآمل ٢ : ٢٩ : "وكان مبايناً لطريقة والده لا يعتني بالملوك، وهو ألف تلك لملك عصره ".

عن ذلك يقسو عليهم فيعبر عنهم بأهل الجلود الميتة. ومن اللازم أن نشير إلى جملة من المؤاخذات البارزة التي سجّلت عليه من قبل المترجمين له.

أحدها : رأيه في وحدة الوجود

إن الرأي المعروف بـ(وحدة الوجود)على إجماله يعتبر من سمات المتصوفين التي تدفعهم إلى الشطحات والمواجد وعلم المغيّبات وما إليها ويعد من اكبر الوصمات فيهم الملازمة لطعنهم بالكفر والزندقة. وهو يساوق — عند الناس — مقالة الحلول والتناسخ وهذه الكلمات وحدها مدعاة لإثارة الشعور بكراهية القائل بها وللاستنكار لأقواله والتسرع بنسبته إلى الكفر وإن لم تتحدد معانيها ومفاهيمها ولم تعرف العامة السر في التكفير بها.

قال الشيخ أحمد الأحسائي في شرحه للعرشية ناقداً للمولى محسن الفيض[1] : "فإذا لم يكن قوله هذا قولا بوحدة الوجود المجتمع بين العلماء على تكفير معتقدها فما القول بوحدة الوجود إذن". وموضع الشاهد نقله الإجماع على تكفير معتقد وحدة الوجود.

أما السر في التكفير بها فقد قيل : إن لازم هذه المقالة أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام وقاتله ابن ملجم مثلا ممدوحين ناجيين. وكذا موسى وفرعون والحسين عليه السلام ويزيد وهكذا الخلق كلهم سيدهم وشقيهم إما لا شقي أولا سعيد. وقيل إن لازمها أن يتصف الله تعالى بصفات الممكنات أو تتصف الممكنات بصفات الواجب أو تكون هو إياها أو هي إياه فتكون واجبة الوجود أو معبودة فتصح العبادات لفرعون والأصنام والشمس والقمر وهكذا. قال

---

(١) ص ١٢ .

الشيخ أحمد الأحسائي في شرح العرشية[١] مخاطباً للمولى محسن الفيض متهكما : "قل أنا الله ولا تخف فانك بالتصريح تستريح وتريح ".

وعلى كل حال فقد اقترنت مقالة "وحدة الوجود "بإطار من صفة المروق عن الدين والكفر والزندقة مع أن لها – كما سيأتي – عدّة معان ربما لا يكون لأحدها تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها. ولكن لا صبر للرأي العام على التفكير في ذلك والتفكيك بين المعاني وتوجيه كلام القائل بها. ولذلك كان يتحاشى صاحبنا صدر المتألهين التعبير بعبارة (وحدة الوجود) تعبيرا صريحا واضحاً. أما تلامذة مدرسته فقد بالغوا في تصوير القول بالوحدة على الوجه الذي لا يلزم منه تلك اللوازم الباطلة ولا غيرها وانه ليس المراد من الوحدة الاتحاد الذي يفهم من ظاهر الكلمة وعندهم إن هذا المعنى لا يفهمه إلا الأوحدي من الأذكياء والفضلاء. وإذا انطلى على العامة وأشباه العامة لفظ (وحدة الوجود) فذلك شأن من لا يفهم الأسرار الفلسفية فيشنّع على قائلها. وقال هو في تفسير سورة البقرة[٢] : "إن أكثر الناس يتنازعون في مسألة لا يعرفون بعد موضوعها ولا محمولها فقبل تحرير محل النزاع يخاصم بعضهم بعضا ويكفّر بعضهم بعضا "ويتندرون بقصة ذلك الشيخ محمد كاظم في الروضة الحسينية حينما كان في تعقيبه بعد صلاة الصبح يلعن بتسبيحة كاملة الملا صدرا وكل واحد من جماعة آخرين بتسبيحة كاملة منهم المولى محراب (وهو الحكيم المولى محراب علي الأصفهاني من أعلام القرن الثاني عشر). وكان هذا الحكيم صدفة جالسا إلى

---

(١) ص ١٧.

(٢) ص ٢ ، ٢٧٨.

جنبه يستمع إلى هذه التسبيحات القدسية وهو لا يعرفه – وقيل : أنه جاء متخفيا فاراً إلى كربلاء من أصفهان بعد تكفيره فيها – فقال للشيخ : لماذا تلعن هؤلاء؟ أتعرفهم؟ فقال : لأنهم يقولون بوحدة (واجب) الوجود فلم يفرق بين وحدة الوجود ووحدة واجب الوجود فقال له ببرودة دم متهكما : حق لمثلك أن يلعن من يقول بوحدة (واجب) الوجود حتى لا ينتشر هذا الاعتقاد.

وسواء صحّت هذه القصة الطريفة أم لم تصح فإنها ترمز عندهم إلى عدة أشياء (منها) عدم تمييز العامّة للواضحات واضطهادهم للحكماء بما لا يعرفون و(منها) اللوم على الحكماء أن يصرّحوا بما لم تتحمله عقول العامة ويحق عليهم اللعن من هذه الجهة و (منها) إن القول بوحدة الوجود الذي يذهب إليه هؤلاء العرفاء راجع في الحقيقة إلى القول بوحدة واجب الوجود. أي إن التوحيد الحقيقي الذي لا يشاب بالشرك لا يصح إلا إذا قلنا بوحدة الوجود لان التوحيد توحيد بالعبادة وتوحيد في الخلق وتوحيد في الوجود. ويعبر عنه صدر المتألهين في كثير من المواقع بالتوحيد الخاص أو التوحيد الأخص. فإذا كان التوحيد كفراً فعلى الإسلام السلام. بل يقولون : إذا نفينا وحدة الوجود التي يفسّرها صدر المتألهين يلزمنا القول بالشرك في الحقيقة. وهو دائما يقول : إنما الناس يعبدون أصناما ينحتونها بأوهامهم ويستشهد[1] بكلام لإمامنا الباقر عليه السلام : "كل ما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مصنوع مثلكم مردود عليكم".

ولأجل أن نجلّي غرض صدر المتألهين وتلاميذ مدرسته في هذا الباب نقول : إن الأقوال في المسألة يمكن تصويرها في ثلاثة وجوه :

١ – تعدد الوجود والموجود وهذا هو الذي يتصوره عموم الناس.

---

(١) راجع تفسير الفاتحة : ١٠ وغيرها (منه).

٢ – وحدة الوجود والموجود وأن التعدد الذي يبدو للعامة في الوجود والموجود إنما هو تعدد ظاهري مجازي وفي الحقيقة لا تعدد لكل منهما. وهذا هو المذهب المنسوب إلى المتصوفة الذي قال عنه الأحسائي أن العلماء مجمعون على تكفير معتقده باعتبار أنه يفهم منه الحلول أو الاتحاد بين الخلق والمخلوق.

٣ – وحدة الوجود وتعدد الموجود. وهو المنسوب إلى بعض المتألهين كما حكاه في الأسفار[١] وردّ عليه من عدة وجوه ولكنه نفسه في رسالة سريان الوجود يظهر منه الميل إليه ومن هنا نستظهر أن هذه الرسالة ألفها في مرحلته الأولى من حياته العلمية. قال فيها[٢] عن الممكنات : "فهي موجودات متعددة متكثرة في الخارج ولها كثرة حقيقية عينية فالوجود واحد والموجود متعدد متكثر". هذه الاحتمالات الثلاثة المتصورة كل واحد منها به قائل ولم يبق إلا الاحتمال الرابع وهو (تعدد الوجود ووحدة الموجود) فليس به قائل لوضوح استحالته.

أما الذي استقر عليه رأي فيلسوفنا في كتاب الأسفار وغيره فلا يتفق مع تلك الأقوال الثلاثة كلها بل إن لم يكن قولا رابعا فهو جمع بين الأقوال، يعني أنه يقول إن الاحتمالات الأربعة كلها صحيحة ويجب القول بها جمعا. فإن الذي يراه أن الوجود متعدد حقيقة وكذا الموجود متعدد حقيقة ولكنه في عين الحال الوجود واحد حقيقة والموجود أيضا واحد حقيقة فإن شئت قلت بتعدد الوجود والموجود أو بوحدة الوجود والموجود أو بوحدة الوجود وتعدد الموجود أو بتعدد الوجود ووحدة الموجود فكله صحيح ولكن بشرط الجمع

---

(١) ١ : ١٦.

(٢) ص ١٣٨.

بين هذه الأقوال كلها. وهذا من العجيب حقا ويبدو أنه متهافت متناقض غير أنه يصرّ عليه كل الإصرار ويقول أن فهمه يحتاج إلى فطرة ثانية.

ويرتفع التهافت الظاهر بأن يكون معنى الوجود متعددا حقيقة أنها الحقيقة في قبال المجاز اللغوي ومعنى أن الوجود واحد حقيقة أنها الحقيقة في قبال المجاز العرفاني. قال في المبدأ والمعاد[١] : "ليس إطلاق الوجود على ما سوى الله مجازا لغويا بل مجازا عرفانيا عند أهل الله".

ولكن يجد "أن العبارة قاصرة عن أداء هذا المقصد لغموضه ودقة مسلكه وبعد غوره فيشتبه على الأذهان ويختلط عند العقول. ولذا طعنوا في كلام الأكابر بأنه مما يصادم العقل الصريح والبرهان الصحيح"[٢].

ونكتة الغموض في هذا المسلك وبعد غوره أنه يرى أن الوحدة في الوجود والموجود عين الكثرة والكثرة فيهما عين الوحدة. وهذا هو معنى المجاز العرفاني في التعدد لا "إن هويات الممكنات أمور اعتبارية محضة وحقائقها أوهام احتمالات لا تحصل لها إلا بحسب الاعتبار"[٣]. فإن هذا هو ليس معنى المجاز الذي يراه.

ولما كانت الوحدة عين الكثرة فإن الظاهريين لما نظروا إلى الوجود والموجود بعين واحدة وهي اليسرى واقتصروا عليها رأوا الكثرة والتعدد. والمتصوفون لما نظروا إليهما بعين ثانية وهي اليمنى واقتصروا عليها رأوا الوحدة ولم يروا سوى الله "أما الكامل الراسخ فهو ذو العينين السليمتين :

---

(١) ص ١١٤.

(٢) ١ : ١٩١.

(٣) نفس المصدر : ١٩٠.

ويعلم أن كل ممكن زوج تركيبي له وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فبالعين اليمنى ينظر إلى وجه الحق — أي وجه ربه — فيعلم أنه الفائض على كل شيء والظاهر في كل شيء فيعود إليه كل خير وكمال وفضيلة وجمال. وبالعين اليسرى ينظر إلى الخلق — أي وجه نفسه — ويعلم أنه ليس له حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ولا شأن إلا قابلية الشؤون والتجليات وفي ذواتها أعدام ونقائص قائلا لسان مقاله طبق لسان حاله :

رّق الزجاج ورقت الخمر — فتشابها وتشاكل الأمر

فكأنه خمر ولا قدح — وكأنه قدح ولا خمر[١]

والسر في ذلك : "أن الوجودات وإن تكثرت وتمايزت إلا من أنها مراتب تعينات الحق الأول وظهورات نوره وشؤونات ذاته. لا أنها أمور مستقلة وذوات منفصلة" [٢]. باعتبار أنها معلولة للحق الأول والمعلول طور من أطوار العلة وشأن من شؤونها "فالوجود الحقيقي ظاهر بذاته بجميع أنواع الظهور ومظهر لغيره وبه تظهر الماهيات وله ومعه وفيه ومنه. ولولا ظهوره في ذوات الأكوان وإظهاره لنفسه بالذات ولها بالعرض لما كانت ظاهرة موجودة بوجه من الوجوه بل كانت باقية في حجاب العدم وظلمة الاختفاء" [٣].

ويستشهد دائما بكلمات أمير المؤمنين عليه السلام لأداء هذا الغرض كقوله : " هو مع كل شيء لا بمقارنة — وفي كلمة أخرى لا بممازجة — وغير

---

(١) البيتان للسهروردي ورجّح البعض أنهما للصاحب بن عباد، المصدر السابق: ١٩٦.

(٢) كذلك: ١٦.

(٣) كذلك: ١٥.

كل شيء لا بمزايلة — وفي حكمة أخرى — لا بمباينة "لأن وجوده منبسط على جميع الكائنات وجميع الموجودات إنما هي رشحات نوره وإن كان كل موجود بحدوده العدمية وبقيوده الإمكانية غير الله تعالى. ويضرب لذلك أمثلة في الأسفار لتقريب هذا المعنى يطول ذكرها كتقريبه بانبساط نور الشمس على المرئيات وبصورة المرآة وبأمواج البحر.

وعلى كل حال ففيلسوفنا يتفق مع القائلين بتعدد الوجود والموجود من دون تجوز. ولكن "لما كان كل وجود معلولا فهو في حد ذاته متعلق بغيره ومرتبط به فيجب أن تكون ذاته الوجودية ذاتا تعلقية ووجوده وجودا تعلقيا لا بمعنى أنه شيء وذلك الشيء موصوف بالتعلق بل هو بما عين معنى التعلق بشيء " [١]. إلى أن يقول: "ولا يمكن للعقل أن يشير في المعلول إلى هوية منفصلة عن هوية موجده حتى تكون هناك هويتان مستقلتان في الإشارة العقلية إحداهما مفيضة والأخرى مفاضة ".

ويتفق أيضا مع المتصوفة في القول بوحدة الوجود والموجود من دون تجوز ولكن لا بأن يفهم من ذلك الحلول والاتحاد لأن ذلك معناه الاثنينية في أصل الوجود ولا بأن يفهم أن الممكنات اعتبارات محضة. كيف "وإن لكل منها آثاراً مخصوصة وأحكاما خاصة ولا نعني بالحقيقة إلا ما يكون مبدأ أثر خارجي ولا نعني بالكثرة إلا ما يوجب تعدد الأحكام والآثار فكيف يكون الممكن لا شيئاً في الخارج ولا موجود فيه" [٢].

---

(١) تفسير الفاتحة: ١٥.

(٢) الأسفار ١: ١٩٠.

والحاصل "إذا ثبت تناهي سلسلة الموجودات الى حقيقة واحدة بسيطة ظهر أن لجميع الموجودات حقيقة واحدة – هي الموجدة لها – ذاته بذاته وجود وموجود وموجد. فهو الحقيقة والباقي شؤونه."[١]

فهذا معنى وحدة الوجود والموجود: أن الوجود والموجود المستغني بذاته واحد لا شريك له وهو الذي يصدق عليه أنه وجود وموجود وموجد بنفس ذاته لا بجعل جاعل وليس هو إلا الواجب تعالى. وما سواه فهو محض الفقر والفاقة والتعلق والارتباط بالواجب لا استقلال له في الوجود وهذا معنى المجاز العرفاني.

وفي الحقيقة ليس هذا قولا بوحدة الوجود ولا ينبغي التعبير عنه بوحدة الوجود كما لم يعبر هو وإنما هو قول بالتوحيد الخالص الذي يسميه التوحيد الخاص أو الأخصي ولسنا أعداء لكلمة "التوحيد" بل أعداء "الاتحاد".

قال في المشاعر[٢]: "إياك أن تزل قدمك من استماع هذه العبارات وتتوهم أن نسبة الممكنات إليه تعالى بالحلول أو الإتحاد ونحوهما هيهات! إن هذه تقتضي الأثنينية في أصل الوجود".

وإذا سلّم صاحبنا في هذه المؤاخذة فكل مؤاخذة أخرى يهون أمرها وليس الإنسان معصوما من الخطأ إلا من خصه الله برحمته من الأنبياء وأوصيائهم وإن ظنّ في نفسه وفي العرفاء أهل الأرصاد العقلية العصمة أو شبهها فسيأتي بعض حسابهم.

---

(١) تفسير الفاتحة: ١٥ .

(٢) ص ٨٣ .

ثانياً : رأيه في ابن عربي

يُكثِر من النقل عن محي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ في جميع كتبه ولا يذكره إلا بالتقديس والتعظيم كالتعبير عنه بالحكيم العارف والشيخ الجليل المحقق ونحو ذلك. بل في بعض المواضع ما يشعر بأن قوله عنده من النصوص الدينية التي يجب التصديق بها ولا يحتمل فيها الخطأ.

هذا رأيه فيه بينما إن ابن عربي هذا سمّاه بعض الفقهاء بمميت الدين أو ماحي الدين[١] بل قيل : "إن كل من يرى في ابن عربي حسن اعتقاد ويعتقد بآرائه فإن الفقهاء لابد أن يعدوه كافرا "[٢]ولئن دافع عنه القاضي السيد نور الدين التستري في مجالس المؤمنين وأوّل كثيرا من كلماته فإن صاحب الروضات[٣] لم يرضه ذلك وقال :"لو كان الأمر كذلك لما بقي على وجه الارض كافر ولا هالك".

وكأن صاحبنا صدر المتألهين إستشعر هذه المؤاخذة عليه فأعتذر عن ذلك في شرحه لاصول الكافي الذي له قراء مخصوصون غير كتبه الفلسفية فقال في مقدمته[٤] :"وليعذرني إخواننا أصحاب الفرقة الناجية[٥]ما أفعله في إثناء الشرح وتحقيق الكلام وتبيين المرام من الاستشهاد بكلام بعض المشايخ

---

(١) روضات الجنات للخونساري: ٧٠٥. وأظن أن السر في ذلك قوله بوحدة الوجود وإعلانه لها وتقديسه لبني أمية وأضرابهم وتصحيح أعمال يزيد بن معاوية ونحوه.

(٢) قصص العلماء : ٢٥٢.

(٣) ص٧٠٥.

(٤) ص٥.

(٥) من هذه العبارة نستشعر جهة المؤاخذة عليه في اعتماده على ابن عربي.

المشهورين عند الناس وإن لم يكن مرضي الحال عندهم نظراً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام : لا تنظر إلى من قال وأنظر الى ما قال "وطبعا لم يقصد ببعض المشايخ غير ابن عربي لأنه لا يستشهد بكلام غيره من مشايخ الصوفية إلا نادراً جداً.

ولكن هذا الاعتذار وتبريره بقول أمير المؤمنين عليه السلام لم يرفع المؤاخذة عليه في الاستشهاد بكلامه لأنه — أولاً — لم يعتذر عنه في كتاب آخر و — ثانياً — حينما يخالفه في الرأي كثيراً ما يحاول توجيه كلامه على الوجه الذي يليق به إكباراً له بإعتباره من أعاظم الآلهيين القديسين عنده خذ مثالاً لذلك مخالفته في مسألة علم الله فإنه استعظم عليه أن يقول بثبوت المعدومات[١] فقال في الأسفار معتذراً عنه وذكره بلفظ الجمع باعتباره الممثل لطائفة مشايخ الصوفية : "لكن لحسن ظننا بهؤلاء الأكابر لما نظرنا في كتبهم ووجدنا منهم تحقيقات شريفة مطابقة لما أفاضه الله على قلوبنا مما لا شك فيه حملنا ما قالوه ووجهنا ما ذكروه حملاً صحيحاً ووجهاً وجيهاً..." ثم ذكر توجيهه لقوله.

وهذا الاعتذار عنه يجعل الاعتذار عن الاستشهاد بأقواله لا قيمة له في نظر من يرى في ابن عربي مميتاً للدين أو ماحيا له.

وأعظم من ذلك أنه في مسألة حدوث العالم في السفر الثاني من الأسفار يذكر فصلاً فيه بعنوان "فصل في نبذ من كلام أئمة الكشف والشهود من أهل هذه الملة البيضاء في حدوث العالم"[٢]. ولا يذكر في هذا الفصل إلا كلمات

---

(٣) راجع الأسفار ٣ : ٣٧. والمبدأوالمعاد : ٦٨.

(٢) ص ١٧٦.

لأمير المؤمنين عليه السلام ثم يقول: "وأما كلام أهل التصوف والمكاشفين "فينقل عبارات لابن عربي فقط وحينما يختمها يقول: "إنتهى كلامه الشريف".

فعده من أئمة الكشف والشهود وجعله في صف أمير المؤمنين عليه السلام ووصف كلامه بالشريف يجعله أعظم من أن يصح فيه الاعتذار بأنه (لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قيل". وهو — بعد — لا يجعل أحداً من الفلاسفة في رتبته حتى الشيخ الرئيس والشيخ نصير الدين الطوسي. فإنه لا يتأخر عن نقدهما ولا يتحرج من تفنيد آرائهما دون ابن عربي. وقد سمعت كيف كان يتحاشى من مخالفته ويوجه كلامه. وإذا خالفه في بعض نكات البحث فإنه يرقق العبارة بما لا يوجب طعناً فيه[1] إلى الضد من مخالفته للشيخين الرئيس والطوسي.

وأكبر الظن أن الذي أخذ بمجامع قلب صاحبنا صدر المتألهين من هذا الشيخ إعجابه بآرائه في الوجود التي قال عنها كما تقدم: "لما نظرنا في كتبهم وجدنا منهم تحقيقات شريفة مطابقة لما أفاض الله على قلوبنا" وتغافل عن آرائه الأخرى التي يختلف معه فيها أو لم يطلع على أبعد الفروض. وفي الواقع لا يريد من التعبير بكتبهم إلا هذا الشيخ وتلاميذه. ولا يريد من التحقيقات إلا آراءه في الوجود وأحكام الموجودات التي هي — أعني — هذه الآراء — سر فلسفة صاحبنا في جميع مذهبه العرفاني. قال في المشاعر[2] "ولما كانت وحدة الوجود رأس القواعد الحكمية ومبنى المسائل الإلهية والقطب الذي تدور عليه رحى علم التوحيد وعلم المعاد وحشر الأرواح والأجساد وكثير مما تفردنا به

---

(١) راجع الأسفار ٤ : ١٦١ — ١٦٦.

(٢) ص ٥ .

باستنباطه وتوحدنا باستخراجه فمن جهل بمعرفة الوجود يسري جهله في أمهات المطالب ومعظماتها والذهول عنها ".

وكم يتبجح في كل مناسبة أنها لم تنفتح لغيره من ذوي الأبحاث النظار كالشيخ الرئيس وأضرابه وفي جنب ذلك يستشهد بكلام ابن عربي لتأييد آرائه. قال في الأسفار[١] "إن هذه الدقيقة وأمثالها من أحكام الموجودات لا يمكن الوصول إليها إلا بمكاشفات باطنية... ولا يكفي فيها القواعد البحثية..." ثم قال بعد صفحة عن الشيخ الرئيس: "والعجيب أنه كلما انتهى بحثه إلى تحقيق الهويات الوجودية دون الأمور العامة تبلد ذهنه وظهر منه العجز".

وفي موضع آخر من هذا السفر[٢] يقول: — ويعني نفسه — "إني أعلم من المشتغلين بهذه الصناعة من كان رسوخه بحيث يعلم من أحوال الوجود أسراراً تقصر الأفهام الذكية عن دركها ولم يوجد مثلها في زبر المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والعلماء ولله الحمد وله الشكر ".

وبالطبع لا يقصد بزبر المتأخرين ما يشمل زبر ابن عربي كيف وهو لا يفتر من الاستشهاد بأقوال هذا الشيخ في أكثر هذه المجالات تأييدا لآرائه.

ثالثاً: موقفه مع الفقهاء

من الأمور التي سجلت على فيلسوفنا تحامله على الفقهاء وتوهينه لهم بل على كل من اشتغل في العلوم عدا من لهم رسوخ في الحكمة العرفانية.

---

(١) ٤ : ١٢٤.

(٢) ص ١٣٠.

قال صاحب المستدرك[1] : "قد أكثر في كتبه من الطعن على الفقهاء وحملة الدين وتجهيلهم وخروجهم من زمرة العلماء ".

والحق أن صاحبنا تجاوز الحد في الشكوى الثائرة والنقد القاسي الذي لا يطاق[2].

وفي تفسيره[3] حينما بحث عن مسألة انقطاع العذاب واستشعر مخالفة كلامه لإجماع الفقهاء أخذ يقارن بين أصحابه أصحاب الشهود والعرفان وبين الفقهاء فالفقهاء عنده وإن كانوا عالمين بأحكام الله إلا أنهم في معرفة الذات والصفات والأفعال الآلهية كباقي المقلدين من المؤمنين بخلاف أهل التوحيد الشهودي.

ثم يطلب من خصومه — وهم الفقهاء — ألا يظن أحد منهم في أهل التوحيد الشهودي "أن ورعهم في أمور الدين واحتياطهم في عدم القول في مسألة شرعية بمجرد الظن والتخمين يكون أقل من ورع غيرهم واحتياطهم. هيهات ! هذا من بعض الظن ".

ثم يأخذ بالثناء على أهل التوحيد الشهودي بما يرفع من ضبعهم ثم يقيسهم بغيرهم — وهم الفقهاء — فيقول : "وأنى يوجد لغيرهم ما كان لهم. وهم في الحقيقة أولياء الله وقوام الدين وفقهاء شريعة سيد المرسلين.

وهنا حتى كلمة "الفقهاء" يريد أن يسلبها من علماء الفقه ويعطيها لأصحاب الشهود.

---

(١) ج٣.

(٢) راجع الرسائل الثمان له ص٢٥٨ في رسالة الواردات القلبية .

(٣) تفسير آية الكرسي : ٣٥٢.

وزاد على ذلك حتى جعل كل آية قرآنية وكل حديث نبوي في مدح المؤمنين مختصا بأهل الشهود التوحيدي إلى أن يقول: "فالقدح من أحد فيهم في مسألة اعتقادية دينية يدل على قصور رتبة القادح وسوء الفهم وقلة إنصافه". وأكد اختصاص صفة "المؤمنين" بالعرفاء في أسرار الآيات(١) بل لا يرى للفقهاء شأنا في المعرفة والعلم والدين إذ هو من جهة ينقد هم في تعظيمهم للفقه ولا يرى من الجدير بالإنسان أن يصرف عمره فيه ومن جهة ثانية ينقد تهاونهم بالحكمة والفلسفة وأهلها مع ما يشكوه مرّ الشكوى في تحقيرهم له(٢) "إذ ما كان له عند الناس رتبة أدنى من آحاد طلبة العلم ولا عند العلماء الذين أكثرهم أشقى من الجهلاء قدر أقل تلاميذهم". وما أقسى كلمته عنهم: "أكثرهم أشقى الجهلاء".

ولا ندري هل أن تحامل بعضهم عليه في مبدأ أمره هو الذي دفعه إلى تعميم هذا النقد القاسي أو أن تحامله عليهم هو الذي دفعهم إلى نقده وتوهينه.

وعلى كل حال فهو لم يختص بنقد الفقهاء بل تجاوز إلى نقد جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وطرقهم من الحكماء أصحاب البحث والمتكلمين إلى المتصوفين والأطباء وعلماء اللغة والمؤرخين. بل اعتبر جميع الناس هالكين وأن الإيمان الحقيقي في غاية الندرة بل لا يوجد في كل عصر إلا واحد أو اثنان(٣) بل عنده أكثر أهل الإسلام ظاهراً أهل الكفر والشرك باطناً.

---

(١) ص٧.

(٢) المبدأ والمعاد: ٢٧٨.

(٣) أسرار الآيات: ٧.

ولم يرض أن يشتغل أحد بغير الحكمة العرفانية وكل ما عداها علوم جزئية غير ضرورية والاشتغال بها مضيعة للعمر وابتعاد عن الوصول إلى النعيم الدائم فنقد ابن سينا [١] في اشتغاله بالعلوم الجزئية كاللغة ودقائق الحساب وفزارنماطيقي وموسيقى وتفاصيل المعالجات في الطب وذكر الأدوية المفردة والمعاجين وأحوال الدرياقات والسموم والمراهم والمسهلات ومعالجة القروح والجراحات.

وكأنه إنما يعدد كل هذه التفاصيل لأجل توهينه في نظر القارئ وتسخيفها باعتبارها أموراً غير ضرورية والاشتغال بها اشتغال بأمور الدنيا وحبائلها مع أن ابن سينا في نظره "يجب أن يكون معرضاً عن الخلق طالباً للخلوة آنسا بالله آيساً عن غيره".

ومن تهكماته بالمشتغلين بغير الحكمة العرفانية قوله في أسرار الآيات[٢] : "إن كنت من أهله وإلا فغضّ بصرك عن مطالعة هذا الكتاب — يعني أسرار الآيات — والتدبر في غوامض القرآن. وعليك بممارسة القصص والأخبار والروايات وعلم السير والأنساب وتتبع العربية واللغة وتحمل الرواية من غير دراية وما هو عندك كالنتيجة للكل — يعرض بما هو يذكره الفقهاء في علم الأصول من لزوم دراسة بعض العلوم مقدمة للفقه — من البحث في المسائل الفرعية الخلافية ونوادر تفريعات الطلاق والعتاق والسلم والرهن والإجارة وقسمة المواريث...".

---

(١) الأسفار ٤ : ١٢٧.

(٢) ص٦٥ .

إلى أن يقول: "وقد نصب الله لها كسائر الأمور التي هي أدون منزلة منها أقواماً يعظمون الأمر فيها ويصرون عليها ويفرحون بها. وكل حزب بما لديهم فرحون قيمة كل امرئ على قدر همته".

وهكذا ينقم على الفقهاء علمهم كما ينقم على غيرهم ولا يرضى بغير الحكمة علما وبغير الحكماء علماء.

وهذا كله غلو مفرط في فلسفته ولا لوم على الفقهاء ولا على غيرهم إذا كان عندهم موضع التهمة والتجريح وفي الحقيقة لم يقسوا عليه كما قسا هو عليهم.

وإذا أردنا أن نأخذ برأيه كله في هذا الباب لوجب أن نعطل جميع المعارف والعلوم وجميع الأعمال والمكاسب وجميع الأمور المدنية ليبقى الإنسان معتكفاً في الكهوف منتظراً للواردات القلبية والمشاهدات العقلية فيكون — على تعبيره — صوفياً صفا قلبه وخلص ضميره من كل شوب وغرض.

كان المنتظر من صاحبنا — كفيلسوف خبر النفس الإنسانية ومتطلباتها — أن تكون نظرته إلى الإنسان الاجتماعي بالطبع غير هذه النظرة الأنانية المتشائمة. والمنتظر منه — كمسلم عرف الشريعة الإسلامية وما وضعت للبشر من تكاليف وأنظمة وقوانين — أن يكون حكمه على الإنسان غير هذا الحكم الرهباني الذي ما أنزل الله به من سلطان.

وعلى كل حال فإنه — وهو يعرف أن كل إنسان ميسر لما خلق له كما كرر ذلك في كتبه — كان يجب أن تكون نظرته إلى أفراد الناس أكثر تقديراً للواقع وإنصافاً في الحكم وحباً في الخير ولا يبرر تحامله على الناس ذلك التحامل القاسي أنه لاقى عنتا منهم أشرقه بريقه فإن هذا ليس من شيمة العلماء الإلهيين الذين يتطلبون صلاح البشر وهدايتهم إلى الله تعالى فلا ينبغي أن ينتقم لنفسه منهم.

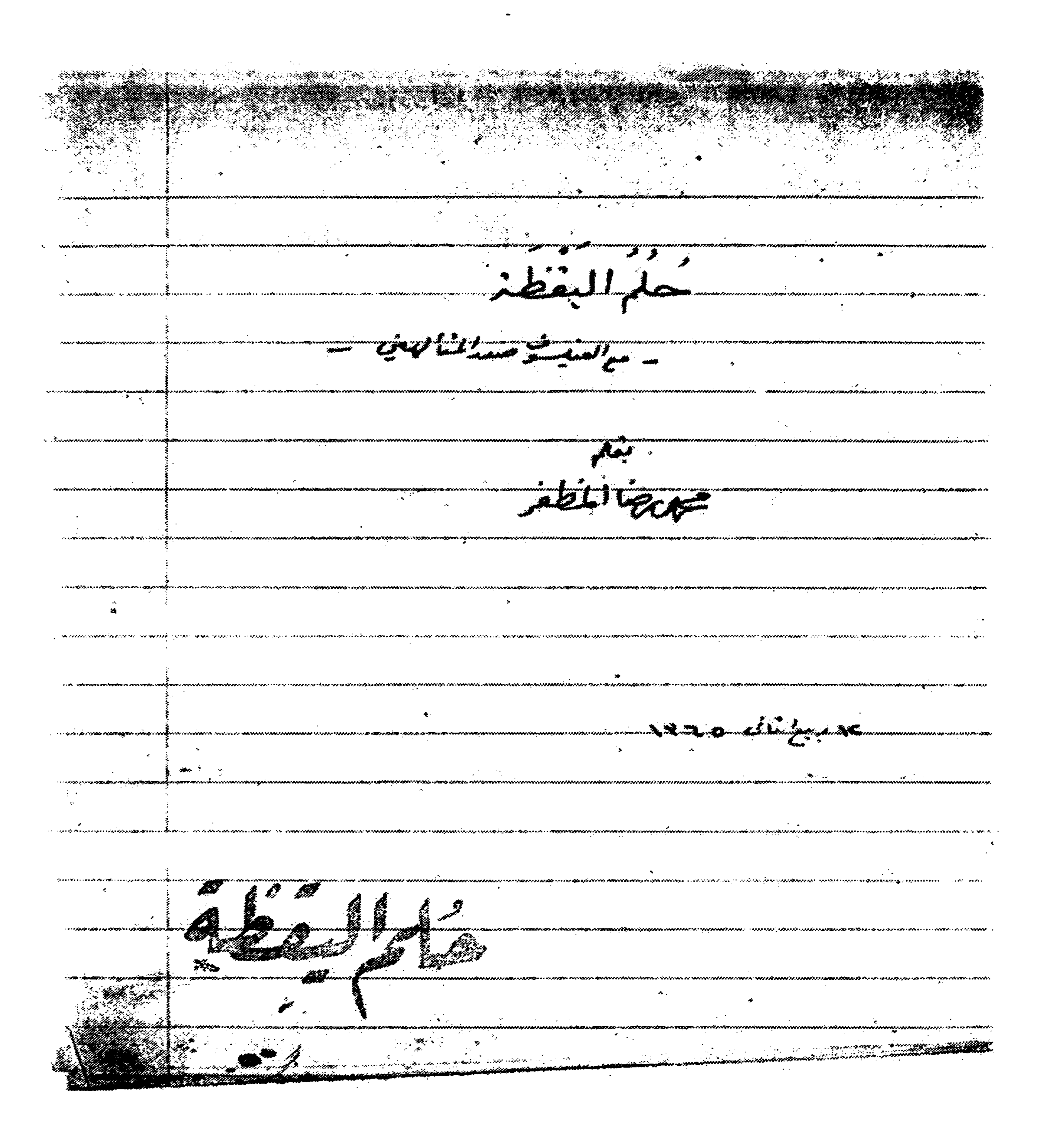
وإذا كان قصده إقلاعهم عما هم عليه وإقبالهم على الحكمة والمعرفة الفلسفية فليس هذا طريق ترغيب البشر وتحبيذ سبل النجاة لهم بالعنف والشتم والتحقير. بل يلزم أن يأخذ بيد الناس الى الخير بالرفق والشفقة والمحبة.

وأكبر الظن أن فيلسوفنا كان مصاباً بكبت عنيف نتيجة لحرمان قاسي وهو الذي دفعه – فيما أظن – إلى العزلة الطويلة في الجبال النائية خمسة عشر عاماً كما تحدثنا عنه في الفصول السابقة ودفعه إلى النفرة من الناس والنظر إليهم بمنظار أسود قاتم.

وإن كنت لم أستطع أن أقف على ظروفه الخاصة لأحكم على مصدر ذلك الكبت ونوع ذلك الحرمان.

ولعل ذلك الكبت قد رافقه منذ الصغر وهوالذي حددله إتجاهه الفلسفي وطريقته العرفانية الصوفية. وإن كان قد يعتقد أن تفكيره وعقله الواعي هو الذي ساقه إلى اختيار هذا السبيل.

وقد نجد ما يشير إلى ذلك الكبت والحرمان إعلانه للتذمر والقسوة في النقد كلما وجد لذلك مجالاً : على الفقهاء، على المتكلمين، على الحكماء، على الصوفية وتكاد تكون أكثر تلك الاندفاعات لا شعورية منبعثة من عقله الباطن وكونه الولد الوحيد المدلل لأبيه الوزير وقد فقده في حداثه سنه ما يعين على هذا الاستنتاج ويقربه الى التصديق .



صورة غلاف النسخة المخطوطة من أحلام اليقظة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله الحمد والشكر على ما أولى، وصلواته على خاتم رسله وسيد أنبيائه محمد وآله الهداة

مدخل الحلم

يلذ لي الحديث كثيراً عن المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، القوامي، المشهور في لسان أهل هذا العصر (بالملا صدرا)، وأنا من المعجبين بعقله وقوة عارضته، وسمو نفسه، وحرية تفكيره، وتصلبه لآرائه، وصراحته في نشرها مع ما لقي من عنت وتكفير ~~[illegible]~~

ولكن أن الرجل كان صاحب رسالة إلى الناس يدعوهم فيها إلى الله تعالى وتوجيههم إلى الحق الذي عليه (أهل الله) الذين وصلوا إلى معرفته بنور هدايته، فإنه كان يرى أن أكثر الناس يعبدون غير الله، بل جمهورهم - عدا العارفين - لا يعبدون الله حقاً، لأن آلهتهم هي بالحقيقة صور أصنام ينحتونها بآلات أوهامهم، فلا فرق كبير - عنده - بينهم وبين عباد الأوثان إلا بالألفاظ ويستشهد على تحقيق رأيه الفلسفي بقوله تعالى: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »

وأزيدك أني من المعتقدين بأن صاحبنا أحد أقطاب أربعة في تلك العلوم: هو، والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي، والشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة

أحلام اليقظة
مع الفيلسوف صدر المتألهين

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والشكر على ما أولى وصلواتنا على خاتم
رسله وسيد أنبيائه محمد وآله الهداة

مدخل الحلم

يلّذلي الحديث كثيرا عن المولى صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (القوّامي)، المشهور في لسان أهل هذا العصر (بالملا صدرى) ، وأنا من المغرمين بعقله وقوة عارضته، وسمو نفسه، وحرية تفكيره وتصلّبه لآرائه وصراحته في نشرها مع ما لاقى من عنت و تكفير.

والحق أن الرجل كان صاحب رسالة إلى الناس يدعوهم فيها إلى الله تعالى وتوحيده الخالص الذي عليه (أهل الله) الذين وصلوا إلى معرفته بنور هدايته، فانه كان يرى أن أكثر الناس يعبدون غير الله، بل جميعهم — عدا العارفين — لا يعبدون الله حقا، لان آلهتهم هي بالحقيقة صور أصنام ينحتونها بآلات أوهامهم، فلا فرق كثير — عنده — بينهم وبين عبّاد الأوثان إلا بالألفاظ ويستشهد على تحقيق رأيه الفلسفي بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾[1].

وأزيدك أني من المعتقدين بأن صاحبنا أحد أقطاب أربعة في فلاسفة الإسلام: هو، والمعلم[2] الثاني أبو نصر الفارابي والشيخ الرئيس أبو علي

---

(١) يوسف ١٢ : ١٠٦.

(٢) الفيلسوف الفارابي: أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ولد في وسيج إحدى قرى منطقة فاراب من بلاد الترك فيما وراء النهر في أرض خراسان سنة ٢٥٩هـ وتوفي في دمشق عام ٣٣٩هـ— ٩٥٠م من أكبر فلاسفة المسلمين ويسمى بالمعلم الثاني وكانت مؤلفاته قد مهدت لظهور ابن سينا وابن رشد وقد اطلع المستشرقون والمؤرخون في أوربا وأمريكا على فلسفته وتأثروا بها ووضع مؤلفاته في الفلسفة السياسية على ضوء أفكار إفلاطون مثل المدينة الفاضلة وآراء أهل المدينة الفاضلة وبالرغم من ←

ابن سينا[١]، والخواجا الشيخ نصير الدين الطوسي[٢]. هؤلاء هم في الرعيل الأول وهم الأصول في الفلسفة الإسلامية، وصاحبنا خاتمتهم والشارح لآرائهم والكاشف عن رموزهم، والمستنبط لألغازهم، والمروّج لطريقتهم، والأستاذ الأكبر لفنّهم. ولولا خوف المغالاة لقلت هو الأول في ترتيبهم والسابق عليهم في المضمار في خصوص المكاشفة والإشراق.

وقد نجد خامساً لهم، هو محي الدين بن العربي[٣]. والعهدة في عدّه في هذه الطبقة العالية بل فوقها على شيخنا صدر المتألهين نفسه، فإنه لم يفتر عن ذكره والاستشهاد

إعجابه بفلسفة اليونان وخاصة فلسفة إفلاطون وأرسطو فقد كان متميزاً بأصالة تفكيره وشخصيته الفكرية المستقلة وأهمها تأثره بالعنصر الإسلامي على اختلاف نزعاته. (م — ج)

(١) هو الشيخ أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا ولد في قرية أفشنة من قرى بخارى سنة (٣٧٠هـ — ٩٧٩م) وتوفي بهمدان سنة (٤٢٨هـ — ١٠٣٧م) من أشهر الفلاسفة الإسلاميين وقد ترجمت آثاره في الفلسفة والطب إلى اللغة اللاتينية وظل كتابه (القانون) في الطب مرجعاً للطلاب في جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر وسيطرت آرائه الفلسفية على المفكرين والفلاسفة وامتدت جذورها إلى (توما الاكويني) وبالإضافة إلى شهرته بالفلسفة فقد كان طبيباً اكتشف كثيراً من العلوم الطبية وشاعراً أديباً وسياسياً تولى الوزارة في عهد السامانيين ومنها لقب بالرئيس. (م — ج)

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسن الطوسي ولد بطوس عام (٥٩٧هـ — ١٢٠١م) وتوفي في بغداد في (١٨ذي الحجة عام ٦٧٣هـ — ١٢٧٤م) من نوابغ أعلام الفلاسفة وعلوم الفلك والرياضيات وأشهر علماء القرن السابع على حد تعبير بروكلمان وكان يدعى من بين البشر بأستاذ البشر والعقل الحادي عشر كما عبر عنه العلاّمة الحلي شارح كتبه ومن أعماله الخالدة إقناعه هولاكو ببناء مرصد مراغة سنة ١٢٥٩م وبقربه واستيزاره استحوذ على عقل هولاكو وروضه بذكائه بنقلة نوعية إلى أعمال حضارية كما أن الطوسي قام بتأسيس مكتبة في بلخ عدد كتبها ٤٠٠ ألف مجلد. (م — ج)

(٣) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي ومن ألقابه محي الدين. ويكنى بأبي بكر ولقب بابن عربي لدى أهل المشرق تمييزاً بينه وبين القاضي أبي بكر العربي ولد عام (٥٦٠هـ — ١١٦٥م) كانت له رحلات خارج الأندلس إلى مكة وبغداد والقاهرة ثم الإسكندرية وحلب إلى أن

←

بكلامه في كل مناسبة في كتابه (الإسفار) وغيره، وعظّم قدره ورفع من منزلته، ولوّح إلى أنه من الأصفياء المقرّبين، بل صرّح [بذلك] في عدة مناسبات.



وكم أتمنّى لو أن الحظ كان قد ساعدني فجعلني من جملة تلامذة هذا الشيخ صدر الفلاسفة، فأتلقّى آراءه مشافهة، وأناقشه مواجهة، وأتمنّى فوق ذلك أن أتعرّف إلى خلجات نفسه عن الناس، وما كان يحمله عليهم من حقد وألم، وأن أعرف ما كان يستهدفه في حياته وطريقته الفلسفية في التأليف ومحاورات الناس، وكان لم يأل جهداً في نشر دعوته بقلمه البليغ ولسانه الذرب، وقد أوتي حظاً وافراً منهما في حسن البيان ومتانة الأسلوب وسهولة التعبير حتى لتخاله في كثير مما يكتب من كتاب العصر الحاضر. ستجد ذلك عندما أتركه يتكلم عن نفسه فإني في محاوراتي على الأكثر أقتطف نص عباراته في كتبه ولاسيما كتاب الأسفار فإنه من أهم مصادري في استنباط آرائه وحافظت على أن أنقل منه نص عباراته. فكان من أعظم اللّذّات عندي أن أراه في (حلم اليقظة) أو يقظة الحلم رجاء أن يحقق بعض ما أتمناه ويقولون أن الأحلام في أكثر الأحيان نتيجة رغبة مكبوتة، وكذلك الخيالات.

وللنفس الإنسانية – على رأي الفلاسفة لاسيّما رأي صاحبنا – القوّة على اختراع الصور من غير مادة، ومشاهدتها بحواسّها التي في ذاتها بلا مشاركة البدن وبلا استعانة بآلاته (الحواس الظاهرة)، لأن النفس لها في

استقر في دمشق حتى وفاته فيها سنة (٦٣٨هـ – ١٢٤٠م) وكانت الغاية من تنقلاته في البلدان للاستزادة العلمية ومنذ بواكير حياته تطلع إلى أسرار الحياة الصوفية وتعمق في هذا المسلك بحيث عدّ الشيخ الأكبر له مؤلفات كثيرة من أهمها: الفتوحات المكية وفصوص الحكم وترجمان الأشواق وغير ذلك. (م – ج)

ذاتها، سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس، وهذه الحواس النفسيّة التي في ذات النفس أتمّ وأصفى لأن الآلات البدنية كالقشور لها.

ويتهيّأ للنفس اختراع الصور من غير مادة ومشاهدتها، عندما تستريح من الشواغل الدنيوية، وعند جمع الهمة وعزل الحواس الظاهرة عمّا لها من الأفعال: أما بالنوم، أو بانصراف النفس عن استعمالها وبتوجهها إلى الجنبة العالية بقوة فطريّة كالأنبياء والأوصياء، أو بقوة مكتسبة من الرياضات والمجاهدات، فتغتنم النفس حينئذ الفرصة، فتفرّ من سجنها وترجع إلى ذاتها بعض الرجوع ولو بمثل لمح البصر.

أو فقل – على حد تعبير حديث – يتنبّه العقل الباطن ويصل إلى منطقة الشعور، وبالأحرى يخرج من حد القوة إلى حد الفعل، أو من حد اللاشعور إلى حدّ الشعور.

والفرق بين التعبيرين والمسلكين، أن الرأي الحديث يرمي إلى أن للنفس الإنسانية عقلاً باطناً موجوداً في قعرها وفي منطقة داخلية منها مغفولاً عنه لدى العقل الظاهر وهو خزانة علمها يعمل ويفكر دائباً لا يفتر ويطّلع على أمور يعجز عنها الشعور والعقل الظاهر بل يدرك الحقائق ويطّلع على الأسرار والمغيّبات، فإذا اتفّق له أن يخرج من مكمنه ومن منطقته الحصينة إلى منطقة الشعور والعقل الظاهر فيشرق عليها بنوره الوهّاج لحظة أو لحظات لأسباب فطرية أو مكتسبة يكون بذلك إلهام النفس وتأتي بالمعجزات.

أما الرأي القديم فلا يختلف عن ذلك من ناحية النتائج والثمرات وإنما يقول بوجود عقل مستقل في وجوده هو الروح الكلي على بعض التعبيرات أو العقل الفعّال على تعبير آخر وهو في عالم أرفع من عالم النفس لا هو خارج

عنها على نحو المباينة ولا داخل فيها. ولا يقول بخروجه من مكمنه إلى الشعور بل النفس ترتفع إليه عندما تنطلق من حبسها فتتحد به ولو لحظة أو لحظات وحينئذ تتطلع على الأسرار والمغيبات وتدرك الحقائق كما هي لأنها تكون بذلك عقلا بالفعل.

وعلى كل حال عندما تتّحد النفس بذلك العقل بخروجه من مكمنه إليها أو بصعودها إليه، وسواء سميناه عقلاً باطناً أو عقلاً فعّالاً فإن النفس تقدر على إيجاد أمور صورية إدراكية يكون إيجادها عين شهودها، بل قد تكون ملاقاتها لتلك الصور الغائبة أقوى مشاهدة وأكثر تأثيراً في الرغبة والرهبة واللذة والألم، من ملاقاة الصور بسبب الحواس الظاهرة، كما نشاهد في الحالم والمنوّم تنويماً مغناطيسياً.

وكل هذه الفلسفة — سواء كانت صحيحة أو خيالية — قد أغرتني على أن أستسلم لأحلامي، وأنقطع عن آلامي ، وأنزع رداء حسّي الظاهر، وأدخل إلى أعماق نفسي وأغوارها لأسبح في بحر الخيال، أو أصعد إلى أوج العقول لأطير في سماء شهودها، كيما أكاشف شيخ الحكماء وصدر الفلاسفة وخاتمة المتألّهين.

ثم دفعتني رغبة لا أعرف مأتاها إلى أن افضح هذه الأحلام بل الأسرار فأذيعها على الناس، ولعلّي بذلك أكون قد ترجمت لصاحبنا العظيم وهتكت الستر عن آرائه لعامة الناس، لا سيّما للمثقفين بالثقافة الحديثة، وهم لا يعرفون عنه شيئاً.[١]

---

(١) بالرغم من أهمية صدر المتألهين في عطائه الفلسفي وشخصيته المتألقة في عالم الفكر الإنساني وذيوع آرائه عند متذوقي أهل الفن والاختصاص وكثرة ما كتب في معاجم السير والتراجم وتدريس مؤلفاته في ←

وأكون أيضا قد هيّأت الجوّ لرواج فلسفته في التوحيد والتوجّه إلى مسبب الأسباب التي لأجلها مات مكموداً في البصرة في طريقه إلى الحج للمرة السابعة.

وأقول له الآن: يا صدر المتألهين لا تأسف على ضياع فلسفتك في عصرك وطعنك بالمروق عن الدين وأنت أول المنافحين عنه بعلم وبصيرة، فقد عادت لها بعدك سوق رائجة، ولا رواجها اليوم بين رجال الدين. ولعلّه يسرّك أن أشهّر بك اليوم عند من لم يسمع بك أو لم يعرفك حق عرفانك، وهل هذا التشهير يؤدي بعض حقك على من تذوّق بذوقك.

محمد رضا المظفر

حوزات العلم فإنه لم يزل بعيداً عن مستوى دراسات المناهج الفلسفية خاصة على ساحة المؤلفات الأكاديمية سوى النزر القليل الذي ينحصر ببعض المعنيين وفي طليعتهم الفرنسي الكونت دوغوبينو الذي كان أول غربي يذكر اسم الملا صدرا في كتابه المعروف (الأديان والفلسفات في آسيا الوسطى المطبوع عام ١٨٦٥م) وسوى ذلك ما يحفل به بعض الدارسين والمهتمين في المجامع العلمية بصورة خاصة ممن يسعى للعلم من أجل العلم ويبتعد عن الطائفية المقيتة والتذوق المذهبي الوخيم. (م — ج)

(١)

لا تركن الى أقاويل المتفلسفة وأهل الكلام !

غفوت، وإذا بي أتمثل — في خيالي — شيخاً فوق المربوع، وشبحاً ممشوقاً ليس بالنحيف، ذا عمة بيضاء ناصعة لا تظهر عليها العناية، على رأس أصلع ليس بالكبير النابي، وينفتح قليلاً حول جبهته في موضعي النزعتين، ويعلو جبيناً أبلج، كأن السنين والجهود لم تؤثر فيه تجعيداً إلا ما يبين من موضع السجود الذي يطلّ على عينين واسعتين، تبدو عليهما آثار العناية الإلهية في جمالهما وتوقدهما ذكاءً وفطنةً، لو لا أن لحظاتهما تبدو وكأنها لا تثبت على مواجهة المرئيات أمامها. وبينهما ينساب العرنين رقيقاً حيث يميل إلى النتوّ، وقد حفّ بخدين أسيلين وعارضين خفيفين، ويستقبله فم يشف عن ابتسامة حلوة وصحّة ضاحكة ونفس مطمئنّة، ثم تنحدر لحيته وهي بين البياض والسواد، لتؤلف مع الوجه شبه مخروط قاعدته الجبين.

فتقدمت عليه، وقد جذبتني إليه جذبة الحب الهائم، فانقدح في خاطري أنه (المولى صدر المتألهين) وكأني أعرفه، وكأن من عادتي الجلوس إليه لاستماع دروسه. إلا إنه نفر مني وأنكر عرفاني إنكار مستوحش من الناس.

فقلت : ألست تلميذك منذ سنوات، وقد تلقيت منك بعض المعارف فقال (بنفور وقد تجهّم وجهه) لا أعهدك تلميذاً، ولا أثبّت شخصك !

(أما أنا فقد صدمتني هذه المجابهة صدمة قويّة جعلتني أفزع إلى أغوار نفسي لأستنجد بخيالي. وهنا تذكرت أني في حلم من الخيال، وأين مني زمانه، وقد توفي سنة ١٠٥٠ للهجرة وأنا الآن سنة ١٣٦٥هـ).

(ولكني سرّيت عن نفسي، فحدثتها أني اتصلت بأفكاره عن طريق كتبه، فلابد أن روحه السابحة في فضاء القدرة الإلهية عرفتني حق العرفان...).

(وساءلت نفسي لماذا هذا التنكّر عليّ اذاً؟ أكنت اسأت فيمن اساء اليه؟

— لا !

ألأني لم أحسن فهم كلامه ومغازي إشاراته في كتبه؟ أم ماذا؟

إذاً فلأخاصمه على طريقته الفلسفية، ولأفتح معه باب البحث من هذا الطريق!).

فقلت: يا حضرة المولى! إني اتصلت بروحك بواسطة بعض مؤلفاتك كالأسفار التي أفضت بمجلداتها الأربع إلى الناس، فأفرغت فيها نفسك، وسافرت أنت بها من الخلق إلى الحق، ثم بالحق في الحق، ثم من الحق إلى الخلق بالحق ثم بالحق في الخلق. والسفر ليس عندكم إلا سير النفس وتوجّه القلب، وقد سافرت أنا بتوجه قلبي إليك على متن أسفارك.

هو: كيف؟ هذا كلام غير مفهوم، وليس من أسفارنا — نحن معاشر أهل الله — السفر من الخلق إلى الخلق.

أنا: ليكن ليس من أسفاركم على ما تصطلحون! ولكنه على كل حال سفر للنفس وتوجّه للقلب نحوك.

هو: أعوذ بالله مما تصفون، إن هذا هو الشرك بعينه، أن يتوجّه الإنسان بقلبه لغير الله، وليست أسفارنا باصطلاحات خالية من الحقيقة.

أنا (وقد جفّ ماء فمي): أمهلني دقيقة حتى أجمع نفسي.

هو: أمهلتك ألف سنة مما تعدون.

أنا (بعد التفكر): أنت طريقي إلى الله لأني درست أفكارك وآراءك، فتوجّهي إليك توجّه إلى الله بك.

هو: تخلّص حسن ونظرة دقيقة، لو أن نفسي من وسائط وجود نفسك أو أن نفسي تجلّت لنفسك، فتعارفا، ولكن كل منهما لم يكن.

أنا: هذا الأخير هو الذي أريد أن أتوصّل إليه، أليس الكتاب وجود لوجود الكاتب لأنه من رشحاته بل من تجلياته وتنزلاته وشؤونه؟ فنفسك — إذن — موجودة في كتبك، وقد سافرت إليها، وناجيتها وناجتني، فكيف صح نكران معرفتي؟ وكيف لم يشاهدني حسّك الباطن؟ وكيف لم تتجلّ نفسك لنفسي؟

هو: أتهزل؟

أنا: أستعيذ بالله من الهزل؟ وأنا إنما جئتك للاستفادة مما وهبك الله في العلم والفهم ونور البصيرة والمشاهدة وكلامي هذا مأخوذ من فلسفتك في الوجود والعلة والمعلول!

هو: يا سبحان الله! مثل هذا الكلام والتوهم هو الذي يضايقني من الناس، فكنت أفرّ منهم ما استطعت، وكلّما جاهدت أن أوضح مقاصدي بالبيان المبسّط والدليل المقنع، أراهم لا يزيدون إلا تبلداً وللواضحات إلا جحوداً، وكأنك من هذه الفصيلة، ومع ذلك تطلب مني النجدة! إليك عنّي!

أنا: ألست قد نصبت نفسك في مؤلفاتك هادياً للناس ومرشداً لمن كان ضالته الحكمة! وأملي أن أكون من طلاب الحقيقة. فأفض عليّ مما آتاك الله تعالى من المعرفة، وأوضح لي التوهّم، إذا كان!

هو: أنت في محاولتك هذه تستدرجني لترجع بي إلى الدنيا وغواشيها، بعد أن منّ الله تعالى عليّ فأدخلني بالموت في عالم البرزخ (عالم الصور الإدراكية الحسيّة المجرّدة عن المادة)، وانقطعت علائق نفسي بالدنيا وقويت قوّتها وتأكّدت فعليتها، وأصبحت مصروفة الهمّة إلى فعل التخيّل والتصوّر، وغير مرتهنة بما يزعجها ويؤذيها، بما يمنعها في الرجوع إلى ذاتها، ولها عالم خاصّ من نفسها فيه كل ما تريده وتشتهيه، وأصبحت متمكنة من الصعود إلى مرتبة المقرّبين، وترى الأشياء بعين اليقين.

فلست بحاجة — اليوم — وأنا في عالم الشهادة إلى الأدلة والبراهين ولا إلى الخصومة واللجاج، فاتركني من أوهام أهل الدنيا ونقاشها، وقد تركت لكم كتباً مبسطة فيها الغنى لمستزيد، وخلّني منشرح الصدر مبتهجا بما أوتيت من اليقين بما لم تسمع به إذن ولم تره عين.

أنا: إن النفس — على ما قررت في فلسفتك — لِسعة وجودها ووفور نورها في هذا العالم العلوي، فذاتها تتطور بالشؤون والأطوار، وتتنزل إلى منازل القوى والأعضاء، فكما أنّ لها الصعود إلى مرتبة العقل الفعّال فلها النزول إلى مرتبة الحواس والآلات الطبيعية في آن واحدة من غير مشقّة وكلفة... فما كان عليك لو تنزّلت فجاريتني في النقاش كما تنزّلت في خطابي ومشافهتي، لنكشف سرّ تلك الغلطة التي قلت عنها في كلامي.

ولئن لم يزدك ذلك كمالاً واستعداداً لكمال، فإن نفسي لما استعدت لتلقي نور العلم وفيض المعرفة بتجرّدها بهذا الحلم عن الحوائل المادية والموانع العنصرية والحواجز الحسية، فإنها تطلب منك بلسان استعدادها ألا تبخل عليّ من فيض قدسك، وليس لك أن تبخل. وحاشاك؟

هو: أحسنت! إنك عن صبوح ترقّق، وإلى مسلك دقيق تشير، وهذا ما أحكمنا بنيانه في فلسفتنا، وإن كنت قد أخطأت المرمى بعض الشيء، ولكن لتثق أن هذا لا يقنعني للدخول معك في المجادلات الكلامية، والأبحاث البحتية، فإني قد مللت من تتبع أمثال هذه السخافات والأوهام فيما ألّفت لمّا كنت في عالمكم الدنيوي، وأضعت الوقت الكثير بذكر هذه المجازفات وردّها. وكان عذري أن أصحابها كانوا يعدون عند الناس من أهل النظر والرأي فيتّبعونهم على أهوائهم وسفسطاتهم، وأنت الآن تريد أن تعيدها عليّ جذعة! لماذا هذا الإزعاج؟

أنا: ما كنت أتخيّل إن هذا يزعجك! مع أن نفسك في رضوان وابتهاج دائم وإفاضتك عليّ من نور علمك هو عين الابتهاج ومحض الرضا، وصرف الكمال لنفسك أليست هذه فلسفتك؟

هو: هذا صحيح لو أن نفسي بإنيّتها وحقيقتها تتجلّى لك، فتفيض عليك نور العلم، وتؤثر فيك، كما توهّمت أوّلاً، وهذا التوهّم سرّ المغالطة عندك، ولكن لتعلم أن تخيلك لي وتصورك لوجودي هو عين نفسك، وتطوّر لوجودها وتقوّ لقوّتها، لأنه مخلوق لها وفعلها وأثرها.

قال سيدي أوّل الأئمة قسيم الجنّة والنار أمير المؤمنين عليه السلام: (كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق لكم مردود عليكم)[1].

ما أعظم هذه الكلمة لهذا الإمام القدّوسي الربّاني والحكيم العظيم الإلهي، وقد مرّت على مسامع الأجيال المتعاقبة، فما كان لأحد أن يكون

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار ٦٦: ٢٩٣.

أهلاً لإدراك مغزاها أو ليحوم حول مرماها. ولو لم تكن له سواها لكفتني دليلاً على إمامته وعصمته، وأن علمه من لدن حكيم عليم من غير تعليم وتلقين، فإنه لو كان بشراً من سائر الناس في ذلك العصر وتلك الأمة البعيدين كل البعد عن المعارف الكونية والعلوم الفلسفية، وهذه الدقائق العلميّة العالية، لما استطاع أن يتوصّل إلى شمّ رائحة هذه النظرية.

على أن هذه الفلسفة لم يتوصّل إليها البشر إلا بعد أبحاث ومجادلات وحدوث نظريات وافتراضات، سوّدت فيها الصحف فملأت الطوامير، ومرّت عليها القرون واشتركت فيها مئات العلماء العظام، وقد كشفناها في أسفارنا كما يرام، ولم يسبقنا إليها إلاّ هذه الكلمة من سيد الكونين عليه السلام، وكلمة أخرى من العارف المحقّق محي الدين بن العربي[1]، ذكرناها في بحث الوجود الذهني في السفر الأول.

وإذا استطعت أن تعرف مارمينا إليه، فإنه يسهل عليك أن تعرف أن تصوراتك الباطلة، وتوهماتك المريضة إنما هي انزعاج لنفسك في الحقيقة وآلام لروحك، ومرض ونقص في وجودك، وكذلك اعتقاداتك الصحيحة وآراؤك المطابقة للواقع هي تطوّر في وجود نفسك، وترقّ إلى مراقي الأنبياء والصالحين، وانتقال من مرتبة النقص إلى مرتبة الكمال، واستعداد للرجوع إلى ذاتك والإتحاد مع العقل الفعّال.

أنا: لقد بعدنا – أيها المولى – عن الهدف وعن مسألتنا التي طلبت كشفها، وكأنك تفرّ من توضيح تلك المغالطة التي أشرت إليها.

---

(١) أنظر ترجمته ص ٧٤.

هو: لو كنت من أهل طريق الكشف واليقين وممن عنّي نفسه بالمجاهدات العقلية والرياضات البدنية، لكنت انتفعت بهذه الرموز والإشارات، ولاستغنيت بها عن مجادلات الكلاميين وأصحاب المباحثة والنظر البحث، ولعرفت كيف حلّلت لك المسألة من أقرب طرقها.

وأني لأستغفر الله تعالى كثيراً مما ضيّعت أول الأمر شطراً من عمري في تتبع تلك التدقيقات والمجادلات وتعلّم جربزتهم في القول. وأنصح كل من يريد أن يسلك مسلك الكرام الإلهيين، ويتمثل له ما ينكشف للعارفين المستصغرين لعالم الصور واللذات المحسوسة فينفتح له طريق الحقائق، أن يبدأ أوّلاً بتزكية نفسه عن هواها فـ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ❖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴾[1] وباستحكام أساس المعرفة والحكمة بالتقوى ليرق ذراها وإلاّ كان ممن ﴿ **أَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ** ﴾[2].

وأنصحه ألاّ يشتغل بترهات عوام الصوفية من الجهلة، ولا يركن إلى أقاويل المتفلسفة وأهل الكلام جملة، فإنها فتنة مضلة، وجميعها ﴿ **ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** ﴾[3].

وآخر نصيحتي أن يلقي بزمام أمره إلى الله تعالى وإلى رسوله النذير الأمين، فكل ما بلغه منه آمن به وصدّقه، من غير أن يتخيل له وجهاً عقلياً

---

(١) الشمس ٩١: ٩ — ١٠.

(٢) النحل ١٦: ٢٦.

(٣) النور ٢٤: ٤٠.

ومسلكاً بحثياً ، بل يجب أن يقتدي بهديه وينتهي بنهيه ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾[١] حتى يفتح الله على قلبه ويجعل له نوراً يمشي بين يديه.

(بينا أنا في نشوة من الابتهاج باستماع هذه النصائح الخالدة وإذا بي أستيقظ من رقدتي ، ولم أتمكن من حمله على الدخول في محاورات أهل النظر).

---

(١) الحشر ٥٩ : ٧.

(٢)

فلسفته في العلة والمعلول على خلاف المتكلّمين

جمعت نفسي هذه المرّة لأستسلم لأحلامي بعد ذلك الحلم اللذيذ المزعج الذي لاقيت فيه العنت مع شيخ الفلاسفة، وقد امتنع عليّ أن يدخل في المحاورات التي أردتها، وإن كان أفاض بكثير مما يجب العلم به؛ من تفنيد طريقة أهل الكلام والنظر، ومن نظريته في خلق النفس لتصوّراتها، ومن عقيدته في إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام، ومن رأيه في الأخذ بظواهر الكتاب والسنة ونقمته على أهل التأويل.

فهوّمت ليتراءى لي صاحبنا صدر المتألهين؛ فرأيته جالساً كأنه ينتظرني، ولكن ما جلست إليه إلاّ وظهر لي أنه لا يزال متنكراً عليّ مستوحشاً منّي، فعظم خطبي، وكدت أن آيس من أن أخفض جناح تصلّبه، لو لا أنّي تذكرت أنه الآن في صفوف الملائكة المقربين، والملائكة لسلامة طويّاتهم وطهارة نفوسهم قد ينخدعون بحيل الإنسان وحذلقة شياطين الإنس فتحاملت على نفسي لأبتدع له أسلوباً من الحديث أثير حفيظته فأبلغ منه ما أريد.

فقلت: أيها المولى! أراك لا تزال تنكرني، مع أني أقمت البرهان على أنك تعرفني.

هو: البرهان!

أنا: نعم! البرهان

هو: أظنكم تكتفون من حظوظكم من العلم ومن ادّعائكم الفلسفة أن تسمّوا مجازفاتكم وأوهامكم براهين وأدّلة، من دون أن تعرفوا من ذلك إلاّ الاسم، وإن كان ما تسمونه برهاناً ليس إلاّ سخافة ومضحكة.

أنا: رأفة بنا يا صدر الفلاسفة إن هذه لصواعق محرقة، على أني لا أدري من تقصد بخطاب الجمع؟

هو: لو تدري من أقصد!

أنا: إذا أبيت فلربّما، وعلى كل حال لا أحب أن تزجّني في فئة صوّبت لها سهام نقدك اللاّذع، وقد تعلّقت بأذيال فلسفتك، والبرهان الذي أقمته فيما تقدم مأخوذ كما قلت أولاً من فلسفتك في الوجود والعلة والمعلول، وأراك تتهرّب من الجواب عنه، وقد يظن الظان أن ذلك كان عجزاً وقد نسيت المباحثات النظرية لما شغلت بمشاهدة الحقّ بعين اليقين نفسك، أو هزيمة من الالتزام بنتيجة البرهان، وأنت تريد أن لا تتعرف على أحد، ابتهاجاً بما عندك.

هو: الصحيح أن تقول: وأنت لا تريد أن تتعرف على أحد، لأن المختار من إذا شاء فعل وإذا لم يشأ لم يفعل، لا كما يقوله بعض المحجوبين عن نور الحق: (إذا شاء فعل واذا شاء لم يفعل) لأن عدم المعلول بعدم علته ولا يحتاج العدم إلى العلة، فالإنسان لا يريد أن يفعل، لا أنه يريد ألاّ يفعل.

أنا: نعم كما تفضلت، أرجو المسامحة!

هو: إذاً لم أكن قد نسيت المباحث النظرية.

أنا: مليح! ولكن يبقى ظن الأخرى وهي (الهزيمة).

هو (وقد تململ من هذه المضايقة)**:** أصحيح أنك تعتقد أن ما لفّقته كان برهاناً منطقياً.

أنا: قلت إنه مأخوذ من فلسفتكم.

هو: أية فلسفة تعني؟

أنا: أليس الكاتب علة في وجود الكتاب؟

هو: بلى!

أنا: وأنت تقرّر في مؤلفاتك أن وجود كل معلول طور من أطوار وجود العلّة وشأن من شؤونه، بل ليس لحقيقة المعلول هوية مباينة لحقيقة علّته، ولا يعقله العاقل إلاّ مضافاً إلى العلة، فما يقال في النظر الفلسفي البحتي أن في الوجود علة ومعلولاً، فهو في نظر أهل المكاشفة والإشراق يرجع آخر الأمر إلى كون العلة أمراً حقيقياً والمعلول جهة من جهاته، ورجعت عليّة الشيء الذي يسمّى علّة وتأثيره في المعلول إلى معنى أن المعلول يتطوّر بتطوّر العلّة ويتحيّث بحيثيّتها، لا انفصال شيء مباين عنها[١].

فأنت إذاً موجود في كتبك، وقد اتصلت بها فلابد إني اتصلت بنفسك فعرفتني.

هو: أهذا كل مبلغ علمك، وأنت تدعي أنك أخذت الفلسفة عني وتتلمذت على كتبي، وقد غالطت نفسك وحسّك.

أنا: لماذا؟ إن كلامي منطقي برهاني، ينطبق على قواعدك الفلسفية، فقولي (الكتاب معلول للكاتب) صغرى للقياس وهي صادقة، وقولي (كل معلول وجود للعلّة) كبرى وهي صحيحة حسبما ملأت به طواميرك ومسطوراتك — على حد تعبيرك — فيتألّف من هاتين المقدمتين قياس من

---

(١) هذا التقرير الذي يلهج به ملاصدرا في كل مناسبة فيها — هو اساس (فكرة الوجود) عنده. (منه)

الشكل الأول، فينتج أن الكتاب وجود للكاتب، فأنت موجود في مؤلفاتك أليس كذلك!

هو: يا سبحان الله! ألم أقل أنكم تكتفون من الحقائق بالأسماء، فتسمون المغالطة برهاناً والجربزة قياساً، وأنا أطلب إليك الآن أن تنصف من نفسك فيما أضرب لك من الأمثلة، لتنكشف لك المغالطة من غير كثير عناية بطريق نظري، بعد أن حاولت كشفها لك من طريق إشراقي في جلساتنا السابقة فلم تنكشف. أتعاهدني على ذلك!

أنا: لك عليّ ذلك.

هو: إذاً فأنصف من نفسك! لو أنك أرسلت كتاباً إلى أحد، واطلع عليه آخرون أفتظن أنك ستعرفهم لمجرد أنهم قرأوا كتابك؟

أنا: لا!

هو: حسن، واعتبر أيضاً بالباني للدار، أليست هي معلولة له، كالكتاب بالقياس إلى المؤلف؟ فهل تظن أن الباني سيعرف كل من يدخل إلى الدار أو يشاهدها، لأنه كان قد بناها ليس إلا؟

أنا: لا!

هو: إذاً فاكشف الغطاء عن بصيرتك واعترف بالحق...! فإن هذا الكلام يجري في كل صانع لشيء ما، فلا يمكن أن يعرف كل من يستعمله أو يراه لمجرد أنه قد صنعه فأنا لا أعرف كل من يقرأ كتبي ويفهم مضامينها لمجرد أنها تأليفي وسجّل آرائي.

أنا: وعليه، فالكبرى التي فهمتها من فلسفتك ليست بصحيحة وهي (كل معلول من أطوار وجود العلّة).

هو: بل صحيحة، وهي الركن الركين في التوحيد.

أنا: والصغرى أيضاً صحيحة باعترافكم، فلماذا تتخلّف النتيجة، فلم يبق إلاّ أن نفرض أن العلّة في الأمثلة المذكورة ليست علّة إلاّ في حال الحدوث فقط، أمّا البقاء فلا يحتاج إلى العلّة، ولذا تغيب علة الحدوث عن المعلول بعد بقائه في هذه الأمثلة، فلا يكون بقاؤه من أطوار وجود علّته التي فرضناها علّة للحدوث فقط.

مع أنكم تشنّعون في فلسفتكم أشد التشنيع على من يقول بأن منشأ الحاجة إلى العلّة هو حدوث المعلول، كما يذهب إلى ذلك المتكلمون من الأشاعرة، حتى رميتم قائلها بالسخف، وسخرتم فيه بلاذع الكلام.

وبرهنتم على أن منشأ الحاجة إلى العلة هو الإمكان في المعلول الذي لا يزول عنه لازم له في حال حدوثه وبقائه، ولذا قلتم لا يستغني المعلول عن العلّة ولا يغيب عنها طرفة عين أبداً، بل قلتم أن حقيقة المعلول حقيقة الحاجة والفقر إلى العلة في جميع حالاته، فكيف نوفّق بين الكلامين؟

هو (وقد بدا عليه التأثر والحماس لقول الحق): لقد زدت الموضوع على نفسك تعقيداً بهذه المغالطات المتتابعة، وقد نصحتك ألا تركن إلى أبحاث المتفلسفة والمتكلّمين، ولماذا تزجّني معك في الدخول فيها؟

أنا: أن المجاز قنطرة الحقيقة كما تقولون، فلابد من تتبّع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام وتفنّنهم في البحث، لكي يتبيّن آخر الأمر بنور الإيمان وتأييد الله المنان أن قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم.

(صمت طويل)

أنا (أيضاً): فلماذا سكتّ عن جوابي؟ وأنت أيّها الحكيم أدمجت في كتبك الحكمة البحثية في العلوم التألهية، ومزجت البيانات التعليمية في

الأسرار الإلهية، وعذرك في ذلك هو عذري في إصراري على هذا النوع من البحث!

هو: أخشى.

أنا: من أين تخشى؟

هو: أخشى ألاّ يسع فهمك بعض الأبحاث الدقيقة، فيختلط الأمر عليك وتضلّ عن طريق الحق من حيث لا تدري.

أنا: إكشف لي هذه المغالطة، ولك عليّ ألاّ أدخل في بحث إلاّ بإذنك.

هو (وكأنه قد رقّ لي وشعر بحاجتي): يا حبيبي ما أشد سخافة توهّم من يرى أن حاجة المعلول إلى العلّة في حال الحدوث لا في حال البقاء، حتى صرّح بعض هؤلاء القائلين بهذا الرأي جهلاً وعناداً: أن الباري لو جاز عدمه لما ضرّ عدمه في وجود العالم بعده، لتحقق الحدوث بإحداثه. وهذا غاية الجهل والفساد في الاعتقاد.

على أن كل علّة ذاتيّة فهي مع معلولها وجوداً ودواماً، ومن الشواهد على ذلك حرارة النار التي تفيض من جوهرها التسخين على ما حولها من الأجسام، وإفاضة الماء الرطوبة والبلل على الأجسام المجاورة له، والرطوبة ذاتية للماء كحرارة النار، وكذلك النفس تفيض الحياة على البدن والحياة ذاتية لها، فلا تزال الحياة تنشأ منها على البدن الذي هو جسم ميّت في ذاته حيّ بالنفس مادام صالحاً لإفاضة الحياة عليه منها، فإذا فسد صلوحه لقبول الحياة تخلّت عنه وارتحلت.

وأما نسبة الإيجاد إلى المؤلّف والمركب (بالكسر فيهما) كالبناء للدار والكاتب للخط، والخيّاط للثوب، فهي مغالطة نشأت من عدم الفرق بين ما

بالذات وما بالعرض، وأخذ ما ليس بعلّة علّة، فإن أكثر ما يظنّونه فاعلاً ليس بفاعل في الحقيقة، وذلك كالأب للأولاد والزارع للزرع، فليست هذه ونحوها عللاً مفيدة لوجود ما ينسب إليها، بل إنما هي معدات من جهة تسببها وعلل بالعرض لا بالذات، والمعطي للوجود في هذه المعلولات هو الله تعالى كما أشار إليه بقوله تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ❁ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾[١]، فما يسميه الجمهور فاعلاً ليس إلاّ مباشر الحركات ومبدأ التغيّرات، وأما فاعل الصور ومعطي الوجود فهو الحقّ عزّ إسمه لا شريك له في خلقه بل إن شئت فقل في كل معلول وعلّة وفي كل فعل وفاعل حتى فيما قيل أنه علّة ذاتية كالنار: إن الفاعل الذي يفيض الوجود ومنه الوجود وواهب الصور هو الله وحده، والفاعل الذي به يستعد الشيء للوجود ويتهيّأ لقبول الصور غيره تعالى فلا يصح أن نقول: أن من منه الوجود غيره تعالى، فهو شرك، ولا يصح أن نقول: أن من به الوجود المباشر للحركات هو الله، فهو جهل وكفر.

فإذا قلنا نحن: إن المعلول طور من أطوار العلة، وأن العلة مع معلولها وجوداً ودواماً، فالمقصود بالحقيقة هو الفاعل الذي منه الوجود وهو الله تعالى، وعلى هذا الأساس المتين تبنى نظرية أفعال العباد فيما كشف عنها أئمتنا وسادتنا في قولهم المعروف: (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين). هذا القول الذي قصرت أفهام الباحثين عن إدراك مغزاه (وقد وضعنا فيه رسالة مختصرة سميناها رسالة خلق الأعمال). وكم خبط الناس في الجبر والتفويض والقضاء والقدر، وجاءوا بالمضحكات المبكيات.

---

(١) الواقعة ٥٦: ٥٨ — ٥٩.

ألا تعتبر أنت الآن فيما اشتبهت فيه وتشبّثت به ، بما لو أودعته عند أحد أمانة ، فإن إيداعها فعلك أمّا بقاؤها عنده فهو فعل الأمين لا يبقي لك فيها سلطان ولافعل ، وكذلك مؤلف الكتاب إنما فعله نقش صور هذه الألفاظ وهو سبب معدّ لبقائها ، أما بقاؤها على الورق وبقاء الورق فليس داخلاً في سلطانه وفعله وقد يأتي غيره فيتصرف فيها ما يشاء من إضافة وتغيير أو نسخ ونقل أو إتلاف ومحو.

على أن نفس خطّك وتفكيرك هو فعلك من جهة لأنك الفاعل الذي به الوجود المباشر له ومن جهة أخرى هو فعل الله تعالى وهو الخالق المصوّر له وحده لا شريك له لأنه الفاعل الذي منه الوجود (لا جبر ولا تفويض...).

وأظنه إلى هنا اتضح لك أن مغالطتك كانت في الصغرى إذ اشتبه عليك معنى العلّة فيها ، فلم يتكرّر الأوسط ، لأن معنى العلّة في الصغرى العلّة بالغير ومعنى العلّة في الكبرى العلّة بالذات.

ولم يتمّ كلامه حتى استيقظت من غفوتي وفي النفس ما فيها من تطلّع إلى البحث.

(٣)

يخاصمون الحكماء والعرفاء

الحق أني ندمت على المحاورة السابقة التي ضايقت بها شيخنا العظيم قبل أوانها وهي تتطلب من القارئ والسامع دقة في النظر وتأملاً ليس بالهيّن على كثير من الناس ولكن ساقتها ضرورة البحث، ولا يخلو عرضها من فائدة لفهم فلسفته في الوجود والعلّة والمعلول مقدمة لما قد يأتي من الأبحاث، على أن فيها أهم المباحث التي يخالف فيها أنظار المتكلمين والتي تبنى عليها جملة من الخلافات الجوهرية.

ورجوت في هذا الحلم أن أتعرّف إلى سرّ حملاته على أصحاب البحث والكلام ومخاصمة الناس له، فأسلمت نفسي لتخيلاتها في حلم يقظتها.

دخلت عليه فحيّيته، وأملي أن أجده هذه المرة أكثر استيناساً بمحاورتي بعد الذي كان، فابتدرني بعد جواب التحية، من الرجل؟

أنا: تلميذك. لا زلت لا تعرفني؟

هو: أي تلاميذي؟

أنا: أنا الذي أقمت البرهان على معرفتك لي، فلم أنجح.

هو: إذا كنت لم تنجح! فمن أين أعرفك؟

أنا: كفت تلك المحاورات السابقة لأن تحدث عندك معرفتي.

هو: أظنه قد غاب عنك أن النفس الإنسانية لا تحدث عندها صور جديدة بعد الموت، إنما ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[1] في دار الدنيا، وهذا سرّ خلود السعادة والشقاء لها، وهذا هو السرّ في أن الدنيا دار الأعمال والآخرة دار الجزاء، فليس لها أن تعمل بعد الموت، لتترقّى في وجودها أكثر مما عملته قبل الموت. ألا ترى النادم كيف يقول ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ ❖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾[2]..

نعم يتم ارتفاع الحجاب للنفس عند الموت، وبه ينكشف الغطاء لها، فتكون كل تصوّراتها وتخيّلاتها واعتقاداتها وأوهامها السابقة فعليّة تامّة الفعليّة فتقوى قوّتها وتتأكد فعليّتها، فأمّا السعادة والنعيم وإمّا الشقاء والجحيم.

أمّا تخيلك لي وتصوّرك لوجودي فقد قلت لك أنه عين نفسك وتطوّر لوجودها وتقوٍّ لقوّتها، لأنه مخلوق لها وفعلها، ولا علاقة له بنحو من الأنحاء في وجود نفسي الخاص.

أنا: فأنّى لي أن أتخيلك كيف أشاء؟

هو: نعم لك، وعليك إذا أخطأت.

أنا: فأنا مطلق العنان في حديثي معك.

هو: نعم مطلق العنان، واحتفظ ألاّ تتعمّد تشويه الحقيقة.

أنا: أني لأتعجّب الآن من نفسي كيف توهّمت تأليف ذلك القياس المغالطي، لأثبت عرفانك لي، مع أن هذه أمور درستها في كتبك، وهي من

---

(١) البقرة ٢ : ٢٨٦.

(٢) المؤمنون ٢٣ : ٩٩ — ١٠٠.

البديهيات الواضحة ، ولكن لا أكتمك أن الذي كان في دخيلة نفسي شيء والذي طفر إليه تفكيري ولساني شيء آخر.

هو: نعم كثيراً ما يقع ذلك للإنسان إذ تكون له في قرارة نفسه فكرة لا يعرف كيف يعبّر عنها حتى لنفسه ، فإذا جاءت إلى سطح ذهنه كانت شيئاً آخر ، فيرتبها على ما هو مألوف عنده من التفكير ، وهذا من عجائب النفس الإنسانية التي لا تنقضي عجائبها. والسر في ذلك أن النفس إذا كانت مشغولة بالشهوات والشواغل الحسّية لا يصفو لها جوهرها وتنطمس بغواش من الهواجس وسقم التفكير وضعف الملاحظة. ولك أن تشبّهها بالمرآة التي يتسخ سطحها ، فإنها وإن كانت تنطبع فيها صور المرئيات أمامها ، ولكن لا تظهر واضحة مجلوّة بكاملها كما هي ، بسبب غطش الأوساخ لمعالمها.

ولذلك ، نوصي من يريد الاضطلاع بمهمّة الوصول إلى الحقائق ويحاول أن تتجلى له الصور العقلية ، أن ينزّه نفسه من الشهوات ويقطع علائقه مع الدنيا الفانية وأوساخها القذرة ويخلع عنه رداء حواسه الظاهرة وينقطع إلى جوهر نفسه ، لتصفو له ذاته ، فتكون كالمرآة الصافية المجلوة ترى فيها صور الأشياء واضحة بيّنة.

أنا: تفتأ تذكر صفاء الباطن وتنزيه النفس كأنّه كل شيء في تحصيل المعارف الصحيحة ، فيذكّرني ذلك بحملاتك الشعواء على أهل الكلام والبحث البحت ، مع أن كتبك — لاسيّما الأسفار — مملوءة بالمباحثات النظرية والمحاكمات البحتية ، فأنت تصنع ما تنقم من غيرك.

هو: نحن إنما ننقم على أصحاب اللقلقة والجدل الذين استعملوا أفكارهم في موارد الألفاظ التي صدرت عن الأوائل ، وغابوا عن الأمر الذي أخذوه عن أولئك الرجال تلقفاً من غير بصيرة ، وقد استولى عليهم حب

الغلبة على الأقران، والمماراة، واستحكم في قلوبهم مرض الجاه وحب الرئاسة على وجه لا يرجى زواله سرمداً، فأذلّهم الله كما أذلوا العلم، وصغّرهم كما صغّروه.

وأمثال هؤلاء لا يعتبر قولهم في الدين، وإن كانوا عند أنفسهم وعند بعض الحمقاء والجاهلين يحسبون من العقلاء. ومن كانت له بصيرة قلبية يراهم وقد ختم الله على قلوبهم، وأصمهم وأعمى أبصارهم، مع الدعوة العريضة أنهم أفضل العالم.

وحاشا العاقل الحكيم أن يكون على هذه الصفة، ونحن لا ننكر الوصول إلى الحقائق من طريق البرهان بالتعلّم والكسب.

وهذا على نحوين فاعرفها حتى يتضح لك الحق في ذلك وتحصل عندك قوة التمييز:

فان التعلّم إما أن يكون من الخارج، وهو طريقة التعلّم المعهود بين الناس باستماع الألفاظ من الأستاذ، أو بالنظر في الكتب والآثار. وإما أن يكون من الداخل، وهو الاشتغال بالتفكّر.

والتفكّر في الباطن بمنزلة التعلّم من الخارج، ولعلّه أقوى تعليماً وأشد تأثيراً، بل التعلّم ليس إلاّ بالتفكّر أبداً، لأن العلوم مركوزة في أصل النفس بالقوّة كالبذر في الأرض، والتفكّر الذاتي أو بعد التعلّم إخراج ذلك الشيء الذي هو بالقوة إلى الفعل، بسقي التعليمات المتتالية أو التأملات النفسية لمزرعة نفسه، وبإزالة أشواك الشكوك وبتهذيب المزرعة من نباتات الاعتقادات الباطلة، حتى إذا قويت وكملت نفس المتعلّم بعد صقلها من رين المعاصي والشبهات ورفع حجب التقليد والوساوس

وتوجيه وجهها شطر الحق تعالى تكون النفس حينئذ كشجرة مثمرة ﴿ **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ** ﴾[١].

أنا: ما زلت على عادتك لا تترك تحاملك على هذه الفئة من الناس، وهذا الذي جرّ عليك ما جرّ من النقد والتجريح.

هو: ما يهمني الآن من هؤلاء ومن غيرهم، على أنه ليست هذه الفئة وحدها جرّت علي الويلات، فإن هناك فئة أخرى من الظاهريين لاقيت منها الأمرّين، بالرغم على ما يزعمون من أنهم بعيدون كل البعد عن الفئة الأولى في آرائها ومعتقداتها، ولو فتّشت عن جذور ما في نفوسهم بعد حرثها لوجدت فيها من بقايا معتقدات تلك الفئة الأولى الشيء الكثير وإن كانوا لا يشعرون به، كإنكار تأثّر الأسباب الطبيعية والقول بالصدفة والاتفاق، ونحوها مما يستلزم إنكار خالق الكائنات وكثيراً من المعتقدات الباطلة، فإنهم يطعنون في آراء تلك الفئة الأولى في كتبهم، ومع ذلك يلتزمون بآثارها من حيث لا يعلمون.

ومن أعظم الفتن والمصائب أنهم مع عقولهم الناقصة وآرائهم السخيفة يخاصمون الحكماء والعرفاء أكثر من الخصومة والعداوة للكفّار واليهود والنصارى، ويعدّون هذا من تقوية الدين وحفظ عقائد المسلمين، وغاية تقويتهم للدين أن يقولوا إن الحكمة ضلال وإضلال وإن تعلّمها بدعة ووبال، وإن علم النجوم باطل في أصله، وإن الكواكب جمادات، وإن الأفلاك لا حياة لها ولا نطق، وإن الطبّ لا منفعة فيه، وإن الهندسة لا حقيقة لها، وإن علوم الطبيعيات والإلهيات أكثرها كفر وزندقة وأهلها ملاحدة... إلى غير ذلك

---

(١) إبراهيم ١٤ : ٢٥.

من مقالاتهم المشحونة بالتلبيس، المخالفة أكثرها لما في كتاب الله وسنّة نبيّه من تعظيم الحكمة وتوقير أهلها ومدح الناظرين المتفكرين.

أنا: الحمد لله لقد كشف العلم الحديث خطأ كثير من نظريات الفلاسفة في الأفلاك والعلوم الطبيعيّة، فقد كان المنكرون لمقالاتكم على حق، فلا يصح تحاملكم عليهم.

هو: لئن كشف العلم خطأ نظريات السابقين في بعض الأمور الطبيعية فلا يدل على أن منتقدي طريقة الحكماء كانوا على صواب؛ لأنه ليس معنى ذلك أن الاشتغال في الحكمة يستلزم الكفر والإلحاد، وليس الخطأ بعزيز على أهل العلم. وهذا شيء آخر غير الاعتقاد بالله وتنزيهه تعالى من أوهام المدلّسين وتدليسات الملحدين، وأن غير الحكمة في نفسها كفر وزندقة.

أنا: ألا تظنّهم أنّما خاصموك لأنهم اعتقدوا بأنك قد خالفت في كثير من آرائك نصوص الشريعة الإسلامية، فلذلك نسبوك إلى الكفر أو الزندقة.

هو: حاشا الشريعة الحقّة الإلهية أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتبّاً لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنّة، وإن من طريقتي المحافظة على ظواهرها وعدم جواز التخيّل لتأويلها بتخييل وجه عقلي ومسلك بحثي كما يصنع أكثر المحجوبين عن نور الحق من المتفلسفين.

أنا: نعم تقول أنت ذلك بلسانك، ولكنهم أحصوا عليك كثيراً مما خالفت به نصوص الشريعة الإسلامية، ويقول بعض الناس أنك إنما ترجع كل قول لك إلى الكتاب أو السنة وتتظاهر بالتمسّك بظواهرهما لتدفع عنك عادية خصومك، ولتتألّف قلوبهم.

هو: أعوذ بالله من التلبيس والتدليس ومن هذه التهمة الشنيعة! لو كنت كما وصف هذا القائل لما صارحت بخصومة هؤلاء وحملت عليهم تلك الحملات المبثوثة في غضون مؤلفاتي، وإنك لا تجد من الحكماء من هو أصرح منّي في القول وأكثر حرية في الرأي، وما اتقيت يوماً في إظهار خلاف ما أعتقده، نعم قد أكتم بعض الآراء خوفاً على الناس لا منهم لئلا يضلّوا بها وهم لا يدركون حقيقتها.

وأما أنهم أحصوا عليّ مخالفاتي لنصوص الشريعة المطهرة، فأود أن تبرز لي أنت أو واحد من الناس للحساب لنعرف من هو المخالف للشريعة.

أنا: أطلب منك المهلة إلى فرصة إخرى لأفتّش عن ذلك.

هو: لك ذلك، ولكن قبل أن تفارقني أودّ أن أطلب منك أن تنصف من نفسك وتتوجه إلى الله تعالى وحده لتكون ممن لا تأخذه لومة لائم في الحق، وليس ذلك بالأمر اليسير على الإنسان، كما أرجو أن تكون على بصيرة مما أقول لك في هؤلاء الباحثين بهذه الشؤون:

فإن أكثر من رأيناهم وجدناهم يخوضون في المعقولات وهم لا يعرفون المحسوسات، ويتكلمون في الإلهيات وهم يجهلون الطبيعيات، ويتعاطون الحجج والقياسات ولا يحسنون المنطق والرياضيات، ولا يعرفون من العلوم الدينية إلا المسائل الخلافية، وليس غرضهم في العلم إصلاح النفس وتهذيب الباطن وتطهير القلب من أرجاس الصفات والملكات، بل طلب الرئاسة والجاه وإرجاع الخلائق إليهم، ومن أجل ذلك يضمرون النفاق ويعادون أهل الحكمة والمعرفة، والسواد من الناس إلى مثلهم أميل لأنهم يجارون السواد على أوهامهم وجهالاتهم فيشنّعون علينا بمخالفة السنة

المطهرة ويخدعون رعاع الناس لمطاردتنا والتنكيل بنا خوفاً على ما عندهم من منزلة ورئاسة.

أنا : مهلاً أيها المولى! لا يبلغ بك سوء الظن إلى هذا الحدّ، وقد يخالف ذلك بعض تعاليم شريعتنا، والمرجو من مثلك أن تكون أوسع صدراً وإن لاقيت ما لاقيت ويجب أن نشكر الله تعالى أنّا في عصر لا يشبه عصرك في هذه الناحية ولما أن بلغت هذا الكلام انتبهت من رقدتي فراراً من حملة إخرى لا أقوى على استماعها إلى حيث اللقاء.

(٤)

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[١]

غفوت هذه المرة، وقطعت علائقي عن شواغل الحس، وأنا على ثقة بأني قد تألفت شيخ الفلاسفة وصدرهم (الملا صدرا) بعد تلك المحاورات أكثر مما سبق، فأستطيع أن أستفيد من محادثة أكثر، وإن كنت على وجل من حملة شعواء يحملها لكلامي الأخير الذي فارقته عليه في الجلسة السابقة فنويت أن أحمل عليه قبل أن يحمل عليّ لأشغله عني وما طلعت عليه حتى ابتدأني...

هو: هل أحصيت المواقع التي تدّعون مخالفتي فيها لنصوص الشريعة، فأحضرتها؟

أنا: لا! أرجو أن تمهلني إلى فرصة أخرى قد لا تكون قريبة.

هو: لك ذلك، ولكن لماذا عاودت إليّ؟

أنا: لقد بقيت في حيرة من أمرك أيها المولى، تنقم على أهل الكلام، وتطعن في المتفلسفة وأهل البحث، وتتحامل على الظاهريين أو الفقهاء كما يبدو من بعض تصريحاتك، ولا ترضى عن سواد الناس فمن بقي سالماً ترضى بعقيدته ولا تطعن في خالص توحيده، أفجميع الناس مشركون وأنت الموحّد، وكل الناس مخطئون وأنت على صواب؟ إن هذا لا يرضاه لنفسه

---

(١) يوسف ١٢ : ١٠٦.

منصف ولقائل أن يقول حينئذ : إنك شاذ عن الطريق السوي بإجماع طبقات المسلمين ، لأن جميع تلك الطبقات قطعاً لا ترضى طريقتك ، لما كنت تنقم عليها قاطبة.

هو: أنا لا أقول جميع طبقات الناس على خطأ.

أنا : إذاً ماذا تقول؟

هو: أقرأت القرآن الكريم؟

أنا : ربما !

هو: أقرأت هذه الآية الكريمة ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[1] ، ثم هذه الآية الناصعة ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾[2]؟

أنا : قرأتهما ، وكأني لم أقرأهما قبل هذه الساعة !

هو: ماذا تقول في دلالتهما على إيمان أكثر الناس؟

أنا : نعم هما ظاهرتان في أن أكثر الناس غير مؤمنين حقاً ، ولكن لابد من التأويل !

هو: لابد من التأويل؟! لماذا؟ وهما صريحتان في المقصود ألست تدّعي أنّك عربي تفهم لغة العرب ، فإن الأولى دلّت على أن المؤمنين أقل الناس ، والثانية دلت على أن المؤمنين الذين هم أقل الناس بحكم دلالة الأولى أكثرهم مشركون في الحقيقة ، فإذن يكون المؤمنون الذين لا يشوب إيمانهم شرك القليل من القليل.

---

(١) يوسف ١٢ : ١٠٣.

(٢) يوسف ١٢ : ١٠٦.

فأنا آخذ بصراحة هاتين الآيتين ولا أجيز لنفسي تأويلهما ، والعلم دلّني على أن العرفاء المتألهين الذين جعل الله لهم نوراً بين أيديهم لشهود الحق هم المؤمنون حقاً وهم الذين أوتوا الخير الكثير بما آتاهم الله من الحكمة والبصيرة ، أما غيرهم فلا تسلم عقائدهم وإيمانهم من شوب الشرك بما ينحتون بالآت أوهامهم من صور أصنام يعبدونها ، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فيما تقدم من قوله : **(كل ما تصورتموه في أوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق لكم مردود عليكم)**(١) .

وإن استغربت مع ذلك سلامة القليل من الناس فاعتبر بقول نبينا رسول الرحمة صلى الله عليه وآله في افتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة : **(فرقة ناجية والباقون في النار)** ، ونحو ذلك من كلماته وكلمات أئمتنا عليهم الصلاة والسلام.

أنا : يجوز أن تكون هذه الفرقة الناجية هي أكثر المسلمين أفراداً وإن كانت واحدة من فرق كثيرة ، على أنه ما من فرقة إلاّ وتدّعي هي الفرقة الناجية (وكلّ يدعي وصلاً بليلى) فهل تظن أن المقصود بها العرفاء المتألهون؟ هذا ما لم نسمع به في زبر الأولين.

والعمدة في استدلالك الآيتين : أما الآية الأولى ، فنحن نبقيها على صراحتها ولا نؤوّلها لأن أكثر أمم الأرض اليوم وقبل اليوم ليسوا بمؤمنين بالله ورسوله ، ومن ينكر ذلك؟ وأما الآية الثانية ، أفلا يجوز أن يراد بها أن المؤمن لا يؤمن إلاّ بعد أن يمرّ توهم الشرك عليه في أول نشأته وتفكيره لقصوره في أول عهده

---

(١) المجلسي ، بحار الأنوار ٦٦ : ٢٩٣. وقد ورد أول الحديث (كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم...).

بالتفكير عن معرفة خالص التوحيد؟ لا أن المراد أن المؤمن مشرك في حال إيمانه حتى تكون دليلا على مقصودكم، وكيف يجتمع الإيمان والشرك في آن واحد؟

هو: هيه! لقد رجوت لك أن تبتعد عن أمثال هذه المماحقات، وتفكّر في سلامة من سليقتك وصحّة من ذوقك وعلى طبع من فطرتك، حتى لا تتخيّل بتخييل مثل هذا التأويل، ولقد كان المفسرون أكثر منك إنصافاً وإدراكاً لظاهر الآية الاخيرة، فلم ينكروا ظاهرها بل صراحتها في أن أكثرهم مؤمن في حال أنه مشرك وإنما أوّلوها بإرجاع ضمير أكثرهم تارة إلى مشركي قريش وأخرى إلى مشركي العرب، وثالثة إلى أهل الكتاب، ورابعة إلى المنافقين، وإن كانوا لم يتفطّنوا إلى أن الأمر لو كان كما يتخيّلون لما كان ينبغي أن يقول تعالى أكثرهم، بل كلّهم، كما أنهم تغافلوا أنه لم يتقدم ذكر لطائفة من هؤلاء في السورة، إنما تقدم ذكر الناس في الآية الأولى التي ذكرناها وهي تسبق هذه الآية بآيتين.

ما أدري لماذا هذه التمحّلات والتخيّلات؟ أكل ذلك كان فراراً من صرامة الحق المر، وصراحة الواقع الثقيل على السمع؟ الله يخبركم و يقول لكم لا يؤمن به أكثركم إلاّ وهو مشرك، وهو المطلع على السرائر، ليحملكم على التفكير والتوجه إلى خالص التوحيد، وأنتم يحملكم العناد والأنانية على الفرار من النمير العذب إلى ﴿ **سَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً** ﴾[1] فلا يزيد إلاّ عطشاً وحاجة إلى ما يروي غليله الصادي.

ومن العجيب أنك تحاول أن تكون من الفئة الآخذين بنصوص الشريعة والذين يتهمونني بمخالفتها، ولم تتفطن إلى أن تأويلك للآية مخالف لنص ما جاء

---

(١) النور ٢٤ : ٣٩.

عن نبينا خاتم الرسل(ص) (كل انسان يولد على الفطرة)[١] إذ تتوهّم أنّ المؤمن أوّل ما يمر عليه الشرك قبل الإيمان، وحديث الفطرة حديث شيّق وبحث دقيق لا ندخل فيه الآن وهو صريح بأن الإنسان أول ما يمر عليه الإيمان قبل الشرك.

يا أخي لو كنت ممن يتبصّر ويرجع إلى أحاديث أئمتنا الأطهار عليهم السلام لاستغنيت وأغنيتني عن كل هذه التمحّلات، فقد روي عن الصادق عليه السلام، أن المراد بالشرك في الآية (شرك الطاعة لا شرك العبادة)[٢] وروي عن الرضا عليه السلام (لأنه شرك لا يبلغ به الكفر)[٣] ونحن كذلك نقول أن الشرك عند أكثر المؤمنين لا يبلغ حد الكفر، ولا يقصد بالمشركين في الآية المشركين الذين يعبدون الأصنام والأوثان، بل القصد ما قلت لك فإن أكثر الناس إيمانهم مشوب بالشرك لأن آلهتهم صور أصنام ينحتونها بآلات أوهامهم وهي مخلوقة لهم مردودة عليهم، وإن كانوا يعتقدون أنهم المؤمنون حقاً ويشهدون بالتوحيد، وقد يدافعون عنه بحرارة إيمان وصدق نية عن جهل بما هم عليه، وليس الفرق بينهم وبين المشركين الحقيقين لو حللت الأمر إلاّ بالألفاظ وفي ظاهر من الاعتقاد، ولهذا صح أن يقال أنهم مؤمنون في حال أنهم مشركون، أو أن إيمانهم مشوب ومخلوط بالشرك.

---

(١) الحديث (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) رواه عبد الرزاق والطبراني عن الأسود بن سريع وفي رواية البخاري عن أبي هريرة ورواه مسلم، أنظر الكافي ٢ : ١٢، وعن أبي عبد الله عليه السلام كما في علل الشرايع ٢ : ٣٧٦.

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٥٨، ورواية زرارة في العياشي ٢ : ١٩٩، ورواية الأمامين الصادق والرضا عليهما السلام في الكافي ٢ : ٢٩٢.

(٣) المصدر السابق.

أنا: لو كان الأمر كما تذكر فهل أرسلت الرسل لقوم مخصوصين من العرفاء، وكل هذه الناس على ضلال؟ وهل الجنّة والنعيم خلقتا لأفراد لا يعدّون بالأصابع؟

هو: وأقول أنا: هل تريد أن تعرف سرّ الله في خلقه وحكمته في رسله بهذا الكلام والجدل؟ ولابد أن تعرف يا حبيبي أن من يؤمن بالله ورسوله فعليه أن يأخذ بما جاء به الرسول وخلفاؤه الأبرار تقليداً على ما جاءوا به من غير تأويل ولا تصرّف ولا التماس وجه فلسفي أو علمي، لأنه بعد الاعتقاد بأن ما جاءوا به عن الله تعالى فلابد من الرضوخ له والتسليم به ويترك علمه ومعرفة سره إلى الله تعالى كما ورد عنهم في القضاء والقدر (أنه سر الله فلا تتكلفوه)[1]، فإذا صنع الإنسان ذلك واستطاع أن ينزّه نفسه عن المعاصي، فإن له من السعادة مقاماً يغبط عليه، وليس هذا التقليد من التقليد المذموم بعد أن كان قد آمن بالله ورسوله عن حجة ودليل.

نعم قد فهمنا من القرآن الكريم أنه قد حثّ الناس على التفكّر والتأمّل في خلقه وأثنى على العلماء وأهل البصيرة والحكمة، وجعل لهم مقاماً رفيعاً هو مقام المقرّبين والأولياء فعلمنا أن النظر في ملكوت الله تعالى والتفكّر في خلقه يكسب للإنسان سعادة وشرفاً حقيقيين غير سعادة وشرف من يأخذ الاعتقاد بالحق عن غير بصيرة وحكمة وإن كان اعتقاده مطابقاً للواقع، فإن هؤلاء هم أهل السلامة ولهم سعادة تناسبهم كالزهاد والصلحاء وأما أهل

---

(١) قال الإمام علي عليه السلام وقد سئل عن القدر: (طريق مظلم فلا تسلكوه)، ثم سئل ثانياً فقال: (بحر عميق فلا تلجوه)، ثم سئل ثالثاً فقال: (سرّ الله فلا تتكلفوه). نهج البلاغة – قصار الحكم: ٢٧٨، بحار الأنوار ج: ١، الكشكول للشيخ البهائي: ١، أنظر التوحيدي، البصائر والذخائر ٢: ٩.

الله العارفون فلهم مقام محمود وسعادة حقيقية لا ينالها إلاّ ذو حظّ عظيم. هذه عقيدتنا في الناس.

ونحن ندعو الناس إلى الإخلاص في الإيمان والنزاهة من الشرك والتدبّر في الكون كما أمرنا الله تعالى فإن وجد الإنسان نفسه أهلاً لهذه المنزلة الرفيعة فليوطّن نفسه على الكد والمجاهدة والتفرّغ للمعرفة، وإلاّ فليقنع بالتقليد والتمسك بما جاء عن رسله وأوليائه مسلّماً لهم من غير تكلّف للمعرفة وهو ليس لها أهلاً، والناس يختلفون اختلافاً عظيما في فطنتهم وذكائهم (قل كل ميسر لما خلق له).

ولذلك نحن نلوم أولئك الذين يتمحلون المعرفة ويظنون أنهم من العقلاء ويتوهمون أنهم يحسنون صنعاً فيما يسلكون من طريقة أهل الكلام والجدل وأهل البحث والنظر، وهم لا يكلفون أنفسهم التفكير والكد الدؤوب تهاونا واستهانة بالعرفان، ويكتفون بما نشأوا عليه من الأوهام والخيالات الطفيلية في منبت عقولهم، فلا يحرثونها بآلات المجاهدة والانقطاع عن علائق الشهوات ولا يسقونها بالتوجه شطر الحق تعالى فيضلون ويضلون معهم سواد الناس ورعاع الضعفاء المساكين.

ولو أنهم استطاعوا ما وصفنا من الكد والمجاهدة والتوجه، لخرجت في أرض قلوبهم بذرة الأفكار الصائبة، فتنمو وتزدهر بالأثمار اليانعة والأزهار الزكية.

وقبل أن يتمّ كلامه ويشفي غليله المعتلج في صدره انتبهت من رقدتي.

(٥)

هذه هي طريقتنا في الإشراق

استسلمت لأحلامي في هذه المرة الخامسة، ولا يزال صوته المندفع في محاكمة خصومه يرنّ في أذني، وأنا أتوجس خيفة من إثارته من جديد، وقد بقي في نفسي أن أتعرف إلى فلسفته الإشراقية وسرها، وهو لم يدع لي المجال فيما مضى للسؤال عنها، مع أنه يتمجد بها ويرحب بأصحابها في كل مناسبة.

فلمّا تمثل لي لم أمهله في توجيه سؤالي فقلت:

إن كل فلسفتك وكلامك – أيها المولى – مرتكزان على ادعاء الكشف والشهود، فبودي أن تنورني عن هذه الطريقة التي تدعو الناس إليها وكيف تحصل للإنسان؟

هو: إن النفس الإنسانية في أول نشأتها – كما تعلم – خالية عن جميع العلوم والمعارف، ولكنها بحسب أصل فطرتها لها قوة على اكتسابها، وصالحة لمعرفة حقائق الأشياء، فهي كالمرآة في قبولها للصور المحسة، ولكن لها حجب من أصلها أو تعرضها تحول بينها وبين انطباع صور الحقائق كما هي، فلابد من زوالها حتى ترتسم فيها الصور الحقيقية، وذكرنا في كتبنا أن الحجب للنفس خمسة أنواع فصلناها في مواضعها.

وزوال حجاب المرآة تارة يكون بعمل يد متصرفة فيه عن اختيار وأخرى بهبوب ريح من الخارج تزيله، وكذلك الإنسان قد يزيل حجاب نفسه بقوة

فكره المتصرفة، فيظفر بإدراك الحقائق، وذلك عقيب طلب اكتساب وبحث و نظر وهذه تسمى طريقة العقلاء النظّار، وهي طريقة سديدة لتحصيل العلوم، وقد يزول حجاب النفس وترتفع الغواشي عن عين البصيرة بهبوب رياح الألطاف الإلهية من غير اكتساب ونظر، فتظفر النفس أيضاً بإدراك الحقائق ويحصل للقلب من الله تعالى علوم كمالية وأنوار عقلية.

وهذا تارة يكون عند المنام إذ تتخلى النفس عن آلات الحس وتقطع علائقها بعض الشيء بالبدن، وأخرى ينقشع الحجاب في اليقظة بلطف خفي من الله تعالى، فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب الأسرار، ويهجم عليه كأنه ألقي عليه من حيث لا يدري، فربّما يدوم وربما يكون كالبرق الخاطف، ودوامه شاذ نادر.

وهذا النوع الأخير أعني هجوم النور على القلب، قد يكون عقيب طلب وشوق ومجاهدة بشروطها، وقد يكون بدون ذلك، ويسمّى هذا النوع حدساً أو إلهاما أو وحياً، وبعض أنواعه يختص بالأنبياء والعرفاء، وطريقة الكشف والشهود مأخوذة من هذا المعنى، فهي طريقة الإلهام وانكشاف الحقائق بهبوب رياح الألطاف الإلهية بعد المجاهدة والكد والأنقطاع إلى الله تعالى، والتخلي عن البدن وشهواته، وآلات الحس الظاهر وغواشيها.

أنا: إن بعض الناس ينكر هذا الإلهام الذي تدعونه، ويقول إن هذا من خيال المتصوفة، إذ يتحاملون على أنفسهم في المجاهدة، ويحصرون أفكارهم ويعصرون نفوسهم عصراً، فتقوى عندهم المتخّيلة، ويظنون في أنفسهم الظنون، وكل ذلك وهم في وهم وخيال في خيال.

هو: هذه أقوال من غير برهان، ومن لم يذق حلاوة السكّر فإنها لا تحصل له بالوصف فمن ذاقه عرفه، وكذلك طريقة تحصيل العلوم الكشفية، فلا يكاد يصل النظر إليها إلاّ بذوق ووجدان وفطرة ثانية.

ومع ذلك فما أظن أحداً يستطيع أن ينكر أن في صدر كل امريء منا خواطر جمة لا يعرف مأتاها، ويشعر من حيث يدري أو لا يدري أن في مكامن عقله كنزاً لا يفنى.

وما نظن هذا الاعتقاد الموجود في كل نفس من وجود قوة خفية مدبرة يلتجئ إليها عند الشدائد! وما ذلك إلاّ وحي الفطرة وإلهام خاصة النفس، إنها الفطرة التي فطر الإنسان عليها.

وكم تلمع في دخيلة نفس الإنسان خواطر وأفكار ولا يدري بها صاحبها كيف حصلت ومن أين وبأي سبب: ألست تعتقد أن الكل أعظم من الجزء وأن النقيضين لا يجتمعان وأن لكل سبب سبباً؟! أتعرف من أين جاءتك هذه الاعتقادات التي يتساوى فيها جميع الناس على السواء، وأمثالها كثيرة لا تحصى وقد يحل الباحث مشكلة ويظن أنه اهتدى إليها بالبرهان ولكنه في الواقع وارد قلبي لمع في خاطره ثم التمس له برهاناً منطقياً كما يصنع أكثر الناس في التماس البرهان على وجود الله تعالى ووحدانيته والشعراء والكتّاب والخطباء المجيدون أكثر الناس اتصالاً بالواردات القلبية التي لا يدرون من أين مصدرها، وأعرفهم بها إذ يلهم الشاعر البيت كأنما يقفز إلى خاطره من وراء ستر وهو لا يدري، وما ذاك إلاّ باشعاع البديهة وإلهام القلب، وكذلك الكاتب الأديب والخطيب المفوه، فقد يطفر من القلم أو اللسان جملة أو فكرة لم يكن صاحبها بانتظارها.

والسر في ذلك أن الإنسان على الأغلب في أول نشأته تتوقد منه جذوة لاستنباط القوى المكنونة من عقله، فمن استطاع أن يستخدم هذه الجذوة فلا يدعها تنطفي، تبقى له ملتهبة متوقدة، وتزداد توقداً على مرور الأيام كلّما أحسن الاستنارة بها، ولكن من سوء الحظ أن تربية أكثر الناس على نحو من التفكير الجاف البارد والأخذ بالتقليد في كل شيء يطفيء فيهم هذه الجذوة إذا كبروا، إذ تتراكم على عقولهم أكداس من الأوهام والخيالات الفاسدة، فيطمسوا نور العقل الوهاج.

ونسبة نور العقل الذي هو غريزة القلب إلى المعلومات كنسبة نور البصر وهو غريزة في العين إلى المبصرات، والموازنة متحققة بين بصيرة الباطن وبصر الظاهر، فيصيب القلب العمى كما يصيب العين بل هو أعظم أثراً من عمى العين بل حس البصر الحقيقي إنما هو في النفس وليس آلة البصر الظاهر إلاّ قشراً ﴿ **إِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[1].

ولذلك يحتاج الإنسان في كبره إلى المجاهدة، ليستطيع أن يرفع الحجب والصدأ عن مرآة نفسه بعد صبر وزمان طويلين، فتستعد نفسه لفتح عين قلبه من جديد بعد العمى أو الكلل ويتلقى حينئذ أشعة صور العلم والحقائق، وقد شرحنا في كتبنا ورسائلنا طرق المجاهدات العقلية، وأنواع حجب النفس، وهي ليست بعيدة عن متناول الأفهام والعقول.

ومع ذلك فإن الناس يختلفون في قابلية نفوسهم الذاتية، وقد يختلفون في المجاهدة شدّةً وضعفاً وطولاً وقصراً، فلذلك لا يتساوون في الاستنارة بالأشعة

---

(١) الحج ٢٢: ٤٦.

الواردة على القلب، بل قد يبلغ العمى في القلب إلى درجة لا يرجى زواله وانفتاح عين بصيرته.

ومن الغباوة أن يظن الإنسان أنه ينال الدرجات الرفيعة من العلم ويصل إلى الحقائق وترد على قلبه الأنوار القدسية وهو منغمر في شهواته مستولي عليه الكسل وبوائق النفس في الحسد والتكبر والتقليد ونحوها، ومن العجيب أنه لا يخجل مع ذلك، فينبري لمعارضة أهل العلم والعرفان ويخطئهم بما لا يعلم ولا يكون ذلك إلاّ جهلاً وعناداً.

أنا: إذا يمكن للإنسان أن يسلك طريقة أهل المكاشفات محضاً في تحصيل جميع المعارف، عندما يتقن هذه الطريقة، وينقطع إليها، فجميع معلوماته تكون بالعلوم الإلهية.

هو: نعم هو ممكن في نفسه.

أنا: إذاً لماذا البحث والتفكر والتعب في الاستدلال والمناظرة ودرس العلوم؟ ولماذا ملأتم كتبكم بالأبحاث والمجادلات وذكر الأقوال والبراهين وإيراد الحجج والأقيسة؟

ولا شك في أن الأسهل على الإنسان أن يطهّر نفسه ويصفّيها كل التصفية، ويعدها لتفتح له باب السماء فتهجم على قلبه الحقائق مرة واحدة، وحينئذ تكون أفكاره كلها صواباً، ويطلع حينئذ على كلّ سرّ مصون وعلم مكنون قد لا يصل إليهما البحث والقياس أبداً ولا يناله المنطق والتفكير البرهاني.

هو: أرجو ألاّ تسخر، فتكون من أهل العناد، وممن حقت عليهم نقمة رب العباد وتحرم من النعيم الدائم.

أنا: أعوذ بالله من السخرية والباطل، إنما أقول لازم قولكم أن يسهل على الإنسان سلوك هذه الطريق محضاً فيستريح ويأمن من الغلط والخطأ.

هو: نحن لا ننكر إمكان هذه الطريقة بل وجودها وإفضاءها إلى المقصد، وإنها أكثر أحوال الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وبها نالوا درجة النبوة والإمامة.

ولكن هذه الطريقة وعرة المسالك بعيدة المنال حتى على أرقى الناس ذكاء وقوة نفس، واجتماع شروطها ومحو العلائق بالدنيا وشهواتها إلى الحد الذي يبلغه النبي أو الإمام متعذر بل قد يكون ممتنعاً على سائر الناس، ولو حصل في حال خاطفة، فثباته أبعد وأبعد، لا سيما إذا دنى وسواس أو خاطر يشوشان القلب، ولا يخلو منهما إنسان عادي، وفي أثناء المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وقد تتشبث بالنفس خيالات فاسدة تطمئن إليها النفس مدة طويلة، فيحتاج إقلاعها إلى زمن طويل قد ينقضي العمر دون النجاح فيه، فكم من صوفي بقي في خيال واحد ثلاثين سنة أو أكثر من دون أن ينفتح له شيء.

وعلى هذا فنحن بحاجة شديدة إلى الاشتغال بطريقة التعلّم، لأن كثيراً من حجب النفس لا ترتفع إلاّ به وهو أوثق وأقرب إلى الغرض، فينبغي للسالك أولاً أن يشتغل في تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه، ثم يتوجّه بنفسه شطر الحق انتظاراً لما يفتح الله على قلبه عند ما تصفو مرآة نفسه، فيشاهد بعين بصيرته الحقائق ويحسها بذوقه، فيجتمع له البرهان والوجدان.

فالأليق بالسالك أن يمزج بين الطريقين، فلا تكون مجاهداته تصفية خالية من التفكر ولا تفكراً خالياً عن التصفية، بل يسلك طريقاً برزخاً جامعاً بين الطريقين.

هذه هي طريقتنا في الإشراق، وهذا ما سلكناه في كتبنا وأبحاثنا وهو منهج الحكماء الإشراقيين، ولا منافاة بين الطريقين، وبهذا المسلك المؤيد يكون الإنسان أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ والارتياب.

أنا: كيف تظنون فيمن سلك سبيل النظر البحت فقط، أتراه لا يصل إلى عرفان الحقائق والأسرار الخفية، كما عليه طريقة المشائيين.

هو: إعلم — يا حبيبي — أن مبدأ العلوم كلها من عالم القدس، ومن سبب مستور على الحواس، حتى ممن يصطنع الحدود الوسطى والبراهين، ويعبر عليها جسراً لإدراك النظريات، فإنها في الحقيقة أسباب ظاهرة ونسميها أسباباً معدّة لاستعداد النفس بها لتلقّي المعارف، وليس هي بموجبات.

فمن اقتصر على هذه الأسباب الظاهرة المعدّات، قد يختلف عنده الوصول إلى المعلومات وقد يتخلف فلا يصل. على أن الاستعداد القريب يتفاوت في أفراد الناس: فرب إنسان بالغ في جمود القريحة وخمود الفطنة على وجه لو أكّب طول عمره على مسألة واحدة لتعذر عليه تحقيقها، ورب إنسان يكون بضد ذلك حتى أنه لو التفت ذهنه إلى الشيء بأدنى التفاتة حصل له العلم والمعرفة.

فليس الناس على درجة واحدة، والقلوب مختلفة صفاء وكدورة في القريحة وقوةً وضعفاً في الذكاء وقلّة وكثرة في الحدس، وقلنا أن كل إنسان لا يخلو من قوة حدس مهما كانت ضعيفة، فقد يلمع خاطره بحقيقة من الحقائق ويسبق ذهنه إليها من غير مزاولة لحدودها الوسطى، وإن كان قد يلتمس لها البراهين بعد ذلك، وقد يكابر نفسه وإن كان لا يشعر أن مآتي أفكاره

وواردات قلبه كلها بواسطة محاكمات تفكيره وصنيع ذهنه بترتيب الحدود ولاسيما إذا كان من المولعين بالنظر والبحث.

والنتيجة من كل ذلك: إنا ننكر أن يستقل إنسان له استعداد نفس في تحصيل معلوماته على البحث والبراهين البحتية، من دون أن تطفر إلى ذهنه بعض المعارف من سبب لا يدري به بطريقة الحدس والإلهام.

ولكن — مع ذلك — أن من انغمر في الطريق البحتية الصرفة، ولم يربّ في نفسه ملكة الذوق والإشراق، يكون في إدراكه للحقائق بالبرهان وحده كالأعمى الذي توصف له المرئيات، فيعلمها علم الغائب عن مشاهدتها، وإن كان علمه مطابقا للواقع أو كفاقد الذوق الذي يدرك معنى حلاوة السكّر بالوصف. وليس هو كمن له ذوق شهودي وإشراق نفسي، إذ ينظر إلى الحقائق بعين باطنه البصيرة، فيكون كالمبصر الذي يرى المنظورات مشاهدة، أو كمن ذاق السكّر فيجد حلاوته، فيعلم من كيفيتها ما لا يعرف بالوصف مهما كان بالغاً في الدقّة.

فهذا هو التفاوت العظيم بين أنظار الباحثين وبين العرفاء المتألّهين على أنه قد يصل العارف إلى بعض الدقائق من أحكام الموجودات مما لا يمكن الوصول إليه إلاّ بالمكاشفات الباطنة والمشاهدات السرّية والمعاينات الوجودية، ولا يكفي فيه حفظ القواعد البحتية والاصطلاحات العلمية، فيحرم صاحب النظر من كثير من الدقائق التي لا ينالها النظر البحت ... ثم سكت منتظراً لما قد أقوله.

أما أنا فشكرت شيخ الفلاسفة على بيانه المبسط عن طريقته ثم انتبهت من غفوتي مسروراً. ولا أزال مستغرباً من إيمانه الذي لا يتزلزل بطريقته الإشراقية.

(٦)

مع الشيخ الرئيس ابن سينا

رجعت إلى حلمي، وفي نفسي ما فيها عن الطريقة الإشراقية، لاسيما أن الرئيس العظيم ابن سينا لا يرى هذه الطريقة، فحدثت نفسي لو أسأله عن رأيه في هذا الفيلسوف الشيخ الكبير، فقلت:

أيها المولى أترى أن الرئيس الشيخ ابن سينا يقصر عن إدراك الحقائق الفلسفية وأحكام الوجود، وهو لا يرى طريقة الإشراقيين، ولا يقيم وزناً لما تسمّونه المكاشفات الباطنية، ولا يعتمد إلاّ على ما يسوق إليه قائم البرهان.

هو: نحن نعظم شأن هذا الشيخ ونكبر قدره، ولا نرى في حكماء الدورة الإسلامية من يدانيه في توقد ذهنه واستعداد نفسه وقوة عارضته، وما كان خلواً من المكاشفات، ولكنه كان قد صرف الوقت في أمور غير ضرورية، كاللغة ودقائق الحساب والطب ونحوه من العلوم الجزئية التي خلق الله لكل منها أهلاً، واشتغل أيضاً بأمور الدنيا وعلايقها وطلب الجاه والرفعة قبل استكمال نفسه وتمام ذاته بالرياضات والمجاهدات فلم يبلغ مبلغ من لا يشغله شأن عن شأن، وقد اعترف في جوابه لأحد تلاميذه بذلك، وقد سأله أن يعيد تأليف تصنيف له مفقود فقال: (بأنه قد انسلخ من العلم لكثرة أعماله حتى لا يلحظه إلاّ من وراء سجف ثخين) وله شبيه هذا الكلام في جواب تلميذ آخر.

فلذلك وقع هذا الشيخ العظيم في الزلات والقصورات الناشئة في الذهول عن حقيقة الوجود وأحكامه. والعجب أنه كلما انتهى بحثه إلى تحقيق الهويات الوجودية دون الأمور العامة والأحكام الشاملة تبلّد ذهنه وظهر منه العجز، وقد أحصينا عليه مواضع تلك القصورات التي تنوف على الثلاثين في السفر الرابع في بحث (كيف تكون قوى النفس شخصية منسوبة إلى نفس شخص مع تبدلها وتبدل أفاعيلها)، وأهم تلك القصورات عجزه عن إثبات حشر الأجساد، وإنكار اتحاد العاقل والمعقول واتحاد النفس بالعقل الفعال، وإنكار الصور المفارقة أي المثل الإفلاطونية ... إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتابنا.

أنا: يا سبحان الله! إن بعض هذه الأمور التي شنّعت بها على الشيخ الرئيس، قد أحصيت عليك مؤاخذات لا تغتفر في مخالفتك له بالرأي فيها، بل نسبت في بعضها إلى ما لا ينبغي أن أذكره، منها مسألة اتحاد العاقل والمعقول.

على أنه ليس وحده في حكماء الإسلام قد أنكر اتحاد العاقل والمعقول واتحاد النفس بالعقل الفعال، وقد سبقه إليه الفارابي ولحقه الشيخ نصير الدين الطوسي، بل ليس في حكماء الدورة الإسلامية من يوافق الأقدمين في القول بالاتحاد ويعدونه قولاً شعرياً غير معقول، ووصف الرئيس في الإشارات كتاب (فرفوريوس) في العقل والمعقولات الذي كان يثني عليه المشاؤون بأنه حشف كله، وقال: (هم يعلمون في أنفسهم أنهم لا يفهمونه ولا فرفوريوس نفسه).

هو: وأما بنعمة ربك فحدث أن مسألة كون النفس عاقلة لصور الأشياء المعقولة، واتحادها بها، فمن أغمض المسائل الحكمية التي لم تنفتح لأحد من علماء الإسلام إلى يوم تأليفي للأسفار ونحن لما رأينا صعوبة هذه المسألة

توجهنا توجها جبلياً إلى مسبّب الأسباب، وتضرعنا تضرعاً غريزيّاً إلى مسهّل الأمور الصعاب، إذ كنّا قد جرّبنا مراراً، لاسيما في باب أعلام الخبرات العلمية وإلهام الحقائق الإلهية لمستحقيه ومحتاجيه، إن عادته الإحسان والإنعام، وشيمته رفع أعلام الهداية، وبسط أنوار الإفاضة، فأفاض علينا من خزائن علمه علماً جديداً، وفتح على قلوبنا من أبواب رحمته فتحاً مبيناً، و﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾[1].

فقد تم عندي بالبرهان الذي ألهمني الله تعالى به اتحاد العاقل والمعقول، وكأن تحقيق هذا المطلب الشريف كان وقفاً على الأوائل لم يتوارثه أحد من العلماء النظّار أولي البحث والاعتبار لولا أن منّ الله تعالى على بعض الفقراء المساكين (ويعني نفسه) وشرح صدره بقوة العزيز الحكيم.

وإذا كان هذا حال هؤلاء المعتبرين من الفضلاء كأبي نصر الفارابي والشيخ الرئيس والمحقق الطوسي في هذا الأمر العزيز المنال، فماذا تنتظر من أصحاب الأوهام والخيالات وأولي وساوس المقالات والجدل غير الإنكار والتشنيع، وليس لهم سلاح إلاّ التكفير والتشهير.

وبينا هو في هذه الثورة النفسية ينحدر كالسيل في تفنيد آراء خصومه إذ تنبهت إلى نفسي فانتبهت من رقدتي إلى حيث اللقاء.

---

(١) المائدة ٥ : ٥٤، الحديد ٥٧ : ٢١، الجمعة ٦٢ : ٤.

(٧)

نشأته العلمية

مرت تلك الأحلام المثيرة التي يطغى عليها شيء من الخصومة المنبهة للعواطف فيظهر عليها شبح الحرب التي لا هوادة فيها بين الفلاسفة وبين سائر الناس الذين يرون في الفلسفة المروق عن الدين والخروج على التقاليد والاستحقار للبشر.

مرت تلك الأحلام فنبّهت فيّ داعي الفضول إلى معرفة النشأة العلمية لصاحبنا شيخ الفلاسفة وأثر تلك الحرب فيها وفيما جرى عليه من طريقة في تأليفه ونشره الفلسفة وكفاحه في سبيلها.

ولما أن استسلمت نفسي لأحلامها بادرته بالسؤال :

أيها المولى الجليل ، لو كنت قد سرت في حياتك على منهاج والدك ألم يكن أجدى لك ، وكنت أهدأ بالاً وأقل عناءً من تلك الخصومات والملاحاة ، وقد كان أبوك من الصالحين ، ومن أجلّ الوزراء المحترمين لدولة فارس في (شيراز).

هو : إني إنما وفقني الله تعالى إلى ما أنا فيه من الوصول إلى مقام المقرّبين ، فبدعوة والدي الصالحة ، فقد كان رحمه الله لم يولد له ولد ذكر قبلي ، فدعى الله تعالى بدعوات خالصة ، ونذر أن ينفق أموالاً خطيرة على أهل العلم والفقراء المؤمنين ، إذا أعطاه الله ولدا ذكراً صالحاً موحداً وقد استجاب الله تعالى دعوته وقبل نذره بولادتي ، فوفى بما نذر ، وكان لهذا النذر والإنفاق الذي كان ينفقه

من أجلي أثره البليغ في نفسي، فتوجّهت توجهاً غريزياً إلى طلب العلم وإلى الله تعالى، وأنفقت ما خلّف لي والدي في سبيل ذلك من حطام الدنيا الفانية.

ولما انتقل والدي من دار الفناء إلى نشأة البقاء، وبلغت أشدي بعد أن درست العلوم الأولية، أراد بي الكريم المنعم أن يؤتيني الخير الكثير، فسافرت من (شيراز) مسقط رأسي ومحل نشأتي إلى (أصفهان) عاصمة العلم والسلطان يومئذ، فوفقني الله تعالى لأن أتصل بالشيخ الجليل أستادي ومن عليه في العلوم النقلية استنادي عالم عصره وشيخ دهره مجدد المذهب على رأس المائة الحادية عشرة الشيخ (بهاء الدين محمد العاملي)[1] نور الله قلبه بالأنوار القدسية المتوفي ١٠٣١هـ.

وكانت أصفهان يومئذ تزخر بالعلم والعلماء وبأهل الله والمتألهين، كهذا الشيخ الجليل، وللفلسفة والتألّه سوق خفية وعليها ستار من التقية من غلبة الظاهريين وأعداء الحكمة واليقين، على أنها رائجة بين أقوام تنوروا بنور الهداية ولاحظوا أعلام القدرة الإلهية، وملوك العصر السادة الصفويون يحدبون على الحركات العلمية ويمدّونها من مكان قريب بنفحاتهم، وللعلماء عندهم منزلة عالية لا تدانيها منزلة أي شخص آخر، مما يشجع أهل العلم والمعرفة على الزهد بما في أيدي الناس وما عليه أهل الدنيا من الاستكثار منها للشرف العاجل والتفوق الزائل.

---

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي الحارثي الهمداني ولد في بعلبك سنة ٩٥٣هـ وتوفي في أصفهان سنة ١٠٣١هـ ودفن في مشهد الإمام الرضا عليه السلام شيخ الإسلام ومن أكابر العلماء الربانيين تشهد له آثاره التي تخطت إطار العلوم الشرعية ومؤلفاته الدالة على سمو مقامه. محمد حرز الدين، مراقد المعارف ١ : ٢٠٤.

ولا أنسى فضل هذا الشيخ العظيم الإلهي على تربيتي وأثره في توجيهي وتغذيتي بما أعدني للرواشح الإلهية، فإنه — وهو هو في منزلته العلمية ومقامه الرفيع في المعارف وهو (شيخ الإسلام) — لما أعجب بي بعد أن مثلت بين يديه لحضور دروسه مدة ليست بالقصيرة، تواضع لله تعالى وأبت نفسه الشريفة إلاّ أن يشير علي بالحضور لدى السيد الجليل أستاذي الأكرم في المعالم الدينية وإستنادي في العلوم الإلهية والمعارف الحقيقية الفيلسوف العظيم والرباني المتألّه أعجوبة الزمان وأمير البيان في عصره السيد محمد باقر الداماد(١) المتوفي ١٠٤١هـ الذي كان يضيء إشراق نوره مستديماً على تنوير قلوب السالكين وتطهير نفوس المستعدين.

فإن الشيخ رحمه الله أرسلني إلى السيد المذكور في طلب كتاب يستعيره منه وكان ذهابي إليه في وقت إلقاء درسه، فصادفت تدريسه، ولم أعلم أن وراء الأكمة ما وراءها، فلما رجعت كشف لي عن غرضه النبيل الذي لم يكن على ظاهره من طلب الكتاب، وإنما أرادني أن أتعرف إلى سيدي ويتعرف بي فأعرف بنفسي عظمة ما عنده من علم وفضل، وشدّة حاجتي إلى الحضور لديه، ثم أمرني أن أتلقى عليه علومي بعد أن اعترف له بمنزلته العلمية وباستغنائي عن الاستمرار على الحضور عنده نفسه.

---

(١) السيد محمد باقر بن محمد الحسيني الأسترآبادي المعروف بالميرداماد، لم يعرف تأريخ ولادته وتوفي بالنجف سنة ١٠٤١هـ عن عمر يناهز الثمانين الحكيم المتأله المتكلم تتلمذ لدى الشيخ حسين عبد الصمد والد الشيخ البهائي وعلى خاله الشيخ عبد العالي بن علي الكركي من أبرز تلاميذه صدر المتألهين الشيرازي والفيض الكاشاني والشيخ عبد الرزاق اللاهيجي، أشهر مؤلفاته الرواشح السماوية والصراط المسقيم والقبسات والسبع الشداد.

ولم يكن يصدر مثل هذا التواضع لله إلاّ من نفس علت فبلغت أوجها وزكت فلم تفرق بين ما لها وما عليها من شؤون هذه الدنيا الزائلة، وما اصطلح عليه أهلها من أمثال الجاه والخداع والادّعاء والترفّع عن الحق والاستنكاف عن الصدق لما ارتكسوا في غرورها وارتطموا في أهوائها.

فكان هذا الحادث من أعظم ما صادفت في حياتي العلمية ويصادفه إنسان، فوثب بنفسي وثبة يعلم الله أين منتهاها، وشعرت أني بين نفوس لا يبلغ البيان وصف علياها، فكانت نوراً بين يدي اهتديت به في الظلماء وسرت بإشراقه إلى مراقي العلياء.

وأني لأحمد الله تعالى على ما أوتيت من النعمة التي يقصر عن شكرها اللسان ويعجز عن إحصائها البيان ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾[١]، ﴿ **وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[٢].

فإن من فاز بالمعارف الحقة وأنست نفسه لذكر الله، وأحكمت المسائل، وأتقنت العلوم والمعارف على أتم وجهٍ وأبلغه كما يقع للراسخين في العلم، فإنه يجد من اللّذات العقلية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ﴿ **فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** ﴾[٣]، وأظنه لم يخف عليكم أن المعرفة التامة في هذه الدنيا بذر المشاهدة التامة في الآخرة وحصول البهجة الكاملة في دار الخلود، حيث يبلغ المرء درجات المقربين ومصاحبة القديسين الذين لا سعادة فوق مشاهدتهم.

---

(١) الجمعة ٦٢ : ٤.

(٢) البقرة ٢ : ٢٦٩.

(٣) الزخرف ٤٣ : ٧١.

فكيف بعد هذا — يا رفيق وحدتي — تتمنى لي أن أكون على منهاج أبي الصالح فأتنّزل عن هذا المقام الكريم، ألا تعلم أن الشرف والسعادة الحقيقيين إنما يحصلان للنفس من جهة جزئها النظري الذي هو أصل ذاتها وأمّا ما يحصل لها بحسب جزئها العملي الذي هو جهة تعلّقها بالبدن وإضافتها، فليس لها بحسبه من الاغتباط إلاّ السلامة من المحنة والبلاء والطهارة من الشين والرجس، وهذا بمجرده لا يوجب الشرف الحقيقي والابتهاج التام العقلي، وإن كان لأهل السلامة كالزهاد والصلحاء ضرب آخر من السعادة تناسبهم.

أنا: لقد أطلت أيها المولى المتأله في التحدث عن نفسك وأعتقد أنه من باب الامتثال لقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾[1] وإني ليلذلي الاستزادة من مثله، وقد وجدتك تعظم أستاذك السيد الداماد كثيراً، فهل فلسفتك عين فلسفته، ومنها أخذت طريقتك في الإشراق؟

هو: إن هذا السيد لعظيم المنزلة جليل القدر في المكاشفات والوصول إلى غوامض الأسرار، وقد تلمذت عليه فأخذت منه أصول هذا العلم زمناً طويلاً، حتى إذا بلغت ما يشعر به المرء من الاعتداد بنفسه وبتفكيره وما يستعد به لتلقي الهواتف القلبية، وقد صادفت في أثناء غوري في بحر الحكمة الزاخر أصدافاً علمية مدعمة بدعائم البراهين حاولت أن أشق تلك الأصداف، وأستخرج منها دررها الثمينة في كتاب جامع بعد رسائل صغيرة ألفتها كرسالة طرح الكونين ورسالة التصور والتصديق، لأحرر الفلسفة لطالبيها، وأكشف عن غوامضها الستار وأنشرها بين أهلها وأزيّنها

---

(١) الضحى ٩٣ : ١١.

لعيون من يتغاضى عنها، لولا أني رأيت الناس قد استرذلوا العرفان وأهله وانصرفوا عن الحكمة زاهدين بقيمتها جهلاً وعناداً، وقد اندرس العلم وأسراره وضاعت السير العادلة وشاعت الآراء الباطلة ولاقيت من عدائهم للمعرفة وحرية الرأي ما أشرقني بريقي وضيّق عليّ مصدري ومَوردي، ومن العجيب أن كل من كان في بحر الجهل والحمق أولج كان إلى أوج القبول والإقبال أوصل وعند أرباب الزمان أعلم كيف ورؤساؤهم قوم عزّلٌ من سلاح الفضل عاريةٌ مناكبهم من لباس العقل والرشاد، فلما رأيت الحال على ما وصفت ضربت عن أبناء الزمان صفحاً وطويت عنهم كشحاً وانزويت في بعض جبال قم واستترت بالخمول والإنكسار منقطع الآمال منكسر البال متوفراً على فرض أؤديه وتفريط في جنب الله أسعى في تلافيه لا على درس ألقيه أو تأليف أتصرف فيه، إذ التصرف في العلوم وتبين المقاصد ودفع المشكلات مما يحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخيال عما يوجب الملل والخلل واستقامة الأحوال مع فراغ البال، وأين ذلك ممن يسمع ويرى من قلة الإنصاف وكثرة الظلم وخفض الأعالي ورفع الأداني وظهور الجاهل الشرير على صورة العالم النحرير وهيئة الحبر الخبير.

فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى وأمسكت عن مخالطة الناس وآيست من مرافقتهم وسهلت عليّ معاندتهم ومعاداة الدوران، وتساوى عندي إعزازهم وإضرارهم، وتوجهت توجهاً غريزياً نحو سبب الأسباب، ولما بقيت على هذا الحال زمناً طويلاً وأمداً بعيداً اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهابا قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، فاطلعت على أسرار لم أكن اطلعت عليها وانكشفت

لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان، فزكى العقل وإذا به ماء شجاج وبحر موّاج أودية الفهوم سالت من فيضه بقدرها، فاقتضت رحمته ألاّ يختفي في البطون، فألهمني الله تعالى أن أؤلف كتاب (الأسفار) بعد أن كنت ألّفت في سالف الزمان بعض الرسائل، فنهضت عزيمتي بعد أن كانت قاعدة، واهتز الخامد من نشاطي، فبلغ الكتاب أجله، وتفرّدت فيه بأمور شريفة عالية خلت عن مثلها زبر الأولين وإن كانوا من الأساطين وكثير منها مما لم يمكن أن أنص عليه خوفاً من الاشتهار ولقصور الطباع غير المهذبة عن دركها من الكتابة أو المقال، قبل تهذيبها بنور الأحوال.

وقد ألّفت الأسفار ولا يزال سيدي الأجل الأستاذ في قيد الحياة، وإليه الإشادة من أهل العلم وعليه الاستناد، وإن كانت الحوائل أبعدتني عنه، والشواغل منعتني عن الاتصال به، وله الفضل عليّ في شق الطريق لي إلى بلوغ الدرجة الرفيعة، وإن خالفت نظره الكريم في جملة من المسائل العويصة، كمسألة أصالة الوجود وحدوث العوالم حدوثاً زمنياً، وأصالة الوجود هي أساس فلسفتنا وبها ينكشف كثير من غوامض العلم وأسرار الحياة، وقد كنت تبعاً لأستاذي الجليل شديد الذب عن القول بأصالة الماهية، حتى هداني ربي و انكشف لي انكشافاً بيّناً أن الوجودات هي الحقائق المتأصلة الواقعة في العين وأن الماهيات ما شمّت رائحة الوجود أبداً.

أنا: فلماذا لم تذكروا المواقع التي خالفتم فيها أستاذكم، كما صنعتم في مخالفتكم للرئيس ابن سينا وغيره.

هو: أني لأجلّ أستاذي ومن كان عليه معولي في العلوم أن أذكره في مقام المعارضة والنقد والمناقشة والرد، فلذلك أكتفي ببيان الحق وما يقود إليه البرهان، تأدباً معه وابتعاداً عن النص على مخالفته.

وبينا استمع إلى هذا الحديث الممتع إذ استيقظت من غفوتي آسفا على انقطاعه.

(٨)

طريقته في التأليف ونشر الفلسفة

استسلمت لتهويم خيالي في هذه المرة التامة، ليكشف لي عن طريقته في التأليف ونشر الفلسفة، وسر مناهضة الناس له، ولما تمثل لي شبحه المهيب سألته : -

أيها المولى الجليل ذكرت في الأسفار أنك لم تنص على بعض الأمور خوفاً من الاشتهار ولقصور الطباع غير المهذبة عن دركها من الكتابة أو المقال قبل تهذيبها بنور الأحوال وما أحسبك احتطت في كثير من المسائل التي استرسلت بها في البيان حتى قلت في رسالة الحدوث : (ولّما كانت هذه المسألة عندي في غاية الوضوح والإنارة لم أجد من نفسي رخصة في كتمانها... على من يستأهلها...) وهكذا كانت طريقتك في كثير من الدقائق العلمية والمسائل المستعصية لاسيما في (الأسفار).

ولذا رميت بما رميت به مع أن أستاذك ومرشدك سلم من الحملات التي وجهت إليك، فما السر في ذلك؟

هو: من ظريف المصادفات أني رأيت أستاذي فيما يرى النائم بعد وفاته، فشكوت إليه أمر الناس وسألته هذا السؤال نفسه وقلت: كيف سلمت أنت من أذى الناس دوني مع أن ما رميت بسببه من القول فعنك أخذته كالقول بوحدة الوجود، فقال: الذنب ذنبك، لأني كلّمت الناس بابن عم الكلام، فلم يفهم مقاصدي إلاّ الخاصة من أهل المعرفة، وأنت تبسطت في بيان آرائك

حتى طمع فيها كل قاريء ، وهذه أمور لا يطّلع على مغزاها إلاّ من رزق طريق الكشف واليقين، ولا ينتفع بها إلاّ من أحاط بأكثر كلام العقلاء ووقف على مضمون مصنفات الحكماء.

ولقد كان هذا الحلم صحيحاً، فإني أردت أن أحيي ما انطمس من العلم بعد أن رايت الجهل فاشياً كما وصفت لك، فضحيت بنفسي وتحرّيت جهد استطاعتي التأنق في العبارة وسهولة الأداء ووضوح البيان، حتى لا يبعد الطريق على طلاب الحقيقة، وأستطيع التأثير على القارئين والسامعين.

على أني مع ذلك لم أقصّر في الاحتياط : أمّا من جهة بياني الشفوي فكنت أحاول أن أسحر السامعين وأجلب قلوبهم لأنتقي منهم تلاميذ ذوي فضل أكشف لهم أسرار العلم، وكنت أسعى ألاّ أثير كوامن الريبة في نفوس الظاهريين، فأتّقي في كشف آرائي، وكنت إذا هبطت مدينة أحرص على زيارة علمائها والتودد إليهم، وأجلس في آخر الناس وأطيل الصّمت، فإذا تكلمت أنطق بكل هدوء وسكينة، وإذا سألت عن المعارف العالية لا أشير أبداً أني أعني بالفلسفة، وإذا طلبوني للتدريس أجعل عنوان درسي باباً من أبواب الفقه أو الأصول أو الكلام، ثم أزيد المسألة تدقيقاً على نحو ما يفعله أمهر العلماء في نظرياتهم، حتى أتوصل بالأخير إلى نشر الحقائق العلمية وبيان المعارف الحقيقية في الوجود والتوحيد والنبوة والإمامة ومعاد الناس وبقائهم بعد الموت.

وأما من جهة بياني التحريري في مؤلفاتي، فما أحسب أحداً يستطيع أن يصل إلى مغازي ما أرمى إليه من دون أن يتلقاها مني مشافهة أو من أحد تلامذتي الموفقين أو تلاميذ تلاميذهم، مع ما بالغت فيها في كثير من المواضع

من وضوح العبارة وسهولة البيان، غير المواقع التي تعمدت فيها الرمز والإيماء على عادة الفلاسفة المتقدمين والسر في ذلك أن المباحث المثبّتة في الدفاتر المكتوبة ليس الفائدة منها إلاّ مجرد الإنتباه والإحاطة بأفكار ذوي الأنظار، لتجعل الطالب مستعداً لسلوك سبيل المعرفة والوصول إلى الأسرار إن كان ممن يقتدي بطريقة الأبرار.

أنا: إذاً مع هذا الإحتياط كيف رميت بما رميت به؟ وأغلب الظن أنك لو بسطت آراءك كل البسط لما كان مجال لطعن الطاعنين، كما أنك لو تعمدت اللّغز فيها كالمؤلفين السابقين لبعدت عنك أنظار المهاجمين، فلما سلكت طريق الوسط طمع في فهم كلامك المتطفلون على مائدة العلم وفتح لهم مجال الظنون.

هو: ليس الأمر كما تظن فقد ذكرت لك أن بعض الأمور والمعارف لايمكن أن تصل إليها الأفهام من المقال مهما كان واضحاً فضلاً عن الكتابة والنقوش على الورق، ما لم يتذرّع السالك بالمجاهدات العقلية والتوجه إلى الله تعالى بتصفية الباطن.

والظاهريون المساكين يرمون كل باحث في الفلسفة بالكفر والإلحاد معاداة لها وعناداً، وإن لم يطّلعوا على رأي الباحث ومذاهبه، وأما أستاذنا السيد الداماد فالذي حفظه عن أنظار الناقمين أنه كان يتكتّم حتى في العناية بمسائل الفلسفة، على أن له من مقام رفيع ومنزلة اجتماعية مهابة ما يوقف المغرضين عند حدهم.

أنا: إذا كان غرضك من نشر الفلسفة ما ذكرت أولاً، وقد وطّنت نفسك على أن يسلقوك الناس بألسنتهم الحداد، فلماذا تكثر اللّوم على الناس وأنت قد عانيت منهم معاداتهم لأهل الحكمة والعرفان وقصور أكثرهم عن الوصول إلى حقائق الفلسفة وأسرارها؟

هو: ليس قصورهم مما يدفع ذماً أو يقصّر من لوم، مع أنهم مطالبون بالإنصاف وعدم التسرع في الطعن بما لا يعلمون، إذا سلّمنا أنهم لم يكونوا مسؤولين عن تقصيرهم في المعرفة وعدم سلوكهم طريق أهل الله الأصفياء.

على أنهم مسؤولون عن ذلك، فإن معرفة الله تعالى وعلم المعاد المطلوبين في الشرع ليس المراد بهما الاعتقاد الذي يتلقاه العامي أو المتّفقه وراثة وتلقفاً من طريق التقليد أو من طريق تحرير الكلام والمجادلة أو من مجرد البحث البحت.

ثم إن حملاتي التي تشير إليها أرمي بها شيئاً آخر على الأكثر، إنما أقصد إلى تقليل خصومي والتأثير على تلاميذي والآخذين بطريقتي حتى لا يتأثروا بأقوال الظاهريين، فإني أكشف بذلك نواياهم وجهلهم.

وهذه — طريقة التنديد بالخصوم — يتبعها المصلحون وتقتضيها ضرورة نشر الإصلاح، ألم تقرأ القرآن الكريم وما فيه من تقريع للكافرين ومن لا يدخل في زمرة المؤمنين.

أنا: إن الإنسان من جبلته الاعتداد بنفسه وبأفكاره، فإذا رزقه الله تعالى شيئاً من الفهم والقدرة على ملاحظة الأشياء يتطاول فيظن الظنون في نفسه فلا يشعر بنقصانها، وأنتم — معاشر الفلاسفة — لماذا أكثرتم من الوصية في عدم إذاعة الفلسفة لغير أهلها، أليس ذلك خوفاً من النفوس الضعيفة ألاّ تصل إلى مقاصدكم، فترميكم بالمروق عن الدين، حتى قلت أنت في مقدمة الأسفار: (واقتد بقول سيد الكونين أمير المؤمنين: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتضلوها ولا تمنعوها أهلها فتظلموها)، ثم قلت: (فعليك بتقديسها عن الجلود الميتة، وإياك واستيداعها إلا للأنفس الحيّة كما قرره وأوصى به الحكماء الكبار).

وأنت بتأليفك لهذه الكتب الواضحة المبسطة، وبإكثارك منها جعلت لكل أحد الطمع في قراءتها واكتناهها كما قلت سابقاً، فأفشيت ما أوصيت بإخفائه، فكنت أنت الذي فتح الباب على نفسه.

هو: إنما نوصي بتلك الوصية خوفاً على النفوس الضعيفة أن تضل عن الصواب وشفقةً عليها من سوء فهم مغازي الحكماء، لا خوفاً منها أن ترمينا بما نحن براء منه، ولا ينبغي لمن يتكل على الله تعالى أن يخشى الناس.

أنا: إذا لماذا الجزع والتقيّة.

هو: نحن إنما نجزع ونتقي من فئة يعادون الحكمة والاستنارة بنور العقل ويخاصمون المفكرين العقلاء على كل حال، خوفاً على ما عندهم من جاه عريض ومنزلة بين سواد الناس، أولئك هم المفتونون بالدنيا، فيضلّلون العوام والضعفاء والبلهاء عن عمد وعناد، فيحولون دون انتشار العلم وإذاعة الحقائق.

ولسنا نخشى المغفلين والمستضعفين ومن ليس في قلوبهم داء العناد وحب الشهوات.

ألا أذكر لك بعض حوادث هؤلاء المغفلين المسلّية.

أنا: لا بأس.

هو: بعد أن أفتى بعضهم بكفر أحد تلاميذي بالواسطة وهو (الملا محراب علي) على القول بوحدة الوجود، خرج هارباً بحياته من إيران حتى إذا وصل متنكراً إلى كربلاء ودخل الحرم رأى شيخاً مكباً على ورده من التسبيح، ولما أصغى إليه سمعه يسبح بلعن الملا صدرا والملا محراب علي، فعرف أن خبر الفتوى قد سبقه إلى هنا، فأعجبه أن يكشف لهذا المسكين غفلته، وسأله وهو لا يعرفه طبعاً:

ـ هل تعرف الملا محراب علي؟

ـ لا.

ـ فلماذا تسبّه وتسب الملا صدرا بتسبيحك.

ـ إنّه يقول بوحدة (واجب الوجود) تبعاً لأستاذه المذكور.

ـ عجيب! يقولان بوحدة (واجب الوجود)!؟ إنهما حقيقان باللعن من أمثالك المؤمنين.

وهنا شعر المطارد المسكين الملاّ بالخيبة، إذ كان هذا مبلغ فهم هؤلاء المغفلين، فلم يفرق هذا الجاهل بين وحدة الوجود ووحدة واجب الوجود، فخرج هارباً من أرض تعتبر الموحّدين مشركين والمؤمنين كافرين، انقياداً لأولئك المعاندين.

وألى هنا انتبهت من رقدتي، وتمنيت لو يرى رواج فلسفته في العصور المتأخرة، وكيف أثر جهاده في الإصلاح الذي كان ينشده.

(٩)

عشق الظرفاء

الحق أن صاحبنا المرحوم المولى صدر الدين الشيرازي من عظماء الفلاسفة الإلهيين الذين لا يجود بهم الزمن إلاّ في فترات متباعدة من القرون، وقد مضى حتى الآن على وفاته أكثر من ثلثمائة عام ولم نعرف في العالم الإسلامي من جاء في هذه الفترة وهو يستحق أن يشقّ غباره، وكل من جاء بعده فإنما فخر المتقدم منهم أن يقال عنه أنه يفهم أسرار كلامه أو أنه من تلاميذه ولو بالواسطة، فتجد أساتذة الفن يفخرون أنهم يتّصلون به في سلسلة التلمذة، حتى أنهم يبالغون في العناية بحفظ أسماء أشخاص هذه السلسلة، على نحو العناية برواية الحديث الشريف.

وأكثر من ذلك أن أستاذنا الأعظم المحقق الجليل الحجة الشيخ محمد حسين الأصفهاني المتوفي سنة ١٣٦١هـ[1]، وهو هو في منزلته العلمية التي لا تجارى في هذا الفن سمعت أنه كان يقول: (لو كنت أعلم أحداً يفهم أسرار كتاب

---

(١) محمد حسين بن الحاج محمد بن الحاج محمد حسن معين التجار المعروف بالكمباني (١٢٩٦ — ١٣٦١هـ) من أجلاّء المجتهدين والفلاسفة تخرّج في النجف على كبار أساطين العلم والاجتهاد وفي طليعتهم الشيخ الآخوند الخراساني وعُدّ من أكابر أساتذة النجف له مؤلفات قيّمة حيث كان مشاركاً في الكلام والتفسير والحكمة والعرفان والأدب. وقد كتب عنه المرحوم الشيخ المظفر دراسة مستفيظة منشورة. معجم رجال الفكر والأدب في النجف للأميني ١ : ١٣٤.

الأسفار لشددت إليه الرحال أين ما كان في أنحاء المعمورة لأدرسه عليه)، وكأنّ شيخنا يريد بهذا أن يفتخر بأنّه بلغ وحده إلى درجة من العلم أدرك فيها أنه عاجز عن اكتناه كل أسرار الأسفار، أو يريد أن يقول ليس أحد يفهمه غيري.

وعلى كل حال، فمَن مميزّات هذا الرجل العظيم زيادة على سمو تفكيره و حرية رأيه وصراحته في تسجيل أفكاره، واعتداده بعقله، وأن خالف رأيه جميع الناس حتى كان يقول: (المتبع هو البرهان وأن كان فيه أحداث قول لم يقل به أحد).

ومن المباحث التي ظهرت فيها شجاعته الأدبية المسألة التي ذكرها في السفر الثالث تحت عنوان (عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان)، ويعني بعشق الظرفاء الحب العفيف للملاح من الغلمان خاصة، فذهب إلى وجوده وأنه ممدوح بل لازم لمن أراد السلوك إلى الله تعالى واستعمل في هذه المسألة البيان الواضح الأخاذ، وآراؤه الجريئة فيها تعد من المآخذات عليه عند الناس.

فلذا أستمحيكم العذر في أن أستحضره في حلمي هذا التاسع لاستعراض رأيه في هذا الموضوع الشيق، وأنا واثق أنه سوف لا يشجع العشّاق على الاستزادة من ولهم أو جنونهم، ولا يغري الخلي على الوقوع في محنة الهوى وله عقل، وإن كنت أظن أنه سيطلع رؤوس بعض العاشقين الذين يقبعون على أنفسهم وهم يحسون بالوحشة عند ما يفتضح سرهم.



تهيّئوا! الآن أحضره في (حلم اليقظة)! فلأستفهم منه!

ــ هل تسمح لي — أيها المولى الجليل — بالسؤال عن رأيك في عشق الظرفاء، على ما يشاع عنك؟

هو: سل ما بدا لك!

أنا: أو تأذن بإذاعة حديثنا بين الناس؟

هو: أي مانع من ذلك؟

أنا: لقد اتفق لي أني أطلعت بعض المتفقّهين الأفاضل على هذا الموضوع من كتابك الأسفار، وكان درسنا الفقهي في جواز النظر، فأظهر الشماتة بك إذ يسجل قلمك مثل هذا الرأي الغريب، وطلب بإلحاح أن يذاع هذا الموضوع في الصحف السيارة، انتقاماً منك، لأجل أن تفضح آراؤك، حتى لا يغترّ الناس بك.

هو: إني لأرغب في إذاعة آرائي العلمية حتى يعم الانتفاع بها، ومن يسجل رأيه في كتاب مثل الأسفار أتراه يحرص على كتمانه؟ ولا ينبغي أن يكتم ألاّ على أهل الجلود الميتة.

أنا: إن ما يسجل من الآراء يصبح ملكاً مشاعاً لجميع القراء، فمن لنا باختيار من نرغب فيه منهم، ولو احتطنا فاستعملنا الرموز فلا يمنع ذلك من قراءة من يتخيل أنه قادر على حلها، فتكون المصيبة أعظم، فأرجو أن تجيبني بالصراحة التي استعملتها في كتابك، أفصحيح أنك تستحسن هذا العشق.

هو: نعم! إن هذا العشق أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة والحب المفرط لمن وجدت فيه الشمائل اللطيفة وتناسب الأعضاء وجودة التركيب لا ينبغي الشك بحسنه وأنه ممدوح، ويدل على ذلك النظر الدقيق وملاحظة الأمور عن أسبابها الكلية ومباديها العالية، وغاياتها الحكمية، ولا نصغي إلى من يقول أنه رذيلة، فيذمه ويذكر مساويه إذ يجعله من فعل البطالين والعاطلين، لأنّا نجده موجوداً على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر

الأمم من غير تكلّف وتصنّع، فهو لا محالة من جملة الأوضاع الإلهية التي يترتب عليها المصالح والحكم، فلابد أن يكون مستحسناً ممدوحاً.

أنا: ماذا تقصدون من كونه مستحسنا ممدوحاً؟ أتقصدون أنه ممدوح عند العقلاء أي أنه من القضايا المشهورات التي تطابقت عليها آراء العقلاء كحسن العدل والإحسان فإن الواقع يكذّبه، وأنت نفسك ذكرت اختلاف الحكماء فيه على أقوال كثيرة، وربما كان اختيارك هو القول النادر من بينها.

أم تقصدون أنه ممدوح في الشريعة المطهرة فقد اعترف أحد العلماء من اتباعك وهو الحكيم الشهير السبزواري[1] في حاشيته على الأسفار بأنه ممنوع منه شرعاً، وعلى كلٍّ لم يثبت هذا المدح في الشريعة حتى على نحو الرمز والإشارة.

هو: أقصد أنه ممدوح شرعاً، ولكن إثباته من طريق عقلي لا من طريق الأدلة اللفظية.

أنا: كيف؟

هو: تقدم ذكر الطريق.

أنا: لم أفهمه.

هو: ألسنا قلنا أنه موجود على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر الأمم من غير تصنع! هذا هو طريقنا العقلي إلى إثبات أنه ممدوح شرعاً، لأنا

---

(١) الشيخ ملا هادي بن ملا مهدي بن هادي بن مهدي الملقب بـ(أسرار) والمشهور بالسبزواري ولد في سبزوار سنة ١٢١٢هـ وتوفي بها سنة ١٢٨٩هـ علم متضلّع بالعلوم العقلية متفرداً بتدريس الحكمة والفلسفة الإشراقية واشتهر من مؤلفاته منظومته في الفلسفة. أنظر مراقد المعارف للشيخ محمد حرز الدين ١: ٣٤٠.

نعلم أن الله تعالى لا يخلق شيئاً في جبلة النفوس إلاّ لحكمة جليلة وغاية صحيحة، والعشق لا شك أنه مما جبل عليه الإنسان الرقيق القلب اللطيف الطبع وموجود في نفسه كسائر الأمور الطبيعية، لا من العادات التي تكتسب اكتساباً لوجوده في نفوس الأكثر، فيكون من الأمور المستحسنة المحمودة عند الله التي تترتب عليها مصلحة عامة للبشر.

أنا: ألا تعترف بأن الحسد والغضب ونحوهما من الصفات النفسية المذمومة قد خلقها الله تعالى في جبلة البشر، ولعل وجودها في نفوس الناس أكثر بكثير من وجود العشق، فهل تقولون بحسنها أيضاً، إذا كان هذا مناط حسن الأشياء عندكم.

هو: نحن لم نجد أحداً ممن له قلب رقيق وطبع لطيف وذهن صاف ونفس رحيمة خالياً عن هذا العشق في أوقات عمره، بينما نجد سائر النفوس الغليظة والقلوب القاسية والطبايع الجافة من بعض الأمم خالية عن هذا النوع من الحب، وإنما أقتصر أكثرهم على محبة الرجال للنساء والنساء للرجال طلباً لإشباع الشهوة الجنسية كما في طباع سائر الحيوانات المرتكزة فيها هذه الشهوة.

ومن هنا يأتي الافتراق بين العشق وبين ما قست عليه من الصفات الذميمة فإنها تختلف معه في المبادئ ثم الغايات، لأن مبادئ هذه الصفات مبادئ شيطانية لأجل غايات دنيئة، إذ أن مثل الحسد والغضب مبدؤه حب النفس والكبرياء والجبروت وغلظة القلب وقساوته الذي لا يحب الخير لغيره، وغايته العدوان على الغير وظلمه وسلب نعمته من مال أو منزلة واحترام وعز ونحو ذلك.

أما العشق فهو يقع من مبادئ فاضلة لأجل غايات شريفة وهذا يحتاج إلى شرح أما المبادئ، فلأنا نجد أكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم والصنايع

والآداب والرياضات مثل أهل فارس والعراق والشام والروم وكل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنايع اللطيفة والآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق اللطيف الذي منشأه استحسان شمائل المحبوب، فهو منبعث كما قلنا آنفا عن القلب الرقيق والطبع اللطيف والذهن الصافي والنفس الرحيمة.

وأما الغاية منه، فلما يترتب عليه من تأديب الغلمان وتربية الصبيان وتهذيبهم وتعليمهم العلوم الجزئية والصنايع الدقيقة والآداب الحميدة والأشعار اللطيفة الموزونة والنغمات الطيبة والقصص والأخبار والحكايات الغريبة والأحاديث المروية، إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية، فإن الأطفال والصبيان إذا استغنوا عن تربية الآباء والأمهات، فهم بعد محتاجون إلى تعليم الأساتذة والمعلمين وحسن توجههم والتفاتهم إليهم بنظر الإشفاق والتعطف.

فمن أجل ذلك أوجدت العناية الإلهية في نفوس الرجال البالغين رغبة في الصبيان وتعشقاً ومحبة للغلمان الحسان الوجوه، ليكون ذلك داعياً إلى تأديبهم وتهذيبهم وتكميل نفوسهم الناقصة، وإلاّ لما خلق الله تعالى هذه الرغبة والمحبة في أكثر الظرفاء والعلماء عبثاً وهباءً.

ونحن نشاهد ترتب هذه الغايات التي ذكرناها فلا محالة بكون وجود هذا العشق في الإنسان معدوداً من جملة الفضائل والمحسنات، لا من جملة الرذائل والسيئات.

أنا: لقد تبسطت أيها الشيخ الجليل في هذا البيان، ولم يعهد فيك مثل هذا التطويل والتوضيح في المسائل الدقيقة، ولكن يظهران الموضوع اعتبرته خطابياً، فأردت أن تؤثر على مشاعر تلاميذك، وإلاّ فما أحسبه يقف هذا البيان أمام الحساب الدقيق.

هو: لقد ادعيت عظيماً!

أنا: أرجو العفو إذا كنت قد أخطأت، ولكن ألا تتفضل باستماع ما عندي.

هو: الحق يجب أن يصغى إليه، ونحن لا ننظر إلى من قال بل إلى ما قيل.

أنا: أمّا أنك لم تجد أحداً ممن له قلب لطيف خالياً عن هذا العشق، فأظنك تعترف أنه استقراء ناقص، لأنك لا شك لم تختبر واحداً من آلاف الناس من الذين شاهدتهم بعينك في بلادك، فضلاً عن أهل البلدان البعيدة الذين لم ترهم، بل فضلاً عن الأمم السابقة على عصرك الذين لم يحصهم إلاّ الله تعالى.

على أنك حصرت كلامك في عشق الغلمان، ولعل هذا النوع لم يكن معروفاً في الأمم الخوالي على الوجه الذي تذكره، ولم يعرف ذلك في الأمة العربية حتى أيام الدولة العباسية عندما تم الامتزاج بالأمم الأخرى، ولو كان من الأمور الطبيعية والأوضاع الإلهية لما تخلف عن أحد ولا عن أمة ولم يختلف عصر مع عصر، وقد اعترفت أنت بعدم وجوده في بعض الإمم باعتبار أنهم من أهل القلوب الغليظة والطباع الجافة، فهل تجد أن لا مصلحة في تربية أبنائهم وتأديبهم.

وأما ما ذكرته من ناحية المبادئ فنقول كلمتنا فيه: إنّا نعرف أن الله تعالى خلق في الإنسان غرائز ثابتة لمصالح جليلة في حياته وبقاء نوعه، كالغريزة الجنسية وغريزة حب التفوق والسيطرة وحب البقاء وشهوة الأكل والشرب وأمثالها، وهذه الغرائز موجودة في كل إنسان، وإن اختلفت قوة وضعفاً في أفراده، وليست هذه الغرائز توصف بالحسن ولا بالقبح، لأنها ليست من الأفعال للإنسان، وليس في قدرته إزالتها عن نفسه.

ولكن هذه الغرائز تتطلب من الإنسان أن يشبعها وتلح عليه دائماً أن يسكّن من شرّتها وإشباعها تارة يكون من طريق صحيح حسن، وأخرى من طريقة قبيح يذم عليه، كإشباع الشهوة الجنسية بالنكاح الشرعي أو إشباعها بالزنا ونحوه، فالذي يمدح عليه الإنسان أو يذم هو الفعل الذي به إشباع شهوته.

وقد لايتأتى للإنسان إشباع شهوته لسبب ما، فتبقى في نفسه كالنار المتأججّة تلهب عواطفه للاندفاع، فليتجئ إلى كبتها والضغط عليها، فتصبح كالنار تحت الرماد أو كالبخار المضغوط في الإناء، والبخار إذا زاد ضغطه على تحمّل الإناء لابد أن ينفّس عن نفسه فيفتح له طريقاً للخروج ولو من غير النافدة الطبيعية إذا امتنعت عليه، وهكذا الغرائز المكبوتة، وتعتبر طرق إشباع الشهوة النوافذ الطبيعية للتنفيس عنها، فإذا امتنعت عليه هذه النوافذ لابد أن يفتح له نوافذ أخرى للتنفيس، وإن كان من غير شعور من الإنسان بأنها نوافذ للتنفيس بل على الأكثر لا يشعر بذلك، وقد نسمّي هذه النوافذ غير الطبيعية بطرق التعبير عن الغرائز، مثل أن يحدث اعتلال في الصحة أو اختلال في التفكير أو غضب وهم شديدان أو تألّم من كل حادثة وإن كانت اعتيادية، أو بكاء لاي سبب تافه أو استهانة بالناس ومقت لهم أو الإنعزال والوحشة منهم ونحو ذلك، وهذه طرق للتعبير عن أكثر الغرائز المكبوتة كالغريزة الجنسية وحب التفوق والسيطرة.

وقد تختص الغريزة الجنسية بطرق أخرى للتعبير مثل الالتذاذ الشديد بالموسيقى والغناء أو بشرب الخمر أو بتربية الحيوانات والحدب عليها و باللعب بالطيور أو القمار، وهذه الطرق تصير مع الزمن عادة للإنسان لا يسهل عليه

تركها، لاسيما إذا كان تعلقه بها يبلغ إلى حد الغرام، وإن تمكن بعد ذلك من إشباع شهوته بطريقها الطبيعي.

ولعل الغرام بالملاح إذا كان حباً عنيفاً هو أحد الطرق للتعبير عن الغريزة الجنسية المكبوتة وإن كان بغير شعور من العاشق الواله، وبهذا يفترق عن الحب غير العفيف لغاية إشباع الشهوة الجنسية، فنحن نصدّق بعض العشّاق الذين يدعون النزاهة في حبهم لا سيما إذا كانوا ممن يتورعون في المحارم ويستنكرون الموبقات، فيكون عشقهم طريقاً للتنفيس عن الشهوة المكبوتة وللتعبير عنها وإن كان بغير شعور.

وعلى هذا البيان لا نسلم أن العشق يحصل من تلك المبادئ الفاضلة كما قررتم وأن أصطحب رقة الطبع وخفة الروح وصفاء النفس وسجاحة الخلق، وليس بالبعيد أن تكون هذه الصفات من آثاره لا من مباديه، ومبدأه الحقيقي تلك الغريزة الجنسية المكبوتة، فإذا عشق المرء اتصف بهذه الصفات لا أنه اتصف بها فسببت له العشق، وهذا ما يسمى في صناعة المغالطة بإيهام الإنعكاس.[١]

ثم أنكم قلتم هنا: إن كل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنايع اللطيفة والآداب الحسنة لا يخلون عن هذا العشق، وهذا اعتراف منكم بأنه يحصل بتأثير التربية، فليس هو من الامور الطبيعية والاوضاع الالهية حتى يستكشف بذلك انه موجود في الانسان لحكمة جليلة ومصلحة نافعة.

---

(١) مصطلح في علم المنطق من باب المغالطات المعنوية وهو أن يقع الخلل في الجزءين معاً وذلك بأن ينعكس موضعهما فيجعل الموضوع محمولاً وبالعكس, أو يجعل المقدم تالياً وبالعكس وأكثر ما يقع في الأمور الحسيّة ومثاله: لما كان كل عسل أصفراً وسيّالاً فقد يظن الظان أن كل ما هو أصفر وسيال فهو عسل. وأمثال هذه الأمور يقع الغلط فيها كثيراً عند العامة. المظفر، المنطق : ٤٣٤.

وأما الغاية التي تفضّلت بها للعشق العفيف فهي من العجائب، فإن هذا العشق كما يكون للغلمان يكون للنساء، فما الحكمة والمصلحة في عشقهن عندك؟ هل هي التربية أيضاً؟ على أن الملاح من الغلمان الذين يُعشقون هم أقل القليل فيهم، فمن لذوي الوجوه الدميمة المساكين؟ فهل خلق الله تعالى هذا العشق في نفوس الرجال لتربية فئة قليلة من الصبيان وأهمل هؤلاء المحرومين من الجمال وهم الأغلب ليحرموا من الكمال أيضاً؟ أفكان ذلك بقاعدة أن الله جميل يحب الجمال؟! حقيق بهم أن يصرخوا بالاحتجاج على هذه الإهانة والحرمان، وأغلب الظن أنك — يا سيدي — كنت تتمتّع بجمال فاتن فلم تشعر بهذه الصفة كما يشعر بها أمثالي.

أما مصلحة التربية فيمكن أن يقال فيها: إن الله تعالى لما خلق في نفوس الآباء والأمهات الحب والشفقة على أبنائهم لحكمة بقاء النوع وهذا الحب هو من فروع الغريزة الجنسية فإنه كاف في حصول تربية الأبناء، فإن عجز الآباء والأمهات عنها بأنفسهم هيؤوا بداعي الشفقة المربين والمعلمين بالأجر المناسب، كما هي عادة البشر إلى يومنا هذا، ولا تحتاج هذه المصلحة إلى خلق العشق للغلمان في نفوس الرجال ومهمة التعليم موجودة من القديم كسائر المهن التي يطلب بها الرزق.

هو: إني لأنكر أشد الإنكار أن يكون مبدأ العشق هو الشهوة البهيمية، لأن المحبوب في الحقيقة ليس هو الجلد واللحم ولا شيئاً من البدن، بل لا يوجد في عالم الأجسام ما تشتاقه النفس وتهواه بل المحبوب صورة روحانية موجودة في غير هذا العالم، فالصورة هي المعشوقة بالذات وأما الأمر الخارجي وهو ذو الصورة فهو معشوق بالعرض، والسر في ذلك أن العشق

من صفات النفوس لا من صفات الأجرام، فتتحد نفس العاشق بصورة معشوقه على نحو اتحاد النفس العاقلة بصورة المعقول واتحاد النفس الحساسة بصورة المحسوس، كما شرحناه في مبحث اتحاد العاقل والمعقول.

وذلك الاتحاد يحصل بعد تكرر المشاهدة وشدة الفكر والذكر حتى تصير صورة المعشوق متمثلة حاضرة في نفس العاشق ... وقد وقع في حكايات العشاق ما يدل على ذلك كما روي أن مجنون ليلى كان مستغرقاً في خياله، فجاءته ليلاه ونادته: (يا مجنون أنا ليلى) فلم يلتفت إليها وقال: (لي عنك غنى بعشقك) وقال أحد الشعراء:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا[1]

وإذا كانت الصورة الذهنية المتمثلة هي المعشوق الحقيقي لم يفتقر بعد ذلك إلى حضور جسم الحبيب والاستفادة من شخصه، بل الحبيب حاضر عنده أبداً، كما قال الشاعر:

خيالك في عيني وذكرك في فمي   ومثواك في قلبي فأين تغيب[2]

---

(١) البيتان للحلاّج وهو أبو المغيث الحسين بن منصور بن محي البيضاوي ولد عام (٢٤٤هـ — ٨٥٨م) في قرية الطور في الشمال الشرقي من مدينة البضاء من مدن مقاطعة فارس بإيران إلى الشمال من مدينة شيراز. نزل واسط بعد مقتل أبيه ثم قصد تستر (شوشتر) على نهر كارون ثم وصل بغداد وأخذ عن الجنيد البغدادي. ألقي عليه القبض بتهمة القرمطة سنة ٣٠١ هـ وقتل معلقاً بحبل ببغداد مدة ثلاثة أيام.

(٢) ينسب البيت إلى أبي الحكم الإشبيلي دفين مراكش ويلحق به البيت التالي:

لأن غبت عن عيني وشطّ بك النوى   فأنت بقلبي حاضر وقريب

أنظر معجم الأدباء لياقوت.

بل التحقيق إنه لا يوجد وصال في هذا العالم ولا تصل ذات إلى ذات في هذه النشأة أبداً وإنما هو القرب في المكان فقط، ولذلك كلما قرب الحبيب من العاشق يجده لا يزال بعيداً، كما قال الشاعر:

ولو كان من أهواه بين جوانحي   لقلت أدن مني أيها المتباعد[١]

بل يزداد شوقاً وهياماً بالقرب، ألا ترى أن العاشق إذا اتفق له ما كان غاية ما يتمناه وهو الدنو من معشوقه ومحادثته تمنى ما هو فوق ذلك وهو الخلوة به بغير رقيب، فإذا سهل ذلك تمنى المعانقة والتقبيل، فإن تيسر ذلك تمنى الدخول في غطاء واحد والالتزام بجميع الجوارح في أكثر ما ينبغي، ومع ذلك فالشوق بحاله بل يتضاعف ويتضاعف معه الاضطراب كما قال أحد العشاق:

أعانقها والنفس بعد مشوقة   إليها وهل بعد العناق تدان

وألثم فاها كي تزول حرارتي   فيزداد ما ألقى من الهيجان

كأن فؤادي ليس يُشفي غليله   سوى أن يرى الروحان يتحدان[٢]

فلو كان الإتصال البدني غاية العشق، لانتهى أهله بالوصال والقرب.

أنا: لقد ملكت علينا مشاعرنا أيها المولى بهذا الأسلوب الأخّاذ، ومع ذلك فإني أصرّ على رأيي، ولا أجد قيمة لخيال الشعراء وأوهام العشّاق في الحقائق العلمية، فإنّا إذ نقول أن العشق مبدأه الغريزة الجنسية نقول هو أحد طرق التعبير عنها عند كبتها من غير شعور من العاشق، وليس معنى ذلك أن العشق يكون اشباعاً لها، وكذا الوصال المجرد لا يكون إشباعاً لها، بل يزيد في كبتها فكيف

---

(١) لم نتوثق من نسبة البيت إلى قائله.

(٢) تنسب هذه الأبيات للحلاّج وقد أشرنا إلى ترجمته.

يسكن من سورتها، ولذا كان الوصال يلهب نار العاطفة كما قرّرتم، وهذا دليل لنا، ولا يسكن من ثورة العاطفة إلاّ الإشباع بالطريق الطبيعي، فيبطل الحب عنده كما اشتهر عند العشاق: (إن الحب إذا نكح فسد).

ونحن لا نضايقكم في تصوير معنى العشق وإنه الاتحاد بين العاشق والصورة الروحانية للمعشوق التي هي المعشوقة بالذات، فهذا شيء آخر لا ينافي ما نقول ولا علاقة له بمبدأ العشق، ثم أنتم لم تجيبونا عن إشكالنا فيما ذكرتموه من غاية العشق للغلمان.

هو: لا أكتمك أن ما ذكرنا من الدليل كان إقناعياً على طريقة أهل البحث والجدل وهذه عادتنا نحن في أكثر مقاصدنا الخاصة حيث نسلك أولاً مسلك القوم في أوائل الأبحاث وأواسطها، ثم نفترق عنهم في الغايات لئلا تنبوا الطباع عما نحن بصدده في أول الأمر، بل يحصل لهم الاستيناس به ويقع كلامنا في أسماعهم موقع القبول إشفاقاً بهم كيما نتمكن بالأخير من بيان مقصدنا من طريق إشراقي مستمد من نور الحق.

أنا: هل لكم في هذا الأمر طريق إشراقي؟

هو: نعم! تقريباً.

أنا: تفضلوا علينا ببيانه!

هو: يطول شرحه وأخشى ألاّ يدرك مغازيه من لم يتنوّر بنور الأحوال.

أنا: ولو بالإشارة، والله تعالى هو الهادي لسواء السبيل.

هو: مما يجب أن يعلم أولاً أن المشايخ أمروا مريديهم في الابتداء بالعشق للسلوك العرفاني لأن العشق العفيف أوفى سبب في تلطيف النفس وتنوير القلب، ولأنه يترك النفس فارغة عن جميع هموم الدنيا إلاّ همّاً واحداً وهو

الاشتياق إلى رؤية جمال إنساني فيه كثير من آثار جمال الله وجلاله حيث أشار إليه بقوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[١]، فيجعل النفس لينة شيقة ذات وجد وحزن وبكاء ورقة قلب وفكر كأنها تطلب شيئاً باطناً مختفياً عن الحواس فتنقطع عن الشواغل الدنيوية ويعرض عما سوى معشوقه، فلأجل ذلك يكون الإقبال على المعشوق الحقيقي وهو الله تعالى أسهل على صاحبه من غيره فإنه لا يحتاج إلى الإنقطاع عن أشياء كثيرة بل يرغب عن واحد إلى واحد، فينبغي استعمال هذا العشق العفيف الذي هو العشق المجازي في أواسط السلوك العرفاني وفي حال ترقيق النفس وتنبيهها عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية، وأما عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيروتها ذات ملكة الإتصال بعالم القدس فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال بهذا العشق لأن مقامها صار أرفع فيكون منها قبيحاً معدوداً من الرذائل، ولذا قيل (المجاز قنطرة الحقيقة) وإذا وقع العبور إلى الحقيقة فالرجوع إلى القنطرة مرة أخرى يكون قبيحاً مستهجناً.

فيكون الغرض الأقصى من هذا العشق هو التنبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ورياضة النفس بها مدة لتخرج من القوة إلى الفعل وتترقى من الأمور الجسمانية إلى الأمور النفسانية ومنها إلى محاسن الأمور الدائمة الكلية، وتتشوق إلى لقاء الله تعالى ولذات الآخرة ولتعرف من هذه الدلالات شرف جوهرها وكمال عنصرها ومحاسنها وصلاح معادها، وذلك لأن جميع المحاسن وكل المشتهيات المرغوبة للنفس التي نراها على ظواهر الأجسام

---

(١) التين ٩٥ : ٤.

جعلت دلالات على المحاسن الاخروية ومثلا للصور البهية الروحانية، فإذا نظرت النفس إلى هذه المحاسن حنّت إلى المحاسن الروحانية وإذا وصلتها تعمقت في إدراك كنهها فتنتزع منها صوراً روحانية صافية عن المواد، ولا تزول هذه الرسوم والصور وإن غابت تلك الأجسام ذات الصور عن مشاهدة الحواس، ثم إذا قويت النفس وصارت إلى مقام العقل انتقلت معها الصور من ذلك المقام إلى ما فوقه فصارت معشوقاتها باقيات صالحات وهي صور كلية دائمية عقلية متحدة بها لا يخاف فراقها ولا دثورها أبد الآبدين.

وأيضاً لما كان الإنسان الصغير إنموذجاً عما في الإنسان الكبير أعني العالم كله لأن العالم كله كتاب الحق الجامع وتصنيف الله الذي أبرز فيه كمالاته الذاتية ومعانيه الإلهية وما كتاب الإنسان إلاّ مجموعة مختصرة فيه آيات الكتاب المبين، فمن عشق الإنسان الصغير وتأمل فيه وتدبر في آياته ومعانيه بنظر الاعتبار يسهل عليه مطالعة الكتاب الكبير ويسهل معها العروج إلى مطالعة جمال الله وجلال أحديته فيرى الكل منطوياً في كبريائه مضمحلاً تحت أشعة نوره وضيائه.

وهكذا ظل صدر المتألهين مستمراً في هذا البيان الغريب وأنا أخشى التعليق عليه خوف أن يطعنني بأني لم أدرك مغازيه لأني لم أتنوّر بنور الأحوال حتى استيقظت فزعاً مرعوباً.

(١٠)

سريان العشق في جميع الموجودات

كل شيء في الكون — بوجوده الخاص — يغمره الحب والعشق لكماله اللائق به حباً شعوريا أو لا شعورياً يسيطر على حركاته وحياته بل هو السر في حياة المخلوقات وبقاء أنواعها.

فإذا ابتدأنا في المخلوقات من أصغرها وهو الذرة، نجد أجزاءها متكاتفة على أساس الشوق العميق، فانظر إلى نواتها المستقرة في قلبها كيف تحتوي عى أجزاء متماسكة مصمدة يشد بعضها بعضاً خشية الإنفلات، فتؤلف بذلك قوة يعجز عن فلّها وتفكيكها أقوى المخلوقات في التدبير والعقل، وهو الإنسان، ولّما توفق أخيراً بحيلته إلى تفكيكها بعض الشيء، ملأت الدنيا — على صغرها الذي تقتحمه العيون بل المكبرات — صراخاً وعويلاً في قنبلتها الذرية، فأحرقت الأخضر واليابس، وانتقمت أشد نقمة عرفها التاريخ من هذا المخلوق الذي تحداها وتجرأ على إفلاتها.

ثم هي — هذه الذرة — تحوي أيضاً أجزاء أخرى صغيرة تحوم حول نواتها بسرعة فائقة التي تعطينا الكهرباء والضوء والدفء وما إليها عشقاً والتياعاً لا تملّ من دورانها السريع في دأب ونظام دقيق وهي التي يسمّونها الإلكترونات.

ثم إذا انتقلنا من بناء الذرة إلى ما هو أكبر منها قليلاً، وهو الجزيء الذي ينعم بوجود عدة ذرات في كيانه، وجدناه يتمتع في أجزائه وتركيبه بنعمة

الشوق الذي ألّف بين متفرقات ذرّاته، فكوّنها وحدة مستقلة ذات سيادة وقوة، وبعد ذلك نجد كيف تتألف الأجسام من الجزئيات بسبب الحب الذي هو في ذاتها وكلّما زاد فيها الحب تراصت وأعطت للجسم المؤلف منها صلابة وقوة ومتانة وكثافة.

ثم ننتقل في طوافنا إلى أفق أوسع من أفق الذرّة وبناء الأجسام، ننتقل إلى أفق الكون المرئي لعيوننا، لنفحص الأجسام الحيّة والجامدة، فإنا سنشعر بهاجس الحب فيها يسيطر على جميع حركاتها وينظّم حياتها ويعطيها الاستمرار في أنواعها وما هذه الجاذبية في الأجرام السماوية إلا نوع من أنواع هذا الحب الذي يهيمن على الموجودات.



هذه إشارة مجملة إلى حكاية الحب في الموجودات وتقريبه إلى الأذهان هذا الحب الذي يذهب إليه بعض أرباب الفلسفة القديمة، وطبقناه نحن على الرأي الحديث في بناء الأجسام وذراته وجاذبية الأجرام السماوية ... فماذا ترى يكون هذا الحب في ادعاء هذا القائل؟

أتراه من باب التعبيرات المجازية لتقريب التاثيرات الطبيعية، فشبه تطور الوجود فيها والتأثير والانقياد للمؤثرات بالحب المعروف في الإنسان، وإن كانت تلك المخلوقات خالية من الحياة والشعور التي بهما قوام الشوق؟

أو أنه يدعي الحب الحقيقي ولكن لا يشترط فيه الحياة والشعور، ويفرض ذلك لتعليل تلك الظواهر الطبيعية في الموجودات، إذ يعسر التعليل المعقول بها، فالنبات والحيوان – مثلاً – لهما ميل طبيعي إلى النحو الذي هو كما

لهما، فينمو كل منهما استجابة لهذا الميل وإن كانت استجابة لا شعورية، وكذلك الجمادات لها هذا الميل إلى كمالها المناسب لها.

أو أنه يدعي أن الموجودات كلها حتى الجمادات لها حياة وشعور وحس مناسب لها، فلها شوق ورغبة إلى الكمال اللائق بها، غير أن الحب في الإنسان يقترن بالاختيار، فيكون للاختيار تأثير معه في ظهور أفعاله وآثاره الاختيارية، وإن كان فيه من الميول الطبيعية التي أيضاً تكون عن حس وشعور ما لا يصل الى منطقة الاختيار والإرادة، كباقي الموجودات، مثل أعمال الدورة الدموية والتنفس والتغذية والنمو الجسمي ونحوها؟

هذه ثلاثة فروض محتملة في ادعاء الحب في الموجودات قاطبة، ثم قد يتوسع السائل، فيستفهم عن المحبوب ما هو أو من هو؟ ثم قد يسأل: ألها محبوب واحد، أو لكل نوع من الموجودات محبوب خاص تسعى للوصول إليه، أو لكل موجود عدة ميول وأشواق ولكل منها محبوب خاص؟

هذه أسئلة دقيقة تجيب عنها بعض كتب الفلسفة، فتدخل في أعماق من البحث بعيدة الغور قد لا تصل إليها رشاء أكثر العقول، وأنا أستميح القراء عذراً لو اضطر إلى التعمق في البحث والتعقيد عندما تخون اللغة لا سيما لغة القلم عن التعبير عن بعض المعاني والخواطر، كما هي مرسومة في لوحة النفس، فيلتجئ الكاتب إلى التعبير عن حاشية المعنى ليرمز إليه على أنه يجب ألاّ أفرض القارئ من الطبقات الذين تخفى عليهم أسرار الكلام.



استعرضت هذه الفكرة الخاطفة عن الحب العام في الموجودات بين يدي هذا الحلم العاشر مع صاحبنا صدر المتألهين فرأيت لو أتمكن من تقريب تفكيره

عن الحب العام في هذا الحلم، ولا أضمن أن آتي بجميع بياني واضحاً مفهوماً لكل أحد لما قدمت من السر في ذلك.

وقد امتنع عليّ شيخنا صدر المتألهين هذه المدة، فمضت فترة طويلة على مفارقتي له بعد الحلم الأخير، وكأنه استشعر مني محاولة استدراجه إلى الخوض في دفائن الفلسفة ودقائق في البحث لا يصلح إذاعتها بين العامة بالأسلوب الواضح، وإلى مناقشة آرائه التي يؤاخذ عليها عند الناس، وما أدري أتراه طاوعني الآن لأني أعرضت عن تلك المحاولة في هذا الموضوع.

نعم! لقد طاوعني هذه المرة فحضر لي في شهود الحلم، وهو في أعظم بهجة واستبشار ينمّان عن لذّة عقلية دائمة وعن جمال قدسي طافح على نفسه العاشقة للكمال، وإذا به منقطع إلى نفسه يناجيها مناجاة العارفين ويسبح ربه تسبيح القديسين، وهو يقول في مناجاته[1]:

(هلم أيها العارف نسبّح ونقدس لربنا، هلم يا أخا الحقيقة نقوم بالتهليل والتكبير ندعو قيّم العالم وناظم الملك والملكوت ورابط الناسوت باللاّهوت وصاحب الكبرياء والجبروت، بقلب كئيب حاضر، ولسان ذاكر، وصدر منشرح بنور الذكر والمعرفة، ودمع ساكب.

بادر — يا عارف — بروح شيقة ونفس زكية عاشقة لربها راجعة إليه حتى ننادي ربنا نداء خفيا ونتضرع إليه في ظلم الليالي، وندعوه دعاء المحبين المتأدبين ونناديه نداء الخاشعين ونتضرع إليه تضرع المشتاقين وخضوع المحتاجين المتذلّلين.

---

(١) الأسفار ٣ : ١٣٥.

سبحانك لا آله إلاّ أنت خلّصنا من عذاب نار الفرقة وألم القطيعة ، يا محي الأموات ، وباعث الأرواح من القبور الدارسات ، ومعطي الخيرات ومنزّل البركات أفض على نفوسنا لوامع بركاتك وعلى أرواحنا سواطع خيراتك ، يا من إذا تجلّى لشيء خضع له.

يا من رش من نوره على ذوات مظلمة ، وهياكل غاسقة في ليال مدلهمة ، فنوّرها وصوّرها وشوّقها إلى جماله وساقها إلى طلب لقائه ، يا من قذف بشعلة شوقه على السموات فهيّجها ورقّصها ودوّرها وأخضع كل من فيها بالتعشيق وطوّفها أسبوعا في كل سبعة آلاف سنة حول البيت العتيق – خلّصنا بنورك من ظلمات القبور ولا تعذب أرواحنا بعلائق أشباح عالم الزور ومعدن الغرور ، وثبت أقدامنا على المنهج الأبلج القويم والصراط الحق المستقيم ، إنك أنت الجواد الكريم...) إلى آخر مناجاته.

فأصغيت إلى هذه الأنشودة الدينية والمناجاة الإشراقية التي تستقى من منبع فلسفته في الوجود وآرائه في نظام الكون وخلق الموجودات وعلاقتها بمدبرها ولفت نظري ذكره لعشق الموجودات وشوقها إلى لقاء ربها ومعنى ذلك ، فتوجّهت له بهذا السؤال :

أنا : هل تعتقدون أن جميع الموجودات عاشقة لربها؟

هو: نعم جميعها عاشقة لله سبحانه مشتاقة إلى لقائه والوصول إلى دار كرامته.

أنا : حتى الجمادات؟

هو: حتى الجمادات.

أنا : إن هذا لغريب ، يصعب علينا أن نصدق أن الإنسان العاقل عاشق لربه فكيف يأتي لنا أن نصدق وجود العشق فيمن يفقد الشعور بل الحياة.

هو: أتخال أن الجمادات خالية من الحياة والشعور؟ إن كنت تخال ذلك فإنه من خيال الجمهور الذي لا يبعد نظرهم إلى أبعد من الظواهر البسيطة على إجمالها، فإذا أطلقوا (الحيوان) فهموا منه ماله حس ظاهر وحركة إرادية وحركة منظورة من مكان إلى مكان، أما معاشر العرفاء فعندهم أن كل موجود حيّ وقد بينا في كتبنا مراراً أن الحياة سارية في جميع الموجودات لسريان الوجود فيها، لأنّا بينا أن الوجود حقيقة واحدة هي عين العلم والقدرة والحياة فكما لا يتصوّر موجود بدون طبيعة الوجود مطلقاً، فكذا لا يتصوّر موجود لا يكون له علم وفعل يناسبه وكل ما يعلم ويفعل بأي وجه كان فله حياة.

فإذا ثبت إن كل موجود سواء كان بسيطاً أو مركباً له حياة وشعور فلابد أن نقول: إن له عشقاً وشوقاً.

أنا: هذا كلام لا يخرج من أن يكون فتوى بلا دليل ظاهر، على أنك بنيته على وحدة الوجود، والقول بها من أكبر المؤاخذات على فلسفتك، ولابد أن تفسح لي المجال في فرصة أخرى لمناقشة هذا القول.

هو: أمستعد أنت للبرهان على هذا الأمر العالي أعني عشق الموجودات وهو يتطلب منك كثيراً من المعرفة والصبر والعلم بكثير من القضايا الفلسفية؟

أنا: أعفني الآن من الدخول في أبحاث لا أطيقها، ولكن نفس تصور أن الجمادات لها شعور وحياة وكذلك النباتات وإن لها عشقاً وشوقاً مما يثير في النفوس السخرية والضحك، ويكفي هذا للطعن في هذه الفلسفة في أنظار العامة، وأيضاً كيف يقرّ لك الدين هذه الاعتقادات الشاذة!

هو: ما قيمة آراء العامة وسخريتهم ولماذا تربطون كل شيء في الدين، على أن الدين الإسلامي متى نهى عن الحكمة والتفكر؟

بل لو عقلتم وتدبرتم في الآيات والروايات لعرفتم أن الدين الإسلامي قد حثنا على التفكر في خلق السماوات والأرض ودعانا إلى الحكمة والبصيرة في حقائق الأشياء ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[١] والقرآن الكريم في خصوص مسألتنا صرح بما نقول، وهو المنبع الفياض لاعتقاداتنا وفلسفتنا، ولكنكم لا تفقهون، ألم يقل ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٢] وقال ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[٣].

أترى أن التسبيح والسجود استعملا على نحو المجاز وهو يقول ﴿ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٤] أم هي الحقيقة التي نقولها والتي يؤيدها البرهان والوجدان! ولم يتيسر حتى للشيخ الرئيس ابن سينا ولا لأحد ممن تأخر عنه إلى يومنا هذا تحقيق هذا الأمر إلاّ لأهل الكشف من الصوفية، فإنه لاح لهم بضرب من الوجدان وتتبع أنوار الكتاب والسنة إن جميع الأشياء حي ناطق ذاكر لله مسبح ساجد له كما نطق به القرآن العزيز، ونحن بحمد الله تعالى عرفنا ذلك بالبرهان والإيمان جميعاً فاختص هذا الأمر بنا بفضل الله وحسن توفيقه.

أنا: إن الشيخ الرئيس وضع رسالة مستقلة في عشق الموجودات فكيف تقول لم يتيسر ذلك.

هو: ما ذكره الشيخ الرئيس في تلك الرسالة لا يفيد إثبات معنى العشق في البسائط التي سماها غير حية إلاّ على ضرب من التشبيه ولم يذكر في الرسالة

---

(١) البقرة ٢ : ٢٦٩.

(٢) الإسراء ١٧ : ٤٤.

(٣) النحل ١٦ : ٤٩.

(٤) الإسراء ١٧ : ٤٤.

ولا في غيرها ما يثبت ضرباً من الشعور في الطبيعة الجسمانية أو في العرض الذي ذكر أنه عاشق لموضوعه وادّعى فيه الظهور وهو من أخفى الأشياء وأدقها، وأنت تعلم أن إثبات العشق بدون الحياة والشعور فيه كان مجرد تسمية لا أكثر ونحن نقول بوجود العشق الحقيقي في الموجودات قاطبة.

أنا: لنعد إلى حديث الآيتين الكريمتين والعشق، أترون أن للمخلوقات أيضاً لساناً تنطق به كما كان لها حياة وشعور، وذلك الذي يدل عليه لفظ التسبيح، وكيف يكون سجود الجمادات والنباتات ونحوها.

هو: لا! لا! إن تسبيح المخلوقات ليس من نوع الكلام ولذلك لا تفقهون تسبيحهم، بل هو من نوع الانقياد والطاعة وتقديس خالقها وباريها بالخضوع والتعظيم وليس التسبيح لغة هو قول سبحان الله وإن كان لقلقة لسان فقط، بل هو تأدية ما تتضمنه كلمة (سبحان الله) التي معناها إنشاء تنزيه الله وتعظيمه، وهذا الإنشاء كما يكون باللفظ عند الآدميين يكون بالفعل والانقياد عند غيرهم مع الشعور به المناسب لذلك الموجود كما أنّ السجود معناه الخضوع وإظهار العبودية، وإنما كان السجود عند الآدميين بهذه الأفعال المخصوصة المعروفة لأنها عندهم هي مظهر العبودية ويتعارف عندهم الخضوع للعظيم بها، لا أن معنى السجود لغة هذه الأفعال المخصوصة.

ولئن كنتم تنكرون أن يكون لغير الحيوانات شعور وانقياد فبماذا يمكنكم تأويل هذه الآية الكريمة ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾[1]،

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٧٢.

فكيف يعرض الله الأمانة على ما لا شعور له ولا حياة، وكيف يأبى حملها ثم يشفق منها من لا إدراك له، ثم إذا كان الإنسان ظالماً لنفسه وجهولاً إذا قبل الأمانة فبقرينة المقابلة يعلم أن الظلم والجهل منفيان عن الجبال والأرض والسموات إذ أبين من حملها والظلم والجهل إعدام ملكات وسلب السلب إيجاب فسلب الجهل هو العلم وسلب الظلم هو العدل ومعنى ذلك بالأخير يرجع إلى أن الملكات المقابلة لها ثابتة لهذه الأمور وهي — أي الملكات — العدل والعلم أو الحلم ولا تثبت هذه لما لا شعور له وحياة.

وإذا كنتم تستغربون التسبيح والسجود من التي تسمونها (جمادات) وهي حية تسعى بإذن الله تعالى فماذا تقولون في الحيوانات والله يقول على لسان نبيه سليمان ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ** ﴾[1] فللطير منطق نحن لا نفقهه بل يفقهه من علّمه الله إياه وأيضاً تصرح الآية بحديث النمل وشعورها في قوله تعالى ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾[2] وسليمان قد فهم قولها بتعليم الله تعالى فتبسم.

أنا: إذا كنا استطعنا أن نفهم أن لكل من الموجودات حياة وشعوراً مناسباً لها ولو في التسليم لكم، فكيف يبلغ فينا هذ الفهم إلى درجة التصديق بأنها عاشقة والهة وأن معشوقها هو الله تعالى، فهل تزيد في المعرفة على الإنسان العاقل، وليس كل إنسان له المعرفة بالله إلى درجة يكون عاشقاً للقائه.

---

(١) النمل ٢٧ : ١٦.

(٢) النمل ٢٧ : ١٨.

هو: أنسيت قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] وإذا لم تقنعك هذه الآية الكريمة فنحن نلوح لك بالبرهان على هذا المقصد العظيم الدقيق، فإذا أثبتنا إن لكل موجود شعوراً وحياة فان كل موجود ذا شعور يعشق ذاته وكمال ذاته قطعاً، لأن الوجود في نفسه خير لذيذ وعليه فكل موجود عاشق لذاته ولكمالها.

ثم نقول إن كمال كل معلول إنما هو بعلته بل العلة في الحقيقة هي كمال المعلول وتمامه، فإذا كان الموجود عاشقاً لكماله فمعناه أنه عاشق لعلته، والله تعالى هو علة العلل بل علة غيره فهو معشوق لجميع الموجودات، لأنه كمال جميع الموجودات، فجميع الموجودات بحسب ما لها من الكمالات اللايقة بها طالبة لكمالات واجب الوجود لذاته متشبهة به في تحصيل ذلك الكمال، فالباري تقدست أسماؤه هو غاية جميع الموجودات ونهاية مراتبها ولولا العشق والمعشوق ما أمكن حدوث حادث للعالم الجسماني ولا تكون متكون في عالم الكون والفساد فلا يخلو شيء من الموجودات عن نصيب من المحبة الإلهية والعشق الإلهي والعناية الربانية ولو خلا ذلك لحظة لانطمس وهلك فكل واحد عاشق للوجود وطالب لكمال الوجود نافر عن العدم والنقص وكل ما هو مطلوب فإنما يمكن حفظه وإدامته بما هو تمامه وكماله فالمعلول لا يدوم إلاّ بعلته لكونها كماله وتمامه والحرارة لا تنحفظ ولا تدوم إلاّ بحرارة أقوى منها والنور لا يكمل إلاّ بنور أكمل منه فكل وجود ناقص لا يصير كاملاً إلاّ بما هو أقوى منه وهو علته ومديم ذاته ومحقق هويته وكل ناقص يتنفر عن نقصه وينزع

---

(١) الإسراء ١٧ : ٤٤.

منه إلى كماله ويتمسك به عند نيله والحصول عليه فيكون كل شيء لا محالة عاشقاً لكماله مشتاقاً إليه عند فقده فالعشق حاصل للشيء دائماً سواء في حال وجود كماله أو في حال فقد ذلك الكمال وأما الاشتياق والميل فإنما يحصلان للشيء حال فقدان الكمال وما الغرائز الموجودة في النفوس الحيوانية والإنسانية إلاّ من نوع ذلك الحب والعشق الإلهي إلى الكمال كحب البقاء والغريزة الجنسية وحب التفوق والاستعلاء وحب الاستطلاع مما يطول شرحه وكلما كانت الموجودات أعلى وأشرف كانت محبوباتها الطف وأعلى.

بل نقول حتى الهيولى الأولى لها مرتبة من الشوق إلى صورها لأن لها مرتبة من الوجود وحظاً من الكون وإن كانت مرتبتها في الوجود مرتبة ضعيفة لأنها عبارة عن قوة وجود الأشياء الفائضة عليها المتحدة بها اتحاد المادة بالصورة في الوجود واتحاد الجنس الفصل في الماهية.

وإذا كان لها نحو من الوجود وسنخ الوجود واحد متحد مع العلم والإرادة والقدرة من الكمالات اللازمة للوجود أينما تحقق وكيفما تحقق فيكون لها نحو من الشعور بالكمال شعوراً ضعيفاً على قدر ضعف وجودها الذي هو ذاتها وهويتها، فيكون لأجل شعورها بالوجود الناقص لها طالبة للوجود المطلق الكامل الذي هو مطلوب و مؤثر بالذات للجميع، ولما كان كل ما حصل له بعض من الكمالات ولم يحصل له تمامه يكون مشتاقاً إلى حصول ما يفقد منه شوقاً بأزاء ما يحاذي ذلك المفقود ويطابقه وطالباً لتتميم ما يوجد فيه بحصول ذلك التمام.

فتكون الهيولى في غاية الشوق إلى ما يكملها ويتممها في الصور الطبيعية المحصلة إياها نوعاً خاصاً من الأنواع الطبيعية.

ولست أقول أن فيها شعوراً حسب ما تشتاق إليه من جميع الكمالات العليا كيف وأن لها نحواً ضعيفاً من الشعور بالوجود الذي لها من طبيعة الوجود الذي هو عين الخير والسعادة لكن الغرض أن لها قابلية الاستكمالات بحسب الصور الكمالية وإن كانت في أزمنة غير متناهية ومتدرجة من الأضعف إلى الأعلى.

فالهيولى بحسب ذاتها بذاتها لها شوق إلى صورة ما لخلوها في ذاتها عن صورة وإذا تحصلت بصورة كالذرة مثلاً فبحسب اعتبار تحصلها الخارجي بتلك الصورة المكملة لها لم يتم لها السلوة والاطمئنان والغنى، بل الشوق يحصل لها عند تنوعها وتحصلها بتلك الصورة إلى ما يزيد عليها من الكمالات التي في درجة ثابتة فيها وهكذا فإن كل صورة حصلت للهيولى ليست مما يغنيها عن الافتقار إلى كافة الصور بل إنما كفت حاجتها إلى نفسها فتبقى الهيولى ذات شوق وشهوة إلى سائر الصور.

فكل صورة حصلت للهيولى لم تخل بعد عن نقص ما وقصور ما وشر ما يكون بالإمكان بإزائه من الكمالات والخيرات غير المتناهية لم يخرج بعد من القوة إلى الفعل إلا إلى قدرتنا...

وهكذا تترقى في الاستعدادات بحصول الكمالات الإضافية وفيضان الخيرات النسبية ويكون بحسبها التشوق المناسب لها إلى أن ينتهي إلى الكمال النفساني على مراتبه والكمال العقلي على مراتبه إلى أن يصل إلى الكمال الأتم والخير الأقصى والصورة بلا شوب مادة والفعلية بلا قوة والخير بلا شر والوجود بلا عدم فتقف عنده الحركات وتسكن لديه الاضطرابات وتطمئن إليه الانزعاجات وتنقطع له الأشواق وتتم فيه الخيرات.

أنا: هذا كلام أشبه ما يكون بالتخيلات ولا نستطيع أن نفهم كنهه فهل تريد أن تقول بنظرية التطور الحديثة وبقاء الأصلح.

هو: لا أدري ما تقولون ولكن هذه هي الحقيقة ما شئتم فعبّروا عنها في لغتكم.

أنا: نعود إلى الشيخ الرئيس فإنه مع عظمته الفكرية وكلامه في عشق الموجودات صرح في طبيعيات الشفا عن عشق الهيولى للصورة بأن هذا شيء لست أفهمه ثم بعد أن ردّ هذا الشوق المدعى للهيولى قال فمن هذه الأشياء تعسّر عليّ فهم هذا الكلام الذي هو أشبه بكلام الصوفية منه بكلام الفلاسفة وعسى أن يكون غيري يفهم هذا الكلام حق الفهم فليرجع إليه فيه.

هو: إني لأجل محافظتي على التأدّب بالنسبة إلى مشايخي في العلوم وأساتيذي في معرفة الحقائق الذين هم أشباه آبائي الروحانية وأجدادي العقلانية لست أجد رخصة في كشف الحقيقة فيما أعترف مثل الشيخ الرئيس بالعجز عن دركه والعسر في معرفته بل رأيت السكوت عما سكت عنه أولى وأحق والاعتراف بالعجز عما عجز فيه أحرى وأليق لولا أني رايت هذا الأمر واضحاً عندي منقحاً لدي حتى أقترح عليّ بعض إخواني في الدين أن أوضّح بيان الشوق الذي أثبته أفاخم القدماء من الحكماء وأكابر العرفاء من الأولياء وأنا أوضحته بقدر ما وسعني فليرجع إليه من أراد.

ووصيتي الأخيرة لكم ألا تظنوا أن مقاصد هؤلاء القوم من أكابر العرفاء واصطلاحاتهم وكلماتهم المرموزة خالية عن البرهان من قبيل المجازفات التخمينية أو التخيلات الشعرية حاشاهم عن ذلك ... وعدم تطبيق كلامهم ظاهراً على القوانين الصحيحة البرهانية والمقدمات الحقة الحكمية ناشيء عن

قصور الناظرين وقلة شعورهم بها وضعف إحاطتهم بتلك القوانين وإلا فمرتبة مكاشفات هؤلاء فوق مرتبة البراهين في إفادة اليقين ، بل البرهان هو سبيل المشاهدة في الأشياء التي يكون لها سبب إذ السبب برهان على ذي السبب فكيف يسوغ كون مقتضى البرهان مخالفاً لموجب المشاهدة ، وما وقع في كلام بعض منهم قوله (ان كذبتهم بالبرهان فقد كذبوك بالمشاهدة) معناه أن تكذيبهم كان بما سميته برهاناً وإلاّ فالبرهان الحقيقي لا يخالف الشهود.

مصادر الحلم[1]

(من مؤلفات العلماء):

١. روضات الجنات للسيد محمد باقر الخونساري — طبع إيران.

٢. الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي — طبع العرفان صيدا.

٣. سلافة العصر(للسيد علي خان المدني الشيرازي) .

٤. الفيلسوف الفارسي العظيم (صدر الدين الشيرازي) للشيخ ابي عبد الله الزنجاني (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق) طبع دمشق .

٥. ترجمة مختصرة له (عن صدر الدين الشيرازي)، مطبوعة في أول كتابه مفاتيح الغيب .

(من مؤلفاته المطبوعة في ايران) :

١. الأسفار الأربعة

٢. شرح أصول الكافي

٣. مفاتيح الغيب

٤. الشواهد الربوبية

٥. رسالة الواردات القلبية

٦. رسالة الحدوث

٧. رسالة القضاء والقدر

---

(١) حرصنا على إثباتها كما أوردها الشيخ في المخطوطة دون إضافات.

٨. رسالة سريان الوجود
٩. رسالة إكسير العارفين
١٠. رسالة في الحشر
١١. رسالة خلق الإعمال

الفهارس

الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة (٢)		
وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ...	٢٦٩	١٧٤، ٢٠٧
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا...	٢٨٦	١٤٤
سورة النساء (٤)		
وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ...	٨٢	٢٣
سورة المائدة (٥)		
وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...	٤٤	٣٠
ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...	٥٤	١٦٩
سورة هود (١١)		
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ...	١١٨— ١١٩	١٦
سورة يوسف (١٢)		
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ...	١٠٣	١٥٢
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا...	١٠٦	١٥١، ١٥٢
سورة إبراهيم (١٤)		
تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...	٢٥	١٤٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة العنكبوت (٩١)		
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ❖ وَقَدْ خَابَ...	٩ — ١٠	١٣٣
سورة الضحى (٩٣)		
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ...	١١	١٧٥
سورة التين (٩٥)		
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ...	٤	١٩٨

الأحاديث الشريفة

طرف الحديث	رقم الصفحة
بحر عميق...	٢١، ١٥٦
قد أحيا عقله...	٢٨
إلهي ما عبدتك...	٢٩
هجم بهم...	٢٩
هو مع كل شيء...	١٠٣
لا تنظر إلى من قال...	١٠٧
كلما ميزتموه بأوهامكم...	١٠٠، ١٣١
كلما تصورتموه...	١٥٣
فرقة ناجية...	١٥٣
كل إنسان يولد على الفطرة...	١٥٥
شرك الطاعة لا شرك العبادة....	١٥٥
لأنه شرك لا يبلغ به الكفر...	١٥٥
كل مولود يولد على الفطرة...	١٥٥
طريق مظلم فلا تسلكوه...	١٥٦
سر الله...	١٥٦
لا تؤتوا الحكمة غير أهلها...	١٨٢

الأعلام

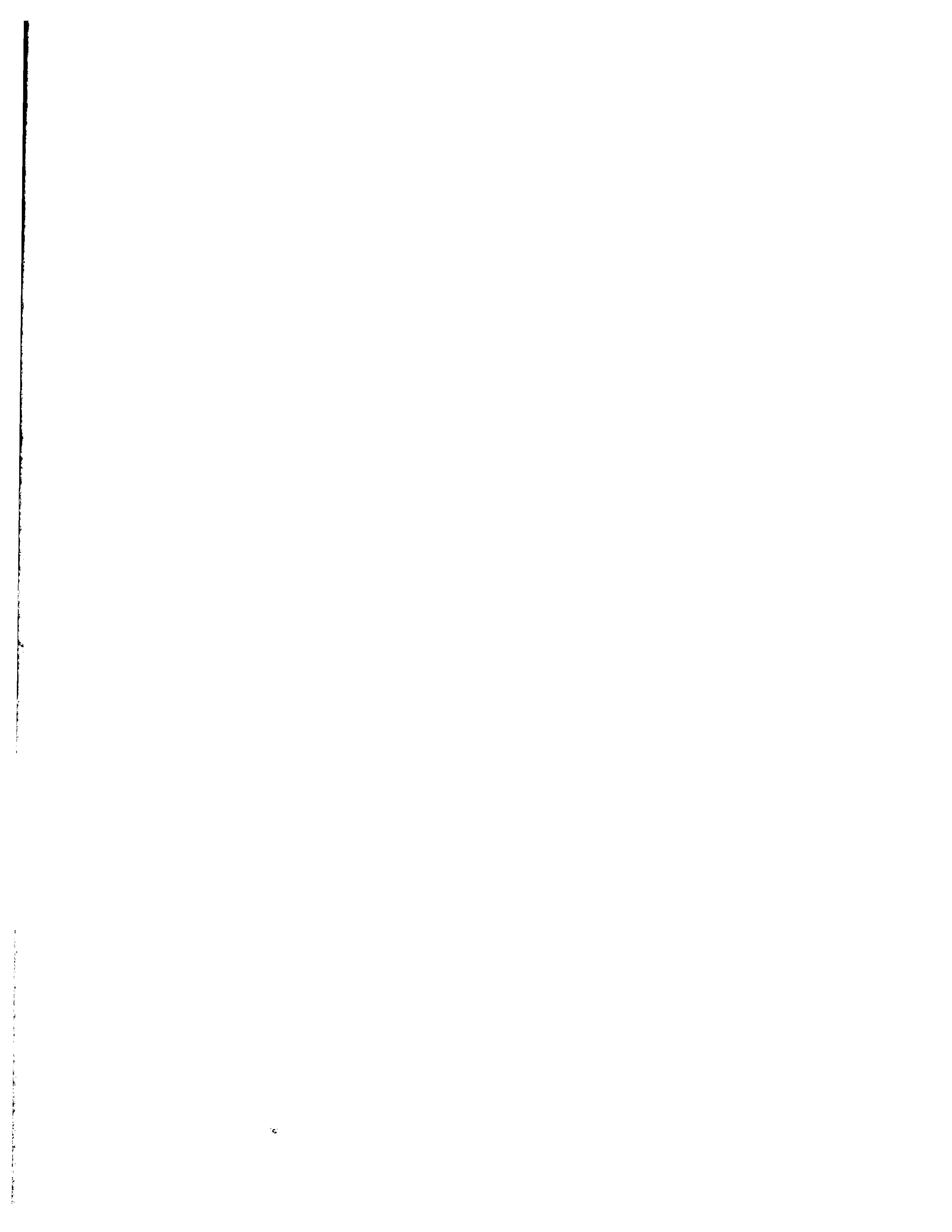
ـ الطاء ـ

ـ العين ـ

ـ الفاء ـ

ـ النون ـ

فهرس المدن والأمكنة



مصادر التحقيق

الكتب

- القرآن الكريم.
- الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث قم ١٣٩٩هـ.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين، نشر دار التعارف بيروت بلا.
- الاشتقاق لابن دريد.
- البصائر والذخائر، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي المتوفى نحو ٤٠٠ هـ، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر بيروت بلا.
- تاريخ الفلسفة الإسلامية، هنري كوبان، مراجعة وتقديم: موسى الصدر، منشورات عويدات بيروت ٢٠٠٤م.
- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، حسن الصدر، منشورات الأعلمي طهران بلا.
- تذكرة الأولياء (فارسي)، الشيخ العطار النيشابوري، طبعة باكستان بلا.
- التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدري، وكالة المطبوعات بيروت ١٩٨٠م.
- تكملة أمل الآمل، السيد حسن الصدر، دار المؤرخ العربي بيروت ٢٠٠٨م.
- تنقيح المقال، الشيخ عبد الله مامقاني، المطبعة المرتضوية في النجف ١٣٥٩ هـ.
- التوحيد، الشيخ الصدوق، جماعة المدرسين قم بلا.

- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، الملا صدرا الشيرازي، شركة دار المعارف الإسلامية طهران بلا.
- الحكمة والزهد في شعر أحمد الصافي النجفي، فوزي علاوي رستم الطائي، رسالة ماجستير في كلية الآداب الجامعة الحرة هولندا (غير منشورة).
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، أغا بزرك الطهراني، دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠٩م.
- السير والسلوك، رسالة منسوبة لسيد مهدي بحر العلوم بلا.
- شعراء الغري، علي الخاقاني، المطبعة الحيدرية النجف ١٩٥٤م.
- صحيح مسلم، نشر دار الفكر بيروت بلا.
- صفحات مطوية من تاريخ الحركة الإصلاحية، محمد حسن القاضي (مخطوط).
- صفحات من تاريخ الأعلام في النجف، محمد حسن القاضي، مؤسسة المنار قم، بلا.
- طبقات أعلام الشيعة، أغا برزك الطهراني، المطبعة العلمية في النجف ١٩٥٤م.
- فلاسفة الشيعة، عبد الله نعمة، دار الكتاب الإسلامي ١٩٨٧م.
- قصة الإيمان، نديم الجسر، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٩م.
- الكشكول، محمد بن الحسين بن عبد الصمد البهاء الدين العاملي البهائي، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية للحلبي بالقاهرة ١٩٦١م.

- اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، لأبي نصر السراج عبد الله بن علي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، القاهرة دار الكتب الحديثة / مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٠م.
- ماضي النجف وحاضرها، جعفر محبوبة، دار الأضواء بيروت ١٩٨٦م.
- مدخل في العلوم الإسلامية، مرتضى مطهري، دار الكتاب الإسلامي قم ٢٠٠٦م.
- مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها، محمد مهدي الآصفي، مطبعة النعمان النجف بلا.
- مراقد المعارف، الشيخ محمد حرز الدين، منشورات مكتبة سعيد بن جبير قم ٢٠٠٧م.
- مشهد الإمام، محمد علي جعفر التميمي، مطبعة دار النشر والتأليف في النجف ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م.
- مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر، صفي الدين الطريحي، تحقيق: محمد كاظم الطريحي، مطبعة الآداب النجف ١٩٥٨م.
- معارف الرجال، محمد حرز الدين، الجزء الثاني، منشورات مكتبة السيد المرعشي قم ١٤٠٥هـ.
- معجم رجال الفكر والأدب في النجف، محمد هادي الأميني، الطبعة الثانية بيروت ١٩٩٢م.
- معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر نعمان بن محمد بن العراق، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٧م.

- معراج نامه (إلهيات الشفاء)، ابن سينا، طبعة رشت بلا.
- المفصل في تاريخ النجف الأشرف، د. حسن الحكيم، منشورات المكتبة الحيدرية قم ١٤٢٧هـ.
- موسوعة النجف الأشرف، جعفر الدجيلي، دار الأضواء بيروت ١٩٩٧م.
- النجف الأشرف مدينة العلم والعمران، محمد كاظم الطريحي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ٢٠٠٢م.
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف ١٩٦٥م.
- هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي، الجزء الثاني، المكتبة الحيدرية قم ١٤٢٦هـ.

المقالات

- الأبعاد الفلسفية في قصة حي بن يقضان عند أبن طفيل، أنور أبو بندورة، شبكة المعلومات ٢٠٠٦م.
- تحقيق نهج البلاغة واقتراح منهج جديد، عبد الرحيم حسن، شبكة نهج البلاغة، بلا.
- تطور الدرس الفلسفي في النجف، د. عبد الجبار الرفاعي، موسوعة النجف الأشرف للدجيلي.
- الحوزات الأخلاقية والعرفانية في النجف، عرفان محمود، موسوعة النجف الأشرف للدجيلي.
- علم الكلام، الدكتور محمود المظفر، منشور في مجلة النجف.
- الكشف والشهود في مناهج الحوزة العلمية، كريم المحروس، شبكة ديوان العرب ٢٠٠٦م.
- مقدمة كتاب الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للشيخ الطوسي، الدكتور محمود المظفر، إصدار جمعية منتدى النشر بالنجف ١٣٩٩هـ.

مؤلفات وبحوث الشيخ محمد رضا المظفر

- ابن سينا وعلاقة الدين بالفلسفة.
- آراء صريحة، مخطوطة.
- أصول الفقه.
- تخميس الأزرية، منشورات الطبعة الحيدرية النجف ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠م.
- حاشية المظفر على المكاسب، تحقيق: جعفر الكوثراني، نشر حبيب، ١٤١٥هـ.
- حرية الإرادة والقضاء ومسألة القضاء والقدر، بحث نشر في مجلة النجف.
- ديوان الشيخ محمد رضا المظفر، صنعة وتحقيق: محمد رضا القاموسي، مخطوطة في مكتبتي.
- عقائد الإمامية، مؤسسة الإمام علي ١٤١٧ هـ.
- فلسفة ابن سينا، مجلة البذرة العدد الخاص بالذكرى الألفية لابن سينا.
- الفلسفة الإسلامية، دروس الشيخ المظفر التي ألقاها على طلبة كلية الفقه بين عامي (١٩٥٨ — ١٩٦٢)، إعداد: محمد تقي الطباطبائي التبريزي، مؤسسة دار الكتاب الجزائري في قم ١٤١٣هـ.
- فلسفة الكندي، مجلة النجف، العدد الثالث السنة الخامسة.
- قطوف دانية، بحوث ومقالات للمظفر، دار الزهراء بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

- فلسفة الكندي، العدد الممتاز الصادر بمناسبة الذكرى الألفية للفيلسوف الكندي، مجلة النجف العدد الثالث رجب ١٣٨٢هـ / كانون الأول ١٩٦٣م.
- المثل الإفلاطونية عند ابن سينا، مجلة البذرة النجفية.
- [المشاؤون والإشراقيون، مجلة العرفان.
- معجزة أمير المؤمنين (ع) في علمه، مجلة النجف.
- مقدمة تحفة الحكيم للكمباني، المطبعة الحيدرية النجف بلا.
- المقدمة الكاملة للأسفار، مركز الدراسات العقائدية في النجف، مطبعة الرائد ٢٠٠٧م.
- من أوراق الشيخ المظفر، إعداد وتقديم: محمد رضا القاموسي، مجلة آفاق نجفية العدد الثامن السنة الثانية ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧م وما بعدها.
- المنطق، منشورات المهدية ١٤٠٨هـ.
- نظرية المعرفة عند الإمام علي (ع)، مجلة النجف.

المجلات والصحف

- البذرة، نشرة أصدرتها لجنة تآخي الطلاب في منتدى النشر في النجف.
- الدليل، رئيس تحريرها المرحوم الشيخ عبد الهادي الأسدي، النجف.
- الرسالة، أصدرها أحمد حسن الزيات، القاهرة — مصر.
- الشهادة (جريدة)، قسم الإعلام للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، طهران.
- العرفان، رئيس تحريرها أحمد عارف الزين أصدرها في صيدا — لبنان.
- الفكر، رئيس تحريرها محمد جواد الغبان، بغداد.
- الكحلاء (جريدة)، رئيس تحريرها أحمد فائق، العمارة.
- المرشد العربي، أصدرها الشريف عبد الله الفضل، اللاذقية.
- الموقف الأدبي، اتحاد الأدباء العرب، دمشق.
- النجف، رئيس تحريرها السيد هادي فياض، النجف.
- الهاتف، رئيس تحريرها جعفر الخليلي، النجف.
- الهدى، أصدرها السيد عبد المطلب الهاشمي، العمارة.

فهرس الكتاب